هيئة التحرير

المشرف العام
الدكتور سالم بن محمد المالك
المدير العام للإيسيسكو

رئيس التحرير
روضة الحاج

مدير التحرير
د. أنس النعيمي

أعضاء هيئة التحرير
د. محمد العنزي
د. زيد أبو شمعة
أ. محمد الشيخي
أ. عادل بوراوي
د. رنا الأصبحي

الإخراج الفني
مركز الترجمة والنشر

رقم الإيداع القانوني
2025PE0012

www.icesco.org
info@icesco.org

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي منظمة الإيسيسكو

صومعة حسان بالرباط - المغرب

مجلة الإيسيسكو

ثقافية فصلية شاملة

العدد 06 | أبريل 2026

عنوان منظمة الإيسيسكو
شارع الجيش الملكي، حي الرياض
ص.ب. 2275، ر.ب. 10104، الرباط، المملكة المغربية

الموقع الإلكتروني للمنظمة
www.icesco.org

البريد الإلكتروني للمنظمة
Contact@icesco.org

البريد الإلكتروني للمجلة
icesco_magazine@icesco.org

+212-5375-66052

+212-5375-66012/13

عنوان مكتب الإيسيسكو بالشارقة
طريق المدينة الجامعية - المدينة الجامعية - إمارة الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
www,icesco.org.ae
+971 6 507 0000

في هذا العدد

حوار مع
شيخ الكوديكولوجيين العرب 8
الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين

ملف خاص 14
الرباط عاصمة الكتاب العالمية

مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو 30
منارة معرفية جديدة للحوار الثقافي

دور الإيسيسكو في تمكين النساء 34
رؤية مؤسسية متكاملة

تخوم التخييل الذاتيّ 44
مع الباحثة الفرنسية إيزابيل غريل

50 حوار مع الكاتب والمخرج الفلسطيني
فتحي عبد الرحمن

68 جهود الإيسيسكو في خدمة اللغة
العربية في إفريقيا

74 صحراء تمبكتو
حيث توقّف الزمن الشعري!

80 النقاء العرقي.
حقيقة أم وهم؟

94 يواقيت من قوافي الأقطار

برج العدواني بالشارقة، خور فكان -الإمارات - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

كلمة العدد

المدير العام

د. سالم بن محمد المالك

عددٌ ربيعيٌّ جديد تتفتّح معه رؤى الإيسيسكو وتورق، فتفيض بهجةً في عيون الناظرين، وتتواصل عبره مبادراتٌ طال لها الإعداد، وأُحكم نسجها بإتقانٍ وإحسان، حتى تؤتي ثمارها في الارتقاء بالتربية والعلوم والثقافة في أرجاء العالم الإسلامي.

ندخل ربيع هذا العام متوّجين بتاج فخارٍ مشرّف، ألبسنا إيّاه الملك محمد السادس، حفظه الله، من خلال توجيهه السامي بتوطين معرض السيرة النبوية بمقر الإيسيسكو في الرباط؛ هذا المشروع الذي أضاء مسارات العمل الثقافي للمنظمة، وشرفها باستقبال أكثر من عشرة ملايين زائر، شدّهم الحنين إلى الحبيب المصطفى، فشدّوا الرحال إلى رباط الفتح، زرافاتٍ ووحدانًا، ينهلون من معين هذه الرحلة الروحية، ويروون ظمأ الأرواح في رحاب سيّد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وقد توافدوا من مختلف جهات المغرب، حواضرِه وبواديه، ومن خارجه أيضًا، في مشهدٍ يعكس عمق الأثر وسمو الرسالة؛ فكان ذلك شرفًا مضاعفًا، وتكليفًا نعتزّ بإنفاذه منذ لحظة صدوره.

وتبسط الرباط، حاضرة الأنوار، أفياءها الوارفة على صفحات هذا العدد، وقد تزيّن غلافه بجمالها الآسر، وإرثها العريق، ومعالمها البديعة، احتفاءً باختيارها من قبل اليونسكو عاصمةً عالميةً للكتاب؛ إذ أفردنا في هذا العدد حيّزًا وافرًا لإبراز مآثرها الثقافية، ومخطوطاتها النفيسة، وذخائرها الإبداعية، وفضاءاتها الأدبية، إسهامًا من الإيسيسكو في هذا العرس الثقافي العالمي.

ويأتي هذا العدد وقد ودّعنا شهر رمضان المبارك، شهر الخيرات والبركات، الذي شهد استمرار إحدى أبرز مبادراتنا: "ومضات فكرية"، حيث استضفنا نخبةً من أعلام الفكر والعلم في العالم الإسلامي، قدّموا عبر ثلاثين يومًا زادًا معرفيًا وروحيًا رفيعًا. كما تواصلت، وللعام الثالث على التوالي، الشراكة المتميزة بين الإيسيسكو وجمعية عقيلات السفراء العرب ومديري المنظمات الدولية المعتمدة بالمغرب، من خلال الندوة الأسبوعية الفكرية الثقافية، الموسومة بـ الإحسان في الاستخلاف، التي استقطبت نخبةً نوعية من الحضور من مختلف المشارب والاهتمامات، في مشهدٍ يعكس عمق التفاعل وثراء الحوار.

واستقبلنا عيد الفطر المبارك بما يليق بأيام الله وشعائره من احتفاءٍ وتوقير، رغم ما يشهده العالم من توتراتٍ مقلقة، لا سيما في العالم الإسلامي. وإننا لنبتهل إلى الله أن يؤلّف بين القلوب، وأن يعمّ الأمن والسلام أوطاننا، وأن تصان مؤسسات التعليم، وتحفظ الممتلكات الثقافية والتراثية من كل سوء، وأن تبقى المجتمعات واحات استقرار وأمان؛ إذ لا ازدهار لثقافة، ولا رسوخ لتربية، ولا تطور لعلوم، ولا طمأنينة لحياة، بغير أمنٍ وسلام.

ولم نَنشأ، أيها الكرام، أن يمضي شهر مارس المنصرم دون أن نقف عند محطّةٍ مضيئةٍ من محطات التقدير، فنحتفي بالمرأة، وهي التي توليها الإيسيسكو عنايةً خاصة، وتخصّها بمكانةٍ رفيعة في صميم رؤيتها ورسالتها. فقد حرصت المنظمة، قولًا وفعلًا، على تمكين المرأة، وتعزيز حضورها، وإتاحة الفرص المتكافئة أمامها لتبوأ مواقع القيادة والمسؤولية، إيمانًا بكفاءتها وقدرتها على الإسهام الفاعل في صناعة المستقبل.

والحقُّ أن نساءنا قد أثبتن جدارةً لافتة وتميّزًا أصيلًا، فاستحققن كل تقدير وإجلال؛ فتحيةٌ خاصة لنساء العالم الإسلامي، صانعات الحياة، وغارسات السلام والمحبة، وراعيات القيم، وزارعات الخير. وتحيةٌ أسمى للأمهات، وهنّ يحملن على عواتقهن مسؤولياتٍ جسامًا، في تنشئة أجيالٍ واعية بحاضرها وتحدياته، معتزّة بماضيها ومنجزاتها، ومقبلةٍ على غدٍ مشرق بإذن الله.

أما مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو، فهي هديتنا الربيعية لكل طلاب العلم وعشّاق المعرفة والثقافة؛ فعند صدور هذا العدد، تكون المكتبة قد اكتملت بهاءً واستوت على سوقها، صرحًا معرفيًا نابضًا، يجمع بين ثراء المحتوى وحداثة الوسائل. فهي تحتضن رصيدًا متنوعًا من الكتب الورقية والرقمية وفق أحدث النظم المكتبية، وتضم فضاءً مخصصًا للأطفال، إلى جانب قاعة محاضرات مجهّزة بأرقى التقنيات. وتُعدّ هذه المكتبة ثمرة شراكة مثمرة وتعاون بنّاء بين المنظمة وسلطنة عمان، في تجلٍّ جديد لجهود دعم المعرفة ونشر الثقافة.

ختامًا، نضع بين أيديكم هذا العدد الجديد من مجلة الإيسيسكو الثقافية، بما يزخر به من أبواب متنوعة، وحوارات ثرية، ومواد متجددة، وقد خطت المجلة خطوة نوعية نحو توسيع حضورها في المشهد الثقافي والإعلامي، من خلال مركز الإيسيسكو الإقليمي بالشارقة، حيث ستصدر في كلٍّ من الرباط والشارقة بالتزامن، ليغدو إشعاعها الثقافي والأدبي والمعرفي أوسع مدىً، وأبلغ أثرًا في فضاءات خليجنا العربي.

ونسأل الله تعالى أن يحفظ أوطاننا آمنةً مطمئنة، وأن يُسبغ عليها نعمة الأمن والسلام، وأن يجمع كلمتنا، ويوحّد صفوفنا، ويؤلّف بين قلوبنا؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.

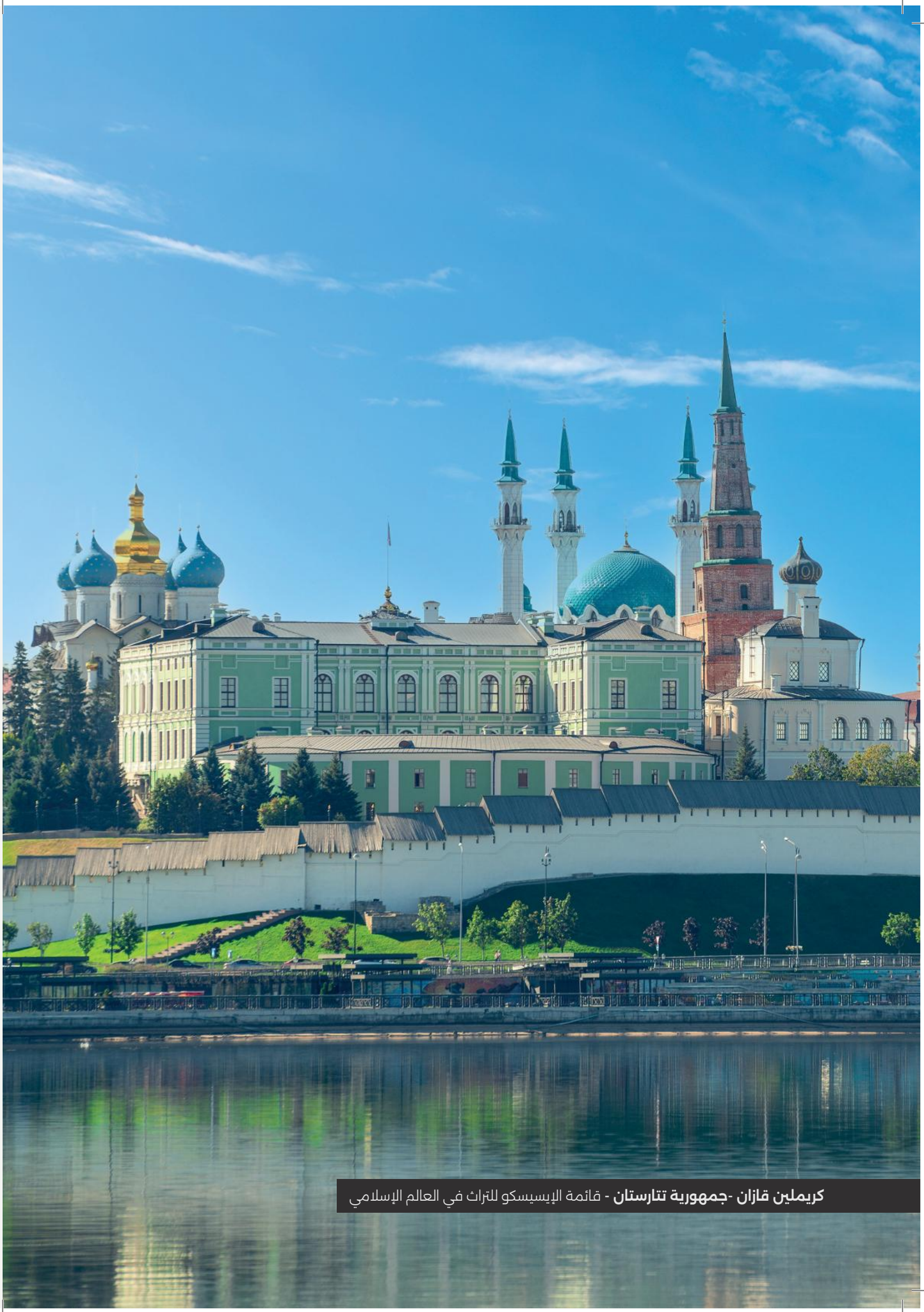

كريملين قازان -جمهورية تتارستان - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

كلمة التحريـــر

إنه العدد السادس من مجلتكم مجلة الإيسيسكو الثقافية وهي تغذ السير على طريق الصحافة الثقافية الجادة، وسط حفاوتكم بها واستبشاركم بصدورها، ودعمكم الذي لم ينقطع.

هذا عددٌ خاص، أردنا له أن يكونَ احتفاءً بمدينةٍ حبيبةٍ قريبةٍ إلى قلوبنا، هي رباط الأنوار كما يسميها البعض، ورباط الفتح كما يحب أن يناديها آخرون، ورباط الكتاب كما نسمّيها في هذا العدد الجديد الخاص، إذ إننا نحتفي باختيارها عاصمةً عالمية للكتاب.لذا أفردنا لها الغلافَ فجمّلته، وخصّصنا لها جزءًا مقدّرًا من العدد، والذي ساهم معنا فيه نخبةٌ من أهل الشأن، بدايةً بحوار الدكتور أحمد شوقي بنبين العالم المعروف ومحافظ الخزانة الملكية المغربية، فحدّثنا حديث العارف عن الكتاب المخطوط، وعن ذخائرالخزانة الملكية، وعن خصوصية الرباط كعاصمة للكتاب، وعن الذكاء الاصطناعي وأهمية تضمين علوم المخطوطات في المناهج التربوية وغير ذلك الكثير في حواره الماتع مع زميلنا الدكتور أحمد عبد الباسط الخبير بمركز الإيسيسكو للخط والمخطوط، مرورًا بالرباط الشاعرة التي استعرض فيها الدكتور السعيد بنفرحي نخبة من أميز شعراء الرباط وأدبائها وأنديتها الثقافية، التي ملأت ساحاتها أدبًا وعلمًا ومعرفةً، وصولًا إلى سياحة جغرافية تاريخية، يُعزّفُنا عبرها الكاتب أحمد سوالم على جوانب أخرى في سيرة حياة المدينة المذهلة الرباط ، وفي الملف الخاص ذاته يأخذنا الزميل الدكتور محمدن أحمدو في رحلة مع حضور الكتاب المغربي في إفريقيا عابرًا حقب التاريخ وفواصل الجغرافيا، وغير بعيد عن الحدث نستعرض ضمن ملفنا الخاص هذا بشرى افتتاح مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو، والتي جاءت شراكةً بين المنظمة وسلطنة عمان، حيث نعرض تفاصيل حكايتها كمنجز ثقافي وصرح معرفي تعتزُّ به الإيسيسكو ويمثل إضافة ثرية للمشهد الثقافي المـوّار في الرباط، كما صرّح بذلك معالي المدير العام للإيسيسكو، لتتّسق ضمن منظومة هذا العرس الثقافي الكبير فتفتح أبوابها لطلبة العلم ومحبي المعرفة في المغرب الحبيب.

تطالعون أيضًا عبر هذا العدد الحوار الذي أجراه الشاعر والصحفي العماني الكبير عبد الرزاق الربيعي مع المخرج المسرحي الفلسطيني المعروف فتحي عبد الرحمن، حيث يستعرض حضور المأساة الفلسطينية في المسرح الفلسطيني وهمومه وتحدياته وقضاياه، ثم يصحبنا الأستاذ هشام عدرة في رحلة تاريخية معمارية إلى سورية عبر سيرة حياة مساجدها وجوامعها ويا لها من سيرة عطرة!

مصر تحضر بأناقتها المعهودة عبر استعراض الدكتور محمد احمد عنب لمقتنيات أحد عشاق الحضارة الإسلامية؛ البريطاني السير جاير، كذلك ندخل مع الدكتور محمود كحيلة عالم الروائي الكبير نجيب محفوظ من بوابة التاريخ هذه المرة.

وتحضر حسناء اللغات اللغة العربية عبر مادتين يتناول في أولاهما الدكتور محمد خليفة جهود الإيسيسكو في نشر وتعليم اللغة العربية في إفريقيا وفي الثانية تتناول الدكتورة راوية جاموس تجربة تعليم اللغة العربية في اليابان.

أما الدكتور محمد الداهي فيحاور ويترجم عن الفرنسية حواره مع الباحثة اليزابيث غريل المتخصصة في النقد التكويني، ويعرض لمبحث شحيح الدراسات في الثقافة العربية وهو التخييل الذاتي.

الزميل محمد الأنصاري يفتح لنا طريقًا قلَّ عارفوه، حينما يصحبنا إلى صحراء تمبكتو المليئة بالحكايات والأسرار والمعارف، إذ ما تزال رمالها تحكي قصةَ حضارةٍ ومملكة كان لها شأن، ويختار الأنصاري أن تكون الرحلةُ شعريةً مليئة بالمفاجآت.

ليس هذا كل ما في العدد من المواد الغنية، فهناك جهود الإيسيسكو في دعم وتمكين المرأة مع السيدة رانيا الشوبكي، وهناك استعراض الأستاذ مصطفى المعطاوي لكتاب (يواقيت مراكشية) ومصر التي في خاطر الجواهري مع الدكتور عبد الحسين شعبان وخواطر الزميل الدكتور عبد الله ميغا عن إفريقيا، والفلاحة والعمران في الحضارة الإسلامية مع الدكتور خالد عزب، وبين هذه وتلك تتهادي قصائد الشاعر السفير خالد فتح الرحمن والشاعرة جمانة الطراونة والشاعر أنس النعيمي فيما تتناثر مختاراتنا من قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي هنا وهناك.

لا غنى لنا عن ملاحظاتكم ومتابعتكم

كل التقدير لكم

ICESCO_MAGAZINE@ICESCO.ORG

روضة الحاج

ملف خاص

شيخ الكوديكولوجيين العرب
محافظ الخزانة الحسنية الملكية بالمغرب
الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين

لهذا تفوّقت الرباط على المدن المغربية كافة بما ضمّته من خزائن الكتب والمخطوطات

د. أحمد عبد الباسط

خبير بمركز الخط والمخطوط في الإيسيسكو

مصر

عندما تفتحُ مدينةُ الأنوار (الرباط) أبوابَها لاستقبالِ شمسِ المعرفةِ بوصفِها عاصمةً عالميَّةً للكتابِ 2026م، وتزدانُ شوارُعها وأروقتُها بجديدِ المطابع، وتعزفُ أنديتُها إيقاعَ الكُتبِ وسمفونيتَها الخالدة، لتُخرجَ نورًا مِن ظلامٍ، وحياةً مِن مواتٍ، وروحًا تنطقُ على الورقِ لا تجدُ مجلةُ الإيسيسكو أفضلَ مِن عالِمٍ قضى عقودًا مِن عُمرِه في مرافقةِ الكتابِ المَخْطوطِ، يفكُّ طلاسمَ ورقِه، ويستنطقُ أحبارَ التاريخِ، ويقرأُ في جسَدِ الكتابِ ما لا تراهُ عيونُ الناظرين. تحاورُه، وتكشفُ عن ذاكرة الأُمَّةِ المُختزنةِ في عقلِه ووجدانِه، وتناقشُ معه كيفَ يمكنُ لهذا الإرث الكبير أنْ يجدَ حظَّه في عصرِ الذكاء الاصطناعيّ؟ وكيف يحضرُ المخطوطُ في قلب احتفالية الرباطِ عاصمةً عالميَّة للكتابِ بوصفِه دليلًا راسخًا على عراقةِ أُمَّةٍ لم تنقطعْ صلتُها بالحرفِ يومًا؟

وشخصيَّةُ الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين فذَّةٌ وأثيرةٌ؛ فهي مزيجٌ فريدٌ مِن العقلِ الرَّاجحِ، والخُلقِ الرفيع، والمنهجيَّةِ الدقيقةِ، والعُمقِ المعرفيِّ، والأمانةِ العلميَّةِ، والرُّؤيةِ المستقبليَّةِ، والمحبَّة والتواضع، والبذلِ والعطاء. له في كُلِّ فنٍّ حظٌّ وافرٌ، وفي كلِّ قُطرٍ مِن بقاعِ المعمورةِ نصيبٌ غيرُ منقوصٍ من المحبَّةِ والذِّكْرِ الحسَنِ على ألسنةِ الدارسين والمُحقِّقين والمُفهرسين والباحثين، وقد حصدَ (حفظَه الله) عدَّةَ أوَّلياتٍ؛ منها: أنَّه أوَّلُ باحث مختصٍّ في العالم العربي بعلم الكوديكولوجيا (علم دراسة الكتاب المخطوط بوصفه قطعة ماديَّة)، وهو أوَّلُ مَن أصدرَ كتابًا تأصيليًّا في هذا التخصُّص، وأوَّلُ مَن ألَّف معجمًا كوديكولوجيًّا عربيًّا لمصطلحات الكتاب العربي المخطوط.

البداية من مُرَّاكُش حيث المولد والتعليم الأوَّلي والحصول على البكالوريا عام 1967م، ثُمَّ الانتقال إلى فاس حيث الإجازة في الآداب عام 1971م، ثم الرحلة إلى الجامعة الفرنسية (السوربون) والحصول على دكتوراه الدولة بدرجة مشرِّف جدًّا عام 1986م. ما الذي تستوعبُه ذاكرتُك الحافظة في هذا الصدد؟

كان والدي (رحمه الله) مِن عُلماء مُرَّاكش، تخرجَ في جامع ابن يوسف سنة 1953م، في مقابل جامع القرويين بفاس. وكانت مُرَّاكش وفاس تتنازعان الزعامةَ العلميَّة، وعلماءُ مُرَّاكش في منافسة دائمة مع عُلماء فاس. وكانت لدى والدي مكتبة، ما زالَ عندي إلى اليوم بعضُ كُتبِها، أتذكر منها كتاب (النثر الفني في القرن الرابع)، للدكتور زكي مبارك، وهو أطروحته في باريس، باللغة العربية، سنة 1934م، كنتُ مغرمًا بقراءة هذا الكتاب في مجلَّدَيْه الاثنين.

ولمَّا سافرتُ إلى باريس للالتحاق بالجامعة الفرنسية (السوربون) فكَّرتُ في الوقت نفسِه في تخصُّصٍ جديدٍ هو علمُ المكتبات، وأنا مُحِبٌّ للكُتبِ والمكتبات، فتحصَّلتُ على دبلوم الدراسات العُليا في علومِ المكتبات عام 1973م، مِن المدرسة الوطنية العُليا لعلوم المكتبات بباريس، وكنتُ أوَّلَ عربيٍّ تخرَّجَ فيها، بعدها بعامين تحصَّلْتُ على دكتوراه السلك الثالث من جامعة السوربون عام 1975م، وبعد عشر سنواتٍ تحصلتُ على دكتوراه الدولة من الجامعة الفرنسية بالإجماع، بدرجة (مشرِّف جدًّا) عام 1986م.

الذكاء الاصطناعي مهم جدًّا، لكنه لن يقوم أبدًا مقام الباحث

أتذكرُ أنَّني لمَّا كنتُ في دكتوراه السلك الثالث اشتغلتُ بالتصوُّف الإسلاميّ ومصطلحاته، وكنتُ أقرأ أعمال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (ت 1962م) (Louis Fernand Jules Massignon) عن شخصيَّة الحلاج، وكتابه عن مصطلحات الصوفية في القرن الثالث الهجري. وكانت رسالتي عن التصوف عند ابن الفارض ومصطلحاته في القرن الرابع، وقد تحصلتُ عليها عام 1975م بميزة (حسن جدًّا). كان حينها أمامي اتجاهان: إما أن أستمرّ في التصوُّف ومصطلحاته، أو اتَّجه إلى العالَم الآخر؛ عالَمِ الكُتب والمكتبات بعد حصولي على دبلوم علوم المكتبات، فاخترتُ دراسةَ تاريخ خزائن الكُتب بالمغرب، وحصلتُ في هذا الموضوع على دكتوراه الدولة من الجامعة الفرنسية، بدرجة (مشرف جدًّا) عام 1986م، وصدرت الأطروحة في أربع طبعات متتالية، بداية من عام 1993م، بتقديم المستشرق الفرنسي روجي أرنالدز (ت 2006م) (Roger Arnaldez)، كما نُقِلت إلى العربيَّة مرَّتَيْن.

تشغلون منذ عام 1994م منصبَ محافظ الخزانة الحسنية الملكيَّة بالرباط، وهي أقدمُ خزائن المغرب وأثراها وأنفسُها؛ إذ تحتوي على ما يقرب مِن ثلاثين ألف عنوان مخطوطٍ. كيف استطاعت المملكةُ المغربيةُ الحفاظَ على مثل هذه الخزائن برصيدِها الهائل، بينما ضاعت خزائنُ كُبرى في حواضر إسلامية أخرى؟

السبب في ذلك أنَّها خزانةٌ ملكيَّةٌ، وكلُّ الأُسر التي تعاقبت على حُكم المغرب؛ بدءًا بالأسرة الإدريسية الشريفة، ثُمَّ المرابطين، ثُمَّ الموحِّدين، ثُمَّ المرينيِّين، ثُمَّ الوُطَّاسيين، ثُمَّ السعديين، ثُمَّ العلويين، كانت لديهم جميعًا خزائن للكتب، فكانوا يقتنون الكُتب مِن جميع الجهات، ويستعيرون الكُتب من الزوايا والخزائن العتيقة لاستنساخها وإيداع نُسخٍ منها في خزائنهم. إضافة إلى هذا وجدنا تشجيعَ السلاطين والمماليك وبَذْلَهم المادي لاقتناء نفائس الكتب، حتى إنَّ السلطان المنصور الذهبي في القرن العاشر

الهجري كان يُعطي الذهبَ مقابلَ الكُتب، فكانت خزانةُ السعديّين مِن أعظم خزائن المغرب، التي آلت بعد ذلك - كما شاء القدر - إلى مكتبة دير الإسكوريال.

الحديثُ عن مكتبات المخطوطات المفقودة حديثٌ ذو شجونٍ، يجرُّنا بطبيعة الحال إلى الحديث عن المخطوطات المسلوبة والمُهجَّرة، وليس ببعيد عنا أمرُ مكتبة السلطان المُراكشي مولاي زيدان السعدي، التي أرادَ صاحبُها نقلَها عام 1612م إلى أغادير على باخرة فرنسية، فاعترضتها أربعُ بواخر إسبانية صادرت المكتبة، واستقرَّت آخر الأمر في مكتبة دير الإسكوريال الإسبانية. هل ترون ضرورةَ مطالبة الغرب بهذا التراث المهجَّر ليعودَ إلى مالكِه الشرعيّ، أم توافقون العلامة محمد كُرد عليّ (ت1372هـ) حينما قال: «وإنَّ بعيدًا يُحْسِنُ القيامَ على هذا التُّراثِ الوافرِ لأَحْرى به مِن قريبٍ يُبدِّده جزافًا...»؟

لا أوافقه في ذلك بالتأكيد، كما أنَّه ليست فقط مكتبة السلطان زيدان السعدي التي انتقلت إلى مكتبات أوروبا، فهناك مئات المكتبات التي هُجِّرت مِن المغرب، لكن تبقى مكتبة مولاي زيدان السعدي أكبر هذه الخزائن المسلوبة والمهجَّرة، إذ كانت تحتوي على (4200) مؤلَّف مخطوط، كما أفادتنا بذلك وثيقة غميسة أوردها هنري دو كاستري (ت 1927م) (Henry de Castries)1(*)، في كتابه بالفرنسية عن المصادر الدفينة عن تاريخ المغرب الأقصى (Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc).

كنتُ أوَّل مغربي تخرَّج في المدرسة الوطنية العُليا لعلوم المكتبات بباريس عام 1973م

هذه القضية أحدثت مشكلةً بين ستِّ دولٍ: المملكة المغربية صاحبة الخزانة، وفرنسا صاحبة الباخرة التي كانت محمَّلة بالمخطوطات، وإسبانيا التي قام قراصنتها بالاستيلاء على المخطوطات ونقلها إلى البرتغال التي كانت آنذاك تحت النفوذ الإسباني، قبل استقرارها بعد ذلك بأمرٍ مِن البابا في دير الإسكوريال بإسبانيا، وهولندا التي تدخلت وسيطًا لحلِّ المُشكل فلم تُفلح، والباب العالي العثماني (تركيا)، ولم يُفلح أيضًا.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي وقعت صاعقةٌ بالدَّيْرِ، فأُحرق نصفُ المكتبةِ، وبقيَ منها نحو ألفي مخطوط، قام بفهرستِها لأوَّل مرةٍ باللغة اللاتينية أحدُ الأحبار المارونيين، وهو ميخائيل الغزيري (Casiri)، في مُجلَّدَيْنِ اثنَيْن (1760- 1770م)، تحت عنوان: (المكتبة العربية الإسبانية بالإسكوريال).

وبقيت الخزانةُ مغلقةً في أوجه الباحثين، لا تُفتح إلا لبعض المُستشرقين، حتى قامَ المسؤولون عنها في القرن العشرين بتصويرها وإخراجها في أقراص مُدمجمة، كانت تُباع آنذاك بأربعين ألف دولار! وقد اقتنت المكتبة الوطنية للمملكة المغربية نُسخةً منها، ثُمَّ تحصَّلت الخزانةُ الحسنيةُ على نُسخةٍ هديةٍ منها، أثناء زيارة رسمية لملك إسبانيا خوان كارلوس الأول إلى المملكة المغربية، في يوليو 2013م، قُمنا بطباعتها في (18) مجلَّدًا، متاحة للباحثين والدارسين.

أذكرُ أنني كتبتُ بحثًا قبل ثلاثين عامًا، أطلبُ فيه - بحسب القوانين والمواثيق الدولية، ونظرًا للعلاقة الحميمية الوثيقة بين المملكة المغربية وإسبانيا - استرجاعَ هذه الخزانة، التي ظلَّ المغربُ يُطالبُ باسترجاعها منذ أربع مئة عامٍ، ولم يتحقق ذلك؛ لذلك استرجعناها بطريقة أخرى عن طريق عملِ نُسخة مصوَّرةٍ منها.

طالبت المملكة المغربية باسترجاع خزانة المولى زيدان على مدار أربع مئة سنة

نلتُم عضويَّةَ الكثير مِن المراكزِ والمؤسَّساتِ والجوائز العلميَّةِ الرفيعةِ، وتحصلتُم بأخرةٍ بالأمر السامي الكريم على العضوية الفاعلة لمجلس أمناء مجمع الملك سَلْمان العالمي للغةِ العربيَّة بالمملكة العربية السعودية، لتكونوا أوَّلَ عربيٍّ في مجلس الأمناء من خارج المملكة العربية السعودية. ما الذي تعنيه هذه العضويةُ لكم؟

هذا شرفٌ كبيرٌ لي. كنتُ قد دُعيتُ إلى المملكة العربية السعودية قبل عشر سنوات، مِن قِبَل مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، وألقيتُ بعضَ المحاضرات في جامعة الإمام، وفي جدة، وفي المدينة المنورة. كانت المحاضراتُ عن علم المخطوطات، وقد أبديتُ في أثنائها بعض المسائل اللغوية الدقيقة التي قُوبلت بالاستحسان مِن قِبَل

1 (*) استقرَّت مكتبتُه المعروفة بـ (الشعبة التاريخية المغربية) بالخزانة الحسنية بالرباط، عام 1998م، بأمر مِن صاحب الجلالة الحسن الثاني (رحمه الله).

الدكتور أحمد عبد الباسط مع الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين في إحدى قاعات معمل ترميم المخطوطات داخل الخزانة الحسنية الملكية بالرباط

المسؤولين والمتدربين. أظنُّ أنَّ هذا هو سببُ اختياري لأكونَ عضوًا فاعلًا للأعضاء العشرة في مجلس أُمناء مجمع الملك سَلْمان العالمي للغة العربيّة، برئاسة سموّ الأمير بدر بن عبد الله بن فرحان آل سعود (وزير الثقافة).

لا بد لصُنَّاع القرار في وطننا العربي مِن إعادة النظر في البرامج الدراسية وإدخال مادة الكتاب المخطوط في المراحل المبكرة

طالما ناديتم بضرورة النظرِ إلى الكتابِ المخطوطِ بوصفِه بناءً ماديًّا متكاملًا، وليس بوصفِه حاملًا للنصِّ المعرفيِّ فقط. هل ثَمَّ اختلافٌ في ذلك بين نظرة الدارس للمخطوطِ الغربيِّ ونظرته للمخطوط العربيِّ؟

في كتاباتي المتواضعة منذ أربعين سنة، كنتُ أتردَّد إلى خزائن باريس لأقرأ ما كتبه الفيلولوجيون الفرنسيون عن علم المخطوط، قلتُ حينها: لا بد مِن القيامِ بأبحاثٍ ودراسات في الكتاب العربي المخطوط، واكتشفتُ حينها أنَّ عددًا كبيرًا مِن الظواهر والمصطلحات والتقاليد موجودةٌ في الكتاب العربي المخطوط لا نعرفُها نحن الدارسين العرب، وقد وقفتُ عليها أولًا مِن خلال دراستي المتأنية للمخطوطِ الغربي ومقارنته بالكتاب العربي المخطوط؛ فثمة تشابه كبيرٌ بينهما، فكلاهما مكتوب باليد، وفيهما التعقيبة، والوقفيات، والتملكات، والحواشي...إلخ.

بين الكوديكولوجيا والنشر النقديِّ للنُّصوص تكاملٌ لا تنافر، وكثيرًا ما سمعنا منكم ضرورةَ الدرسِ الكوديكولوجي للنُّسخِ الخطيَّة مِن قِبَلِ المُحقِّق قبل الولوجِ إلى تحقيقِ النصِّ، قد يسأل البعض: أليس هذا الدرسُ الكوديكولوجي مَهمَّةَ مُفهرس المخطوطات، الذي يُحدِّدُ تاريخَ النصِّ ومدى قُربه مِن زمنِ مؤلِّفه، ويدرس خوارجَ المخطوط مِن تملُّكاتٍ وسماعاتٍ وإجازاتٍ وغير ذلك؟

هذه مشكلة أثيرت في عام 1988م، عندما نظَّمت مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، الندوةَ الدولية الأولى حول (المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي: وضعية المجموعات وآفاق البحث)، وتحدثنا فيها عن تقنيات فهرسة المخطوط العربي، وشُكِّلت لجنةٌ علميَّةٌ مكوَّنة مِن ستة عُلماء؛ لوضع بطاقة نموذجيه لفهرسة المخطوط العربي. واقترحتُ على اللجنةِ شيئًا مهمًّا جدًّا، وهو أنَّه إذا أردنا أن نُحدِّدَ الفهرسةَ لا بُدَّ أنْ نُميِّزَها عن علم المخطوطِ، علمًا بأنني ضدُّ فكرة ما يُسمَّى (الفهرسة الكوديكولوجية)؛ فالفهرسةُ هي الوصفُ ليس أقلَّ أو أكثر، وعلى المُفهرس أنْ يصفَ ما هو أمامَه، لكنَّ دراسةَ المخطوطِ والبحث عن الورقِ المُستخدمِ فيه وأصله، والخطِّ الذي كُتب به ومعرفة تاريخه، وقيود تناقل المخطوط وما دُوِّن عليه مِن سماعات وإجازات وغير ذلك، كلُّ ذلك هو مِن مهمَّة الكوديكولوجي وليس المفهرس.

والـدرسُ الكوديكولوجـيُّ مطلـوبٌ عنـد الـنشر النقـديّ للنُّصـوص ولازمٌ للمحقِّـق؛ فعلـى سـبيل المثـال هنـاك آلاف المخطوطـات المؤرَّخـة تأريخًـا غير صحيـح؛ ومِـن ثَـمَّ تلـزم لتحديـد تاريخهـا الصحيـح دراسـةُ النـصّ، والنظـرُ إلى الاعتبـارات التاريخيـة فيـه، ودراسـةُ المـادة المكتـوب عليهـا، وهـو مـا يُمَكِّنُنـا مِـن تعيين منـازل النُّسـخ والإبـرازات، والوقـوف علـى تاريخهـا الصحيـح.

لكم رأي في الذكاء الاصطناعي وما يمكن أن يقوم به من خدمةٍ للكتاب المخطوط، وأنَّه لا يمكنُ أن يقومَ حاليًّا بما يقومُ به الباحثُ، لكنَّنا نشهدُ الآن طفرةً كبيرةً متسارعةً وتسابقًا مخيفًا فيه، فهل تتوقعون أنْ يأتيَ يومٌ يقومُ الذكاءُ الاصطناعيُّ بفكِّ طلاسمِ المخطوطاتِ المُعقَّدةِ أو تحقيق النصوص بدقَّةٍ تُضاهي العملَ الإنسانيَّ، وقد عمدَ إليه البعضُ الآنَ في قراءةِ النصِّ المخطوطِ ومضاهاة بعض النُّسخ بعضِها ببعض؟

الـذكاءُ الاصطناعـيُّ مُهِـمٌّ جـدًّا، ويـؤدِّي خِدْمـاتٍ أساسـيَّةً فـي فـك طلاسـمِ الكتـابِ المخطـوطِ وقـراءةِ الكلمـات الممحـوَّة، لكنـه - فـي رأيـي - لـن يقـوم أبـدًا مقـامَ العقـلِ البشريِّ، قـد يُساعـد فـي قـراءة النصـوص وترتيبهـا، لكنـه لا يمكنـه التمـيز - علـى سـبيل المثـال - بين حوامـل النـصّ (الـرق - البردي - الكاغـد) وأنـواع الـورق وأزمنتـه المختلفـة، ولا يمكـن أنْ يكـونَ مُحقِّقًـا للنـصّ التراثـي، ومِـن ثَـمَّ سـيظلُّ عملُـه جزئيًّـا وميكانيكيًّـا، يفتقـرُ إلـى الباحـث العالـم.

ونحن نشهدُ أجواءَ اختيار اليونسكو للرباط عاصمةً عالميةً للكتاب لعام 2026م، لتكونَ بذلك المدينةَ السادسةَ والعشرين التي تحصدُ هذا اللقبَ منذ انطلاق البرنامج عام 2001م. كيف يمكنُ للكتاب المخطوط - الذي يراهُ البعضُ مادةً للنُّخْبةِ - أنْ يُصبحَ جزءًا رئيسًا مِن الثقافة العامةِ لجمهورِ القُرَّاء؟

لـم يعـد الكتـابُ المخطـوطُ مـادةً للنُّخبـة بعـد مـا شـهدناه مِـن حركـة الطباعـة وانتقـال الكتـب وفتـح خزائـن المخطوطـات للباحثين والـدارسين.

والربـاطُ مدينـةٌ عريقـةٌ، لهـا أدوارٌ بـارزةٌ ومُهمَّـةٌ عبر المراحـل التاريخيـة المختلفـة، الممتـدة مِـن تأسيسِـها علـى مصـبِّ نهـر أبـي رقـراق إلـى الوقـتِ الرَّاهـن. وقـد أحسـنَ المُوحِّـدون صُنْعًـا حينمـا اختـاروا هـذا الموقـعَ لبنـاء مدينـةِ الربـاطِ فـي القـرن السـادس الهجـريِّ للربـطِ بين مُرَّاكُـش عاصمـة إمبراطوريتهـم وقاعـدةِ حُكمهـم، وإشـبيليَّة العاصمـةِ الثانيـة بـبلادِ الأندلـس.

وقـد ظلَّـت منـذ تأسيسـها إلـى اليـوم مقصـدَ عـددٍ كبيرٍ مِـن العُلمـاء الذيـن توافـدوا عليهـا مِـن سُـوس ومُرَّاكُـش وفـاس وغيرهـا، فاسـتقرَّ بهـم المقـام فيهـا، وحملـوا خزائنهـم الخاصـة معهـم. كمـا عرفـت الربـاط - مُـذْ أصبحـت عاصمـةً للمملكـة ابتـداءً مـن 1912م - اسـتقبالَ كـثيرٍ مِـن رجـال الوطنيـة والساسـة الكبـار، حملـوا معهـم - أيضًـا - خزائنَهـم الخاصـة؛ الأمـر الـذي جعلهـا تفـوقُ كُلَّ مُـدنِ المغـرب الثقافيـة العتيقـة.

كلُّ ما نشر في الوطن العربي لا بد أن يُعاد تحقيقه على وفق أسس علميَّة رصينة

أضـف إلـى ذلـك الخزانـةَ الملكيـة التـي تُعَـدُّ أقـدمَ خزانـةٍ فـي تاريـخ المغـرب، والتـي يُعَـدُّ التحاقُهـا بالقصـرِ الملكـي عـام 1961م، وانتقالُهـا بانتقـال العاصمـة، خاصيَّـةً تـكادُ تنفـردُ بهـا هـذه المؤسَّسـةُ، وقـد شَرَعَـتْ أبوابَهـا للباحـثين والـدارسين منـذ شـهر مـارس 1962م، بعـد أن كانـت حبيسـةَ دار المخـزن بفـاس طـوالَ عصر الحمايـة الفرنسـية. ثُـمَّ أضيفـت إلـى رصيدِهـا خزائـنُ ثُلَّـةٍ مِـن كبـارِ العُلمـاء والمـؤرِّخين وبعـض الزوايـا، مثـل: خزانـة مـؤرِّخ المغـرب عبـد الرحمـن بـن زيـدان (ت 1946م)، وخزانـة الشـيخ عبـد الحـي الكتانـي (ت 1962م)، التـي نُقِـل جـزءٌ منهـا إلـى القـصر الملكـي بمُرَّاكُـش، وخزانـة زاويـة (تنغملـت) بأزيلال التـي اقتناهـا الملـك الحسـن الثانـي (رحمـه الله) بعدمـا انتهـت مهمَّتهـا التربويـة بوفـاة شـيخ الزاويـة سـيدي اليزيـد.

مِـن جهـةٍ أخـرى فكَّـرت فرنسـا عـام 1919م فـي بنـاء مكتبـةٍ عامـةٍ بالعاصمـة الربـاط؛ لتقـومَ بـدور المكتبـة الوطنيـة. وتحقَّـق هـذا المشـروع فـي عـام 1926م بموجـب ظهيرٍ ملكـيٍّ يرسـمُ طابعَهـا العـام، وشـكَّلت خزانـة كتـب المعهـد العالـي للدراسـات المغربيـة النـواةَ الأولـى للمكتبـة الجديـدة، إضافـةً إلـى مجموعـةٍ مِـن المكتبـات الخاصـة التـي ضُمَّـت إليهـا، مثـل: مكتبـة مـاء العينيـن، ومكتبـة

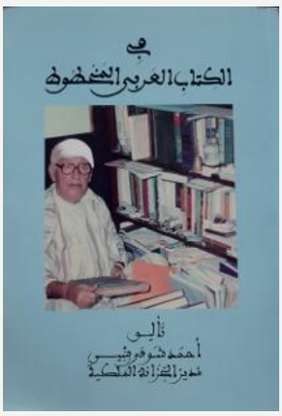

العلامة الحاج مختار بن عبد الله ابن باشا مدينة مكناس، ومكتبة السيد كلوزيل (Clozel)، والسيد لوريش (Leriche) القنصل العام الفرنسي، وغيرها مِن المكتبات. واستمرَّ الأمرُ على ما هو عليه إلى أن افتتحَ جلالة الملك محمد السادس عام 2008م أوَّلَ مكتبةٍ وطنيَّة بربوع البلاد.

ما هي رسالتكم لجيل الشباب مِن الباحثين والمفهرسين والشُّداة في تحقيق النصوص، في ظلِّ عُزوف البعضِ عن الدراسات التراثية والتخصُّص الجاد في علوم المخطوط من جهةٍ، واستسهال البعضِ الآخر لأمر ورُكونِه إلى ما بين يديه مِن مُعطيات دونَ محاولةِ الوصول إلى الغاية والكمال في البحث العلمي من جهة أخرى؟

أخصُّ رسالتي الأولى إلى صُنَّاع القرارِ في الوطن العربي، عليكم أنْ تُعيدوا النظرَ في البرامج الدراسية، فليس لدينا باحثون يعرفون المخطوط وعلم المخطوطات حقَّ المعرفة، ولا يمكن أنْ تبدأ علاقةُ الباحثِ بالمخطوط إلا وهو في السلك الثالث مِن دراستِه الأكاديمية، فهذا خطأٌ قاتلٌ؛ إذ يجبُ على الطُّلاب أن يعرفوا في مراحل دراستهم المُبكِّرة معنى المخطوط، وخطوطه المستخدمة فيه، وعلامات الترقيم والفواصل، وخوارج النُّصوص المختلفة. ولا يتحقَّقُ ذلك إلا إذا خصَّصَ أصحابُ القرارِ مادةَ المخطوط العربي في المراحل الدراسية المبكِّرة، مسبوقةً بالتكوين اللغويّ الجيِّد للطلاب؛ فكثيرٌ مِن المشتغلين بالنشرِ النقديّ وعلوم المخطوط من الشبابِ وغيرهم للأسفِ لا يعرفون العربيَّةَ حقَّ المعرفةِ، ويستعملون مفرداتٍ هي نتاجُ الترجمة الحرفية عن اللغات الأجنبية والقياس الخاطئ عنها.

وأمَّا نصيحتي إلى الباحثين مِن طلبة الدراسات العُليا وغيرهم، فعليهم بالصبر والأناة في البحث، والاجتهاد في التكوين اللغوي والعلمي، والتشبُّع بعلوم الكتاب المخطوط، ومع ذلك كُلِّه لا أنصحُهم بالتسرُّع في تحقيق نصوص في أطروحاتهم الجامعيَّة، بل لا بُدَّ لهم من كثرة المراس حتى يتكوَّنوا تكوينًا عاليًا.

- ختامًا، بعد عقودٍ مِن الصداقةِ مع المخطوطات، ما هي الحكمةُ التي همسَ بها مخطوطٌ قديمٌ في أذن الدكتور أحمد شوقي بنبين ولم يكتبها في مقدِّمات كُتبه بعد؟

هي حكمةٌ وحقيقةٌ مؤلمةٌ، مفادُها: كُلّ ما نُشِرَ في الوطن العربيّ مِن نصوصٍ لا بُدَّ أنْ يُعادَ تحقيقُه على وفق أُسسٍ علميَّةٍ رصينةٍ مِن النَّشرِ النقديّ، واستجماعِ الأصول الخطيَّةِ والإبرازات، وتجنُّبِ الكثيرِ مِن التصحيفات والتحريفات والأخطاء اللغوية الفادحة التي لم يسلم من الوقوع فيها كبارُ المحقِّقين.

شرفٌ كبير لي أن أكونَ عضوًا فاعلا بمجلس أمناء مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية

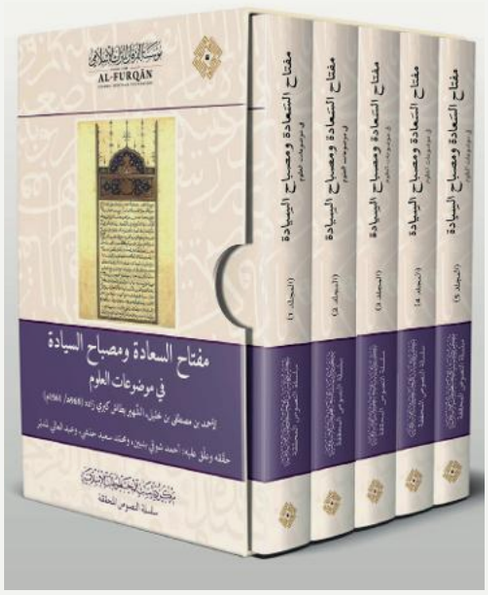

آخر تحقيقات الدكتور أحمد شوقي بنبين لكتاب (مفتاح السعادة ومصباح السيادة)، بمشاركة تلميذيه

ملف خاص

الرباط...

أيقونة المغرب الأقصى..

أحمد سوالم

كاتب

المغرب

تقع مدينةُ الرباطِ عاصمةُ المغربِ السياسيةُ والإدارية، ومقرُّ السلطان على شاطئ المحيط الأطلسيّ وعلى الضفة اليسرى لنهر أبي رقراق عند المصب، شمال خط العرض 37.81° وغرب خط الطول 10.19°. وتمتاز بأنها محدودةٌ بثلاثة حدود طبيعية، تتمثل في المحيط والنهر والجرف الذي يلامس الشاطئ الجنوبيّ لوادي النهر، وتُعَدُّ جزءًا من المنطقة الطبيعية ذات السهول الأطلسية.

وتمتد مدينة الرباط على مساحة تصل إلى 12 ألف هكتارا، منها 418 هكتار تشغل المساحة المحاطة بالأسوار الموحِّدية والأندلسية، ويتسم مناخها بالاعتدال لموقعها على الشاطئ، تصل حرارتها إلى 7° في الشتاء و29° في الصيف، أما مواردها المائية فتستمدها من مياه السد الواقع على نهر أبي رقراق ومنابع الفوّارات وعين غبولة.

من المعروف أن نشأة المدن تكون ببواعثَ سياسيةٍ واقتصاديةٍ واجتماعيةٍ ودينيةٍ وجغرافيةٍ، وكذلك الشأن في مدينة الرباط، فموقعها الجغرافيّ في وسط البلاد نقطةً تفصل جنوب المغرب عن شماله، إذِ الانتقال من العاصمتين التقليديتين للمغرب فاس ومراكش يستوجب المرور بها. هاته العواملُ ساعدت على أن تكون المنطقة آهلة بالسكان منذ القديم، مرَّ منها الفينقيّون والقرطاجيّون والرومان على ما تؤكده الأبحاث الأثرية.

> **تأسيس المدينة تمَّ في عهد الخليفة يوسف بن علي الموحدي، وأكمل تخطيطها وتشييدها ابنه الخليفة يعقوب المنصور الموحدي سنة 593هـ / 1197م**

ويُعَدُّ المهديُّ بنُ تومرتَ كما ذكر عبدُ الواحدِ المراكشيُّ أولَ من فكر في بناء مدينة حول القصبة المُرابطية في الرباط، وأمر الموحدين بذلك، «تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر يعني البحر الأعظم، ثم يضطرب أمركم كما كان وتنتقص عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة، ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان».

اهتم عبدُ المؤمنِ بْنُ عليٍّ بتنفيذ وصية ابنِ تومرت، فبنى النواة الأولى لمدينة الرباط إذ أسس قصبة تحتوي قصورًا ومسجدًا، ومدّ إليها أنابيب الماء من عين غبولة (20كلم من الرباط)، وسمّاها المهديّة تيمُّنًا بالمهديّ بْنِ تومرتَ، وأقبل الناس على سكناها ونشطت بها الحركة التجارية وعمرت أسواقها.

إلا أن تأسيس المدينة تمَّ في عهد الخليفةِ يوسفَ بنِ عليٍّ الموحديّ، وأكمل تخطيطها وتشييدها ابنُهُ الخليفة يعقوبُ المنصورُ الموحديّ سنة 593ه/ 1197م، بعد عودته من معركة

الأرك، وقد خطط لها تصميمًا رائعًا يقال إنه مستوحًى من تصميم مدينة الإسكندرية المصرية، وفي ذلك يقول ابن خلكان: «إنها مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحصينه وتحسينه، وبناها على البحر المحيط الذي هناك وعلى نهر سلا مقابلة لهما من البرّ القِبْليّ».

اتسعت مدينة الرباط وتطورت في صيرورتها التاريخية، وأكسبها تنوعُ من استوطنوها لمسةً فريدةً قلما تجدها في مدينة مغربية أخرى، فقد نقل إليها الأندلسيون الذين استقروا بها نماذجَ رفيعةً من الحضارة الأندلسية وطبعوا حياتها الاجتماعية والفكرية والاقتصادية، فامتزجت العادات والمظاهر امتزاجًا عميقًا، وجعلتها الأسرة العلوية قاعدة ملكية بتشييد السلطان محمدِ بْنِ عبدِ الرحمانِ قصرَهُ الملكيّ بها، لتصبح منذ عهد المولى يوسفَ إلى الآن العاصمةَ الرسميةَ للمملكةِ المغربية.

تاريخ دبلوماسيٌّ وعسكريٌّ واقتصاديٌّ

ارتبط تاريخ مدينة الرباط بالجانب العسكريّ، فقد كانت قبل بنائها مربطًا لجيش ملوك الإسلام المترددين على فنائها، إذ كانت تتخذ طابع الحصن أو القلعة، فقد كانت معقلًا للجنود المنطلقين نحو الأندلس في عهد الموحدين، وأحيانًا في عهد المرينيّين، وتجددت وظيفتها العسكرية بعد قدوم الأندلسيين إليها، فقد مارسوا نشاط الجهاد البحريّ ضد الأساطيل الأوربية.

واستمرت الوظيفة العسكرية لمدينة الرباط حتى خلال القرن التاسع عشر، فقد كانت منطلقًا للعمليات التأديبية التي يقودها المخزن المغربيّ، وكانت مركزًا لتدريب الجيش من طرف الأوربيين في إطار الإصلاحات التي كانت تعرفها البلاد خلال هاته الحقبة.

وكانت الرباط أيضًا مركزًا سياسيًّا ودبلوماسيًّا، إذ كانت خلال القرن الثامن عشر مقرًّا للقنصليات الأوربية، ويدل على الماضي الدبلوماسيّ للمدينة شارعُ القناصل، الذي كان يضم قناصل السويد و الدنمارك وهولندا وفرنسا.

وكانت مدينة الرباط مركزًا اقتصاديًّا مهمًّا، فقد كان النشاط الزراعيُّ مزدهرًا بفعل العوامل الطبيعية والمناخية الملائمة، إذ كانت المساحات الزراعية بساتينَ، وهي أنواع: العرصة والجنان والسّانية، والعرصات كان يمتلكها أغنياء المدينة، وعَرَفتِ المدينةُ وفرةَ الثروة السمكية ولا سيما سمك الشابل.

ترتب عن ازدهار الإنتاج الزراعيّ قيامُ صناعات مهمة كالمنسوجات القطنية والكتانية وعصر الزيوت ... وتميزت المدينة بكونها تجمُّعًا صناعيًّا مهمًّا، فسكانها أهل حِرَف، فعلى وفق ج. لويس ميج، كانت الرباط خلال الحقبة ما بين 1855م و 1870م من أكثر مراكز المغرب ازدهارًا في ميدان الحرف والصناعة، خصوصًا الزرابيّ والحصير والحايك والمناديل القطنية والصياغة والفخار...

أسوارٌ وأبوابٌ و آثارٌ شاهدةٌ على عبق التاريخ

بدأ بناءَ سور مدينة الرباط الخليفةُ أبو يعقوبَ يوسفُ، واستكمله الخليفةُ أبو يعقوبَ يوسفُ المنصورُ، ويمتد على مسافة 5263 متر، بقي منها 5189 متراً، وهو ذو سمك يصل إلى مترين ونصفٍ، وارتفاع عشرةِ أمتار، به خمسة أبواب، بها مجموعة من الأبراج المستطيلة الشكل تبلغ حوالي 74 برجًا، منها التي تعرضت للتخريب، واستُعمِلَ في بناء السور الطابيةُ التقليديةُ.

أما أبواب سور مدينة الرباط، فتمتاز طريقة بنائها باستعمال الحجارة المنجورة، وبانتظام شكلها، وبقلة زخرفتها، وباستعمال التخطيط ذي المنعطفات المرفقية، ولها خمسة أبواب لكل باب أكثر من اسم، وهي:

- **باب لعلو:** أقرب أبواب الرباط إلى المحيط، يعد من الأبواب الضخمة، صلب البناء وخالٍ من الزخرفة.
- **باب الحدّ:** أو الأحد، سمي الحدّ لكون السلاطين كانوا يعلقون على بابه رؤوس المتمردين، والبعض رأى أن الاسم محرف من كلمة الأحد.
- **باب الرواح:** اسمه مشتق من الريح أو من الأرواح نسبة إلى القتلى من المجرمين والمتمردين الذين كانت تعلق جثثهم على بابه، يعد من أكبر أبواب السور الموحديّ، وهو مُزخرفٌ زخرفةً تمتاز بالدقة والجمال.
- **الباب الداخل** في نطاق القصر الملكيّ.
- **باب زعير:** ينفتح في القطاع الجنوبيّ من سور يعقوبَ المنصورِ، وهو من أصغر أبواب رباط الفتح.

إلى جانب أسوار رباط الفتح وأبوابها وأبراجها، في المدينة مجموعة مهمة من المعالم الأثرية التي تستحق المشاهدة والزيارة والدراسة كذلك، أهمها:

- **شالّة:** تقع على بعد نحو كيلومترين جنوب شرق مركز العاصمة الرباط، بأطلالها الرومانية وآثارها الإسلامية ومناظرها الخلابة.

تذكر كتب التاريخ أن شالة كانت مدينة صغيرة تقع على نهر يحمل اسم «سلا كولونيا»، وهو الذي يسمى الآن نهرَ أبي رقراق. واختار الفينيقيون الموضع الذي تشغله شالة لأول نبع ماء قابلوه قرب المصب، فكانت المنطقة بمثابة المركز التجاريّ للفينيقيّين في المغرب الأقصى. وفي القرن الرابع قبل الميلاد أقام الرومان في موقع شالة اليوم.

> **اتسعت مدينة الرباط وتطورت في صيرورتها التاريخية، وأكسبها تنوع من استوطنوها لمسةً فريدةً قلما تجدها في مدينة مغربية أخرى**

بقي موقع شالة في الرباط مهجورًا من القرن الخامس حتى القرن العاشر الميلاديّ، لكنْ شهد ازدهارًا هامًّا في عهد السلطان عيسى بن إدريس الثاني، وأصبح في عهد«بني يفرن» رباطًا للمسلمين ضد القبائل البرغواطية.

حظيت شالة في العهد المرينيّ باهتمام كبير، فقد أصبحت مقبرة لدفن ملوك بني مرين وأعيانهم، إذ شيدوا مسجدًا ودارًا للوضوء وقبةً دفنت فيها زوجة أمّ العز، فضلًا عن الضريح الذي دفن فيه السلطان المرينيّ. وحظيَ الموقع باهتمام بالغ في عهدَي السلطانين المرينيَّينِ أبي الحسن و أبي عنان، فقد بنيت مدرسةٌ شمال المسجد والحمام والنزالة، وزُيِّنتِ الأضرحة المرينية بقباب مزخرفة تشهد على تطور الفن العِماريّ المرينيّ. يحيط بشالة سور خماسيُّ الأضلاع مدعم بعشرين برجًا مربعًا وثلاثِ بوابات، أكبرها وأجملها زخرفةً البابُ الرئيسُ للموقع، المقابلُ للسورِ الموحديّ لمدينة الرباط.

وتبقى شالة إلى اليوم شاهدة على تعاقب الحضارات على منطقة وادي أبي رقراق، الرومانيةِ والإسلاميةِ والمغربيةِ، وعلى أن المنطقة عرفت التعمير البشريّ منذ قرون غابرة.

- **قصبة الأوداية:** هي حصن استراتيجيٌّ للدفاع عن العدوتين وعن مصب أبي رقراق والمحيط، حملت اسم «قلعة تاركة» شيدها المرابطون، لمحاربة قبائل «برغواطة». وفي سنة 1150م، أمر السلطان عبدُ المؤمن بنُ عليّ (أولُ السلاطين الموحدين) ببناء قلعة على الضفة اليسرى لمصبّ وادي أبي رقراق، لشن حملات عسكرية ضد الإسبان، وأطلق عليها اسم «المهدية» تيمُّنًا بالمهديّ بنِ تومرتَ مؤسسِ الدول الموحدية، واتخذها عبد المؤمن دارًا ومعسكرًا، وبنى مسجدها وأذِنَ للناس بالسكن فيها وأجرى لها الماء من عين غبولة.

وسكنها أيضًا «الموريسكيّون» الذين جاؤوا من الأندلس في العهد السعديّ، فأعادوا إليها الحياة من خلال إدخال النمط الموريسكيّ على بعض المنشآت العمرانية بالقصبة، واتخذوها مقرًّا لدويلة أبي رقراق المعروفة. وفي العهد العلويّ، أصبح اسمُ القصبةِ «الأوداية»، وتعدّ الأسوار الرشيدية والقصر الأميريُّ وكذلك منشآتها العسكرية كبرج الصقالة أهمَّ ما يجسد الحقبةَ العلوية الأولى داخل القصبة.

- **حسان:** يُعَدُّ جامع حسانٍ ثاني مسجدٍ بناه الموحدون بعد مسجد القصبة، لم يكتمل بناؤه لوفاة يعقوبَ المنصورِ الموحديّ، وتُعَدُّ مئذنته من الروائع الثلاث (مع الكتبية بمراكش وخيرالدا بإشبيلية) التي تعبر عن الازدهار الحضاريّ العُمرانيّ الموحديّ.
- **ضريح محمد الخامس:** يُعدُّ معلمة تاريخية مهمة، انطلق بناؤه سنة 1962م، بمشاركة أكثر من أربعمائة حِرْفيٍّ وصانعٍ تقليديٍّ من كل مناطق المغرب، لإبراز رونق العمارة المغربية وجمالها وفنها المتناسق، ويمتاز بجمعه بين الوظائف الهندسية والدينية والتاريخية.
- **الجامع الكبير:** يقع قرب باب شالة بالسور الأندلسيّ، اختلفت الآراء حول تاريخ بنائه، فمَنْ نَسَبَهُ إلى أبي يوسفَ يعقوبَ المنصورِ الموحديّ، ومَنْ نسبَهُ إلى السلطانِ عبدِ الحقِّ المرينيّ، كبوجندار.

حاضر يوازي عراقة الماضي

مدينة الرباط مدينة التمازُجِ الحضاريّ بين حضاراتٍ ودولٍ مختلفةٍ تعاقبت عليها، وتركت آثارها بارزة في عمران المدينة من التراث الرومانيّ والإسلاميّ والموريسكيّ والكولونياليّ، ومعالم الرباط التاريخية التي ذكرنا شاهدة على ذلك وعلى صيرورة المدينة التاريخية.

يقابل هذا الماضيَ العريقَ حاضرُ المدينةِ المشرقُ، فهي العاصمة السياسية للمملكة وعاصمة الأنوار، ومدينة تدخل في إطار التراث العالميّ، مدينة عصرية تعرف تنمية كبيرة على المستويات كافة، على مستوى النقل وعلى مستوى البنى التحتية والاجتماعية والاقتصادية، لكي تكون جديرة بأن تكون أيقونة المغرب في عهد الملك محمد السادس.

قالوا عنها

إذا افتخرتْ مكناسُ بالماء والهوا ... وفاس بواديها وبالعِلْم والمجْدِ

ومُرّاكشٌ بالجدِّ والجود والجدى ... فإنَّ رباطَ الفتح واسطةُ العِقْدِ.

وقال عنها الشيخ المدنيُّ بنُ الحسنيّ:

وأما رباط الفتح مسقطُ رأسِنا ... فثديُ العلوم في رباه تسلسلا

بناه الأب المنصور يعقوب فازدهى ... وزاد بهاء في عيون ذوي العلا.

يقابل هذا الماضيَ العريقَ حاضرُ المدينةِ المشرقُ، فهي العاصمة السياسية للمملكة وعاصمة الأنوار، ومدينة تدخل في إطار التراث العالمي

المراجع المعتمدة

بوجندار محمد، مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، 2005.

الفاسيّ عبد الإله، مدينة الرباط وأعيانها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين 1912-1830، منشورات جمعية رباط الفتح، مطابع الأطلس، الرباط،1996.

السيد عبد العزيز سالم سحر، مدينة الرباط في التاريخ الإسلاميّ (منذ إنشائها حتى عهد بني مرين)، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1996.

السويسيّ عبد الله، تاريخ رباط الفتح، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، الرباط، 1979.

ملف خاص

الرباط الشاعرة

د. السعيد بنفرحي

المغرب

يقول الأديب محمد بوعشرين عن العُدوتين :

سلا والرباط محط الأدب وسوق عكاظ سراة العرب
أزورهما شاعـــــرا ننائرا وذاك شعار حليف الأدب[1]

يـبين البيتـان مـا كان للعُـدوتين معـا مـن دور فـي الحركـة الثقافيـة والعلميـة، فلقـد «كانـت المدينتـان منتـدى العلمـاء والأدبـاء مـن العـدوتين»[2] ومـن باقـي أصقـاع المغـرب بـل الـبلاد العربيـة. فلقـد شد الأدباء الرحلـة إلى المجالس الأدبيـة بسلا؛ وخاصـة نـادي الأديب الطيـب عـواد، ومجلـس الباشـا محمـد الصبيحـي، ومجلـس جعفـر وامحمـد النـاصريين... كمـا شـدوا الرحـال إلـى نـوادي الربـاط الأدبيـة؛ كنـادي محمـد بوجنـدار، والنـادي الجـراري، ونـادي محمـد بـن المدني الحسـني، ونـادي محمـد بـن علـي دينيـة، ونـادي علـي الصقلـي،... وسنقصر الحديث هنا عما كان يروج من شعر في النادي الجنداري والنـادي الجـراري، لنـبين بشـكل جلـي دور الربـاط فـي تنشـيط الحركـة الشـعرية رباطيـا، بـل مغربيـا، مرجـئين الحديـث عـن سلا الشـاعرة إلـى مناسـبة أخـرى..وإن كان التواصـل بين العُـدوتين لـم ينقطـع عبر التاريـخ. وهذا مـا نجـد بوجنـدار يعبر عنـه فـي تشـطيره لبيتي القاضي أبـي العبـاس الأزمـوري:

رباط الفتح إنك ذو جـــمال عريق في التمدن والحضـــاره
مبانيك التي طالت وصارت تطل على سلا ذات النضـــاره
وشكل سلا بجنبك مستـــدير حكى عن معصم الحسنا سواره
فقل ياحسن شكل مستدير ولا تقلـــق فـــإن بـــك الإداره[3]

وقولـه «فـإن بـك الإدارة» إشـارة إلـى تحـول الربـاط إلـى عاصمـة منـذ 1912م بعـد أن كانـت العاصمـة هـي فـاس. وهـذا التحـول سـيجعلها مدينـة مزدهـرة فـي الـفترة الحديثـة والمعـاصرة لأنـه ستؤسـس بهـا معاهـد وجامعـات ونـوادي أدبيـة. كمـا سـتحظى بالعديـد مـن الكتابـات المتنوعـة جعرافيـة وتاريخيـة وأدبيـة دبجهـا أبناؤهـا وغيرهـم ممـن أقامـوا بهـا بحكـم العمـل أو الدارسـة والاسـتفادة مـن أعلامهـا. فهـي كمـا يقـول المـؤرخ محمـد بـن علـي الدكالـي أكثر البلاد أعلامـا، جمعـت «بين أسـباب الديـن والدنيـا، والتدريـس والفتيـا، والوعـظ والخطابـة، والتأليـف والكتابـة، والغنـاء والألحـان»[4]. وهـذا مـا عبر عنـه ابنهـا البـار محمـد الجزولـي شـعرا فقـال :

رباط الفتـح مـأوى الفاتحينا بكعبته يطوف الناس حينـــا
هو البلد الأمين ومن بنـــاه عظيم من ملوك المسلمينـا
إذا ذكرت بلاد العرب أضحى الر باط كدار ذكر الذاكرينـــــــا

وعـن أعلامهـا يقـول مفتخـرا :

فديتك هل يقاس بنا سوانـــا ونحن من التجلة حيث شينـا
فشمس الملك تطلع من ذرانا نضيء بها الغياهب والدجونا
ونـور العلـم نشره لدينـــــا إمام ذوي المعـارف أجمعينا[5]

وقـد يبـدو للبعـض أن الرجـل مفتـون بمسـقط قلبـه، لهـذا قـال مـا قـال، ولكـن هـذه الحقيقـة، التـي يـعترف بهـا حتـى مـن لـم يكـن مـن أبنائهـا. فهـذا مـؤرخ سلا محمـد بـن علـى الدكالـي فـي رسـالة إلى الشـيخ محمـد المكـي البطـاوري الربـاطي يصـف الربـاط وأعلامهـا قـائلا

أرى أرض الرباط ريـــاض أنس ومأوى الفضل من عهد قديم
وقد أحيا العلوم به ليـــوث ذوو مجـد بنو فخر صميـــم
ففيه للدروس من أجل مغنى وللتصنيف كم نـــاد عميـــم[6]

ولقـد أبـدع وأمتـع وأفـاد جعفـر النـاصري فـي ذكـر محاسـن النـوادي الأدبيـة الرباطيـة وذلـك فـي قولـه : «فيـا لهـا مـن منتديـات ومجالـس، يسـتحليها ويسـتطيبها الجالـس، وينقـاد إليهـا النفـور الناعـس، وينبسـط فيهـا المحـزون العابـس، ويغشـاها اليائـس والبائـس، فتذهـب أتراحـه ويعـود إليـه انشراحـه، تذكرنـا أيـام أدبـاء الفـردوس المفقـود.»[7].

تراجم شعراء الرباط

مـن المؤلفـات التـي ترجـم أصحابهـا لشـعراء الربـاط كتـاب دولـة الشـعر والشـعراء علـى ضفتـي أبـي رقـراق[8] للمرحـوم عبـد الله شـقرون. ترجـم فيـه ل24 شـاعرا مـع ذكـر مختـارات مـن شـعرهم. مـن هـؤلاء محمـد بـن أحمـد سـباطة، ومحمـد بـن أحمـد الرغـاي، الـذي يقـول عنـه إنـه «كان لغويـا مرموقـا، ومشـاركا فـي علـوم الديـن وفـي التنجيـم والتوقيـت ومـا إليهمـا مـن الرياضيـات،وكان يقـول شـعرا، واشـتهر علـى الخصـوص بالتخميـس، وكان شـعره جيـدا وذا متانـة وقـوة لغوية.»[9].والناصريان محمـد اليمني ومحمـد المكي، وأحمـد بـن محمـد الزعيمـي، وأحمـد بـن محمـد جسـوس، وعبـد الرحمـان الدكالـي، ومحمـد المكـي البطـاوري الـذي يقـول عنـه «كان عالمـا محدثـا وأديبـا شـاعرا»[10]، والتهامـي بـن المعطـي الغربـي الـذي يعتبره «طـودا شـامخا فـي العلـم والأدب، وفـي الشـعر الرقيـق والعاطفـة الجياشـة، والصنعـة المتفننـة فـي قـرض الشـعر وصياغتـه»[11].ويقـول مستشـهدا ببيتـين لـه «ولكـم طـرب الأدبـاء فـي مدينـة الربـاط لهذيـن البيتـين مـن شـعر التهامـي الغربـي :

إن شئت تقتلني فأنت مخيـــر من ذا يعارض سيدا في عبـــده
كل السيوف قواطع إن جردت وحسام لحظك قاطع في غمده[12]

ومحمـد بوجنـدار، وأحمـد الزبـدي الـذي حلاه بـــ»شـاعر الربـاط الفـذّ»[13]، ومحمـد الجزولـي الـذي يقـول إنـه «مـن فطاحلـة الربـاط»[14]، وأبـو بكـر بنانـي الـذي قـال إنـه «كان معـدودا مـن كبـار شـعراء عصـره»[15]، وعبـد الله الجـراري وعبـد الفتـاح القبـاج الـذي «صـاغ قصائـد وقطعـا فـي الغزليـات والوجدانيـات وكـذا الوطنيـات والصوفيـات والمناجيـات»[16].

1 جعفر الناصري، سلا ورباط الفتح، أسطولهما وقراصنتهما الجهادية،ج1، تحقيق أحمد بن جعفر الناصري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2006. ص 357.
2 نجاة المريني، أعلام مدينة الرباط في الذاكرة السلوية، ضمن قضايا أدبية ولغوية، سليكي أخوين- طنجة 2017. ص29.
3 نفسه، ص 29..
4 نفسه، ص 31.
5 نفسه، ص27.
6 نفسه، ص33.
7 نفسه، ص37-38.
8 مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء2004.
9 نفسه، ص23.
10 نفسه، ص35.
11 نفسه، ص36.
12 نفسه، ص37.
13 نفسه، ص39.
14 نفسه، ص41.
15 نفسه، ص55.
16 نفسه، ص62.

والحاج عثمان جوريو وعبد اللطيف خالص «الشاعر بحق وصدق، والمسلم المتبتل والصوفي الأصيل.»[17]. ومحمد بن الحسين الذي له «ربما المئات من القصائد الشعرية سواء منها الغنائية وغير الغنائية.»[18].ومحمد بن عبد الله الذي يقول عنه إنه «شاعر عاطفي أصيل»[19]. ومحمد بن أحمد حكم وعباس الجراري الذي تساءل قبل أن يورد له قصيدة «هل مات حبي؟» هل يقبل أن يصنف شاعرا مجددا أم لا وهو نفسه السؤال الذي دار بخلدنا لما أصدرنا سنة 1999 كتابنا «بيبليوغرافيا النص الشعري بالمجلات المغربية 1957- 1998»[20] غير أن الأستاذ ثبت أنه شاعر ففي سنة 2017 أصدر محمد احميدة «من ديوان عباس الجراري»[21] في جزأين. وبصدوره كشف عميد الأدب المغربي عن جانب من اهتماماته الأدبية كان مغيبا أو لنقل، إن مجال تداوله كان محصورا في دائرة ضيقة، بل لم يكن لهذه الدائرة أن تتعرف إلا على نزر يسير من هذه الكتابة الشعرية العباسية.»[22].على حد قول احميدة الذي يضيف شارحا افتتاح العنوان ب»من» الدالة على التبعيض «لم يجنح الأستاذ إلى نشر كل ما جادت به قريحته في هذا الباب، بل ارتأى تقديم منتخبات من دواوينه «أشواق»، «مع حبي ورضاي»، «إخوانيات ومساجلات»[23]. ولقد كان الجراري ينشد بعض أشعاره في العديد من المناسبات، منها بعض مجالسه الأدبية الجُمَعية وغيرها.

وممن كتب عن شعراء الرباط قبل شقرون، المرحوم عبد الله الجراري الذي نشر بجريدة الأنباء سنوات 1967- 1968- 1969 سلسلة مقالات عن النادي الجنداري يتحدث فيها عن الشعراء محمد الجزولي، محمد البيضاوي الشنقيطي، عبد الله القباج، أحمد بن المامون البلغيثي، محمد بوجندار والأخوين الناصريين جعفر ومحمد، سالكا الخطوات التالية :

- شيوخ الشاعر ودراسته
- الوظائف التي زاولها
- مؤلفاته
- نماذج من شعره
- ملاحظات نقدية

وكان هدفه هو لفت انتباه الباحثين إلى دراسة هؤلاء الأعلام وفي مقدمتهم صاحب النادي لهذا وجدناه يقول : «وبودنا لو تُستقصى آثاره وأشعاره، وبحوثه المنثرة هنا وهناك، وبخاصة شعره، ويدون في ديوان يُعرب مرة أخرى عن عبقرية الرجل النادرة ومقامه الفني في المعرفة.»[24].

عبد الله الجراري

عبد اللطيف خالص

عبد الرحمان عبد الوافي

أحمد بن المامون البلغيثي

والتقط محمد احميدة هذه الإشارة فخص الرجل بدراسة عنونها بـ: «من الأدب المغربي في عهد الحماية محمد بوجندار الشاعر والكاتب»[25]. أحرز بها دبلوم الدراسات العليا وكان ذلك في سنة 1986. وفي هذه السنة وبمناسبة مرور مائة سنة على وفاة الشاعر والمؤرخ الرباطي بوجندار(1926-2026)، أصدر احميدة ما تجمع لديه من أشعار الرجل، وذلك ضمن منشورات مؤسسة عبد الله بن العباس الجراري للفكر والثقافة، الإصدار رقم 1. وكان ذلك في الذكرى الثانية لرحيل عميد الأدب المغربي رحمه الله. واحميدة لم يجمع كل أشعار الشاعر، وإنما بعد البحث والتنقيب لسنوات وبالضبط منذ أواخر السبعين تجمع لديه كما يقول في كلمة التقديم «كم غير قليل من شعر هذا الأديب»[26] رغم أن هناك إشارات صادفها الباحث في مظان تؤكد أن الشاعر جمع ديوانه ووسمه بـ»رقاق الأبكار من عرائس الأفكار»، غير أنه مفقود[27]. وهذا المجموع هو جزء من صورة ما أنتجه شعراء الرباط بل المغرب زمن الحماية. ولا شك أن تحلية هذا الأديب بـ»أمير أهل الحبر» استمدها شيخه أحمد بن المامون البلغيتي من

17 نفسه، ص66.

18 نفسه، ص79.

19 نفسه، ص80.

20 مطبعة فضالة -المحمدية 1999.

21 من ديوان عباس الجراري، ج1.2g إعداد ونقديم، منشورات النادي الجراري73. و77، أبي رقراق-الرباط2017.

22 عباس الجراري شاعرا، إعداد وتنسيق وتقديم، منشورات النادي الجراري 79. أبي رقراق-الرباط2018. ص7.

23 نفسه، ص7.

24 محمد احميدة، النادي الجنداري، ضمن ظاهرة الأندية الأدبية في المغرب، منشورات النادي الجراري14، د.م. 1998. ص189

25 1993.

26 , من ديوان الشعر المغربي زمن الحماية، شعر «أمير أهل الحبر» محمد بوجندار،جمع وإعداد وتقديم، نشر مؤسسة عبد الله بن العباس الجراري1، مطبعة البصيرة-الرباط2025. ص15.

27 نفسه، ص16.

التحليات والصفات العديدة التي وسمه بها معاصروه كـ»أديب العدوتين»، و»رب اليراع»، و»طود العلم». وهذا اعتراف من الشيخ لتلميذه بالنبوغ والتميز. يقول :

أأمير أهـــــــل الحبر والأقلام وسمير كل محقق علام

وافى محبر شعرك الأحلى الذي فيه يزيد تولهي وهيامي[28]

هكذا وباعتراف قاض أديب وشاعر كبير تتبدى الرباط شاعرة في الربع الأول من القرن العشرين بل إنها تأخذ مكانة مميزة في هذا المجال. وبإطلالة على المجموع الشعري الجنداري يتضح أن نصفه جاء عبارة عن مساجلات وإخوانيات والباقي يتوزع بتفاوت كبير، بين غرض المدح والتقاريض، والتهاني والرثاء ومختلفات. والمساجلات التي دارت بين بوجندار وأغلب شعراء ورواد النادي الجنداري[29]. ويرى محمد احميدة أن معظم رواد النادي كانوا ممن تستهويهم صناعة الشعر وأن المساجلات كانت نافقة السوق مع نسج ألوان من الألغاز الشعرية أو ركوب التشطير والتخميس، وهي ألوان كانت شائعة فترتئذ[30].

النوادي الأدبية بالرباط والشعر

لقد نشطت الحركة الشعرية بالرباط بفضل الأندية الأدبية التي كانت متوافرة. نقصر الحديث هنا عن ناديين أسهما في انتعاش الحركة الشعرية الرباطية، وإشعاع الرباط وتأكيد حضورها كمدينة للشعر والشعراء، وفضاء للاحتفاء بالنظيم وأهله.

نادي أديب العُدوتين وشاعر الحضرتين محمد بوجندار كان يؤمه العديد من الفقهاء والعلماء الذين ساهموا بقسط وافر في إغناء الحركة الثقافية المغربية فترتئذ فذاع صيته داخل الرباط وخارجه. من رواده الأديب محمد الجزولي والشاعر المطبوع عبد الله القباج الذي يقول عن ظرف تكوين النادي مشيرا الى بعض ما كان يُلقى فيه من أشعار «إن صديقي أبا جندار، نور الله ضريحه، لما أقعده المرض بداره، صرنا نجتمع حوله ولازمناه وفيها ساجلنا وساجلناه»[31]. وممن ساجلهم وساجلوه نذكر من الرباط

28 نفسه، ص20.

29 تصفح الديوان يبين ذلك. وكذلك مقالة عبد الجواد السقاط، بالملحق الثقافي للعلم الخميس 5-3-2026.

30 النادي الجنداري، ص179.

31 نفسه، ص173.

أسهم نادي محمد بوجندار والنادي الجراري في انتعاش الحركة الشعرية الرباطية، وإشعاع الرباط وتأكيد حضورها الشعري

الشعراء: عبد الله القباج، محمد البيضاوي الشنقيطي، محمد عمر دينية، جعفر الناصري، محمد اليمني الناصري، أحمد الموازي، محمد المكي البطاوري، مولاي أحمد بن المامون البلغيتي، ومحمد بن عبد الله ملين ومن سلا عبد اللطيف عواد ومن لبنان الشاعر رشيد مصوبع[32].

كما أنه قرَّض مجموعة من كتب أعلام الرباط كـ»الكتابة والكتاب» لعبد الحميد الرندة، و»نشر الأعلام بإتمام المرام في ذكر مراحلنا إلى مصر والحجاز والشام» لمحمد بن علي دينية، وثلاثة كتب لفتح الله بناني هي «رفد القاري بمقدمة صحيح البخاري»، و»تسلية الإمتاع ببعض ما يتعلق بحكم مسألة الطرب والسماع»، و»تحفة أهل المقام الأسنى»، علاوة على تقريضه لبعض نثيره ككتاب «الاغتباط بتراجم أعلام الرباط»، و»نسخه كتاب الشرح الصغير على لامية العجم» لمحمد المكي البطاوري، وختمه لكتاب «فتح المعجم من لامية العجم»[33].

وتجدر الإشارة إلى أن النادي الجنداري كَرَّم الشاعر المطبوع عبد الله القباج في حفل حضره الشعراء والنقاد من مختلف مناطق المغرب وذلك سنة 1923. وبهذه المناسبة ألقى تلامذة بوجندار الشعراء محمد المكي الناصري، ومحمد المصطفى بركاش، ومحمد الزبدي، ومحمد غنام، مساجلة بلغ عدد أبياتها 24 بيتا أمام الحضور. ودلالة هذا واضحة هي تكوين خلف يقرض الشعر، وتشجيع الشباب الهاوي على اقتحام المجال والدلو بدلوه. وهذا كان من حسنات النادي الجنداري.

إن كل هذا يدل على أن الشعر بالرباط بسط حضوره على مساحةغير صغيرة من الحركة الأدبية انطلاقا من النادي الجنداري فترتئذ. فماذا عن الفترة اللاحقة ؟

في الفترة الموالية نجد النادي الجراري الذي عرف مرحلتين أساسيتين : مرحلة التأسيس مع عبد الله الجراري (1930- 1983)، ومرحلة الامتداد والتطوير مع عباس الجراري (1983-2017). وإذا كان المؤسس أرخ لجانب مهم من الحياة الثقافية والفكرية بالرباط، من خلال تدويناته لما كان يدور بمجلسه الأدبي، في كتابه «المجالس الأدبية»[34] فإن النادي في المرحلة الثانية، فيض الله له باحثا أكاديميا، كتب ثلاثة كتب قيمة عن هذا النادي هي «من تاريخ

32 أنظر الديوان الصفحات 42-55-68-76-78-48-96-161-127-114-107.

33 أنظر الصفحات 53-95-111-136-147-124-33-228

34 أنظر النادي الجراري من خلال المجالس الأدبية،ضمن ظاهرة الأندية الأدبية في المغرب، ص80-91.

الأندية الأدبية بالمغرب النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري»[35] ثم «حركية النادي الجراري خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين»[36] ثم كتاب «شعراء النادي الجراري : الشاعر والنص»[37]. ولقد عرف النادي في هذه الفترة انفتاحا على الجامعين علاوة على احتفاظه بجيل السلفيين المتنورين الذين عاصروا المؤسس وارتادوا ناديه ولقد ترجم احميدة ل28 شاعرا ينتمون إلى ثلاثة أجيال مختلفة؛ فمنهم من هو من جيل عبد الله كالحسين البونعماني، وإبراهيم الإلغي، وعثمان جوريو، ومحمد بن الراضي، ومحمد مكوار، وأحمد الزبدي، والمختار السوسي، وأحمد سكيرج الذي «كانت له مع عبد الله مساجلات شعرية وتقاريض لبعض تآليفه»[38].ومنهم من هم من جيل عباس وإن تتلمذوا عليه كعلال الغازي صاحب أشعار عديدة لم تنشر بعد. وعبد الرحمان عبد الوافي صاحب المطولات والدواوين المتعددة، ومحمد بن الصغير صاحب الموشحات والأشعار الكثيرة غير أنها لم تعرف النور مجموعة بعد[39]. وعبد العالي الودغيري صاحب الموت في قرية رمادية ولحظة أخرى، وجيل طلبة الأستاذ مصطفى الشليح الذي له عدة دواوين ومساجلات مع العميد[40].

وبالرغم من أن الاهتمام بالشعر والشعراء كان حاضرا في مرحلة التأسيس فإن المؤسس كان مجرد عالم له مشاركة في مجال القريض؛ أغلبها مساجلات إخوانية دارت بينه وبين معاصريه كالأديب أبي بكر بن أحمد بناني الرباطي، والأديب أحمد الزبدي، والعلامة عبد الرحمان الشفشاوني، والشاعر الحسن البونعماني، والشاعر والناثر محمد بن المهدي العلوي[41]. يقول مخاطبا هذا الأخير :

يا ابن الأكارم يا سليل أعزة — يا من سما أدبا وعز بشعره
فأخوك عبد الله خدن تعلم — في نظمه وترسلات نثاره
أنى له النفث الحلال بشعره — فيحط من غرر البيان بنثره[42]

وبهذا يعلن مشاركته وعدم نديته لأقرانه، ومنهم العلوي.

35 مطبعة الأمنية الرباط2004.
36 منشورات النادي الجراري، مطبعة الأمنية-الرباط2008.
37 منشورات النادي الجراري، أبي رقراق-الرباط2015.
38 النادي الجراري بالرباط، ص472.
39 نفسه، ص518.
40 أنظر بعضها في العلامة عباس الجراري على السنة الشعراء، ج1 جمع ودراسة السعيد بنفرحي، بني يزناسن-سلا2015. ص
41 العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري، عباس الجراري،سلسلة شخصيات مغربية7، دار الثقافة الدار البيضاء1985. ص125.
42 شعراء النادي الجراري، ص107.

وعلى عكسه كان وريث سره شاعرا «وما إحجامه على أن يقدم نفسه في الساحة الأدبية شاعرا ما هو إلا تواضع عالم، قدم أبحاثا ودراسات علمية رصينة في مجالات معرفية متعددة، كانت الدراسات الأدبية جزءا منها.»[43] لهذا تأخر إصدار أشعاره إلى احتفاء النادي بمرور 90 سنة على وجوده، عندها أصدر الأستاذ احميدة مختارات في جزأين سبق أن ذكر منها 16 نصا في «شعراء النادي»[44]، في أغراض متنوعة وأنماط شعرية مختلفة :العمودي، التفعيلي. أما بالنسبة لباقي شعراء النادي فنجد لدى بعضهم قصيدة النثر، لهذا لم تكن تخلو جلسة من قراءة شعرية سواء من أعضاء النادي أو من ضيوفه؛ مغاربة وغير مغاربة مثل أعضاء النادي الأدبي بتارودانت : مولاي الحسن الحسيني، ومن ليبيا عبد الحميد الهرامة، وعبد المولى البغدادي، ورضا مسعود جبران. ومن موريتانيا أحمد ولد عبد القادر، ولمرابط بن محمد سالم، وأدي ولد آدب. ومن البحرين تقي الحاج محمد البحرانه. ومن سوريا محمد فؤاد البرازي. ومن فلسطين علي الحسن.

ومن النساء نذكر من المغرب الشواعر: سميرة فراجي، وحبيبة البورقادي، ووداد بنموسى، ومن لبنان الشاعرة وفاء أحمد عبد الله[45].

> **عرف الشعر بنوادي الرباط حضورا قويا، وبسط نفوذه على مساحة معتبرة، من الحركة الأدبية في الرباط خاصة، والمغرب عامة**

ومن أوجه حضور الشعر في النادي كما حضرتها وسجلها مؤرخ النادي احميدة، المساجلات الشعرية التي كانت تدور بين رواد النادي أو بينهم وبين ضيوفه بين الحين والآخر، وهي عديدة شارك فيها العميد غير ما مرة. ولم تقتصر الجلسات على إلقاء الشعر والمساجلات وإنما ألقيت عروض عن قضايا الشعر العربي وظواهره بالمغرب وخارجه، وعن دواوين بعينها، وعن شاعر معين. كان يساهم فيها نقاد وباحثون من الرباط ومن غيرها. وأمثلة ذلك كثيرة نذكر منها الانتصار إلى الشعر العمودي أم التفعيلي. مآل الشعر العربي. مناقشة تحقيق ديوان شاعر الحمراء وقد قدم كل من محمد البوري وعبد السلام الطاهري عرضا عن تحقيقه[46] في جلسة 30 يناير 2003. وفي السنة نفسها في جلسة 6 يونيو قدم إبراهيم المزدالي عرضا على بعض أشعار عبد العزيز محيي الدين بلخوجة قصيدة «أسفار الرؤيا» نموذجا وفي 20 من الشهر نفسه قدم عرضان حول دراسة المزدالي الأول لقاسم الحسيني[47] والثاني لمحمد احميدة.

43 نفسه
44 نفسه، ص118-145.
45 حركية النادي الجراري، خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ص51-57.
46 انظره في حركية النادي، ص156-165.
47 أنظرها في حركية النادي، ص166-175.

والظاهر أن كل المشاركات تعكس تباين مشارب اتجاه كل واحد، وبذلك كان النادي صورة مصغرة لما تحبل به الساحة الشعرية المغربية والعربيةمن رؤى متغايرة تعكس تعدد الأصوات الشعرية. ونكتفي هنا بتقديم مثالين الأول مقطع من قصيدة وفاء أحمد عبد الله حول «بيروت»، تقول فيه :

بيروت كفكفي دمعك
بيروت ضمدي جراحك
وانهضي من تحت الركام
يا بيروت الحب[48]

وقصيدة «السراب» لحبيبة البورقادي التي تتحدث عن :«البوليساريو» التي تقول فيها :

يا أخ الزيـــــغ تستحق عذابـا — يـــوم فكـرت حـائـــراكذابـــــا
غالك الزيف مع بريق الكراسي — وعلى العقل قد ضربت الحجابـــا
أتظن الأوطـــان تشرى بمـــال — فتـــدوس الأقـــوام والأنسابـا
يا أخ الزيف ويح حـال كسيـــح — قد أضاع الحياة منها الشبـابـــا
ناسيـــاأننـابنـاة كـــــــرام — ننصر الحق ناشرين الصوابـــــا[49]

وكما عقد النادي الجنداري حفل احتفاء وتكريم للشاعر المطبوع عبد الله القباج، عقد النادي الجراري جلسة تكريمية لشاعر المغرب الكبير علي الصقلي، يوم الجمعة 17 ماي 2013. وخلال هذه الجلسة أعلن المرحوم عباس الجراري علي الصقلي «أميرا للشعراء» وأنشد قصيدة حملت عنوان «أمير الشعراء» مما قال فيها :

هي بيعة قد كنتُ قبلُ كتبتُها — ودعوتُ في درسي لها وأبـرِّر
واليومَ فالنادي الجراري بحفله — والسعدُ يغمُره يُنـادي يُظهر
أن الصقـــلي شاعر فـرد لـــــه — قِدح مُعلى بالبدائـع يَسْحَر
في المغرب الأقصى ويَعْرُبَ كلِّهم — في سائر الأوطان رسمك يُنشر
فاهنأ-أخي-بالتاج رصع لؤلـــــؤا — ولأنت بالإجماع أنت الأشعـــر[50]

ولقد أُلقيت بهذه المناسبة عدة قصائد لكل من المختار ولد اباه، ومحمد نجيد، وعبد الرحمان عبد الوافي، كلها تمجد علي الصقلي وتهنئه بالفوز المستحق بالإمارة الشعرية. كما احتفى النادي بشراكة مع المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية-فاس بالمحامية الشاعرة سميرة فرجي في حفل بهيج حضره عدد من الشخصيات السياسية والجامعية والمثقفة الوازنة من المغرب والعالم العربي أقيم بفندق هلتون بالرباط.

وتجدر الإشارة إلى أن جلسات النادي عرفت حضور الزجل والملحون فلقد ألقيت قصائد وأنشدت أخرى. والشعر الحساني ففي جلستين سنة 2012؛ الأولى كانت في 30 مارس، والثانية في 15 دجنبر، ألقى الشاعر حماد اليعكوبي نصين حول المسيرة الخضراء. وبالنسبة للشعر الأمازيغي والشعر الفرنسي كان لهما حضور باهت نمثل له بالقصيدة التي ترجمها عن ڤولتر الشاعر على الصقلي الذي يكتب الشعر بلغة موليير، ونمثل للأول بما كان يتحدث عنه محمد المستاوي وعمر أمرير.

يتضح مما سلف، أن الشعر بنوادي الرباط عرف حضورا قويا، وبسط نفوذه على مساحة معتبرة، من الحركة الأدبية في الرباط خاصة، والمغرب عامة. وكانت الرباط طيلة القرن العشرين والربع الأول من هذا القرن: «سوق عكاظ وسراة العرب» على حد تعبير بوعشرين. وكان الجزولي صادقا في فخره حين قال : «ونحن في التجلة حيث شينا».

48 نفسه، ص120.
49 نفسه، 134.
50 شعراء النادي، ص49 و51.

من إصدارات الإيسيسكو

الرباط عاصمة الكتاب العالمية 2026

ملف خاص

حضور الكتاب المغربي في إفريقيا

من المسالك الصحراوية.. إلى المنصات الثقافية الحديثة

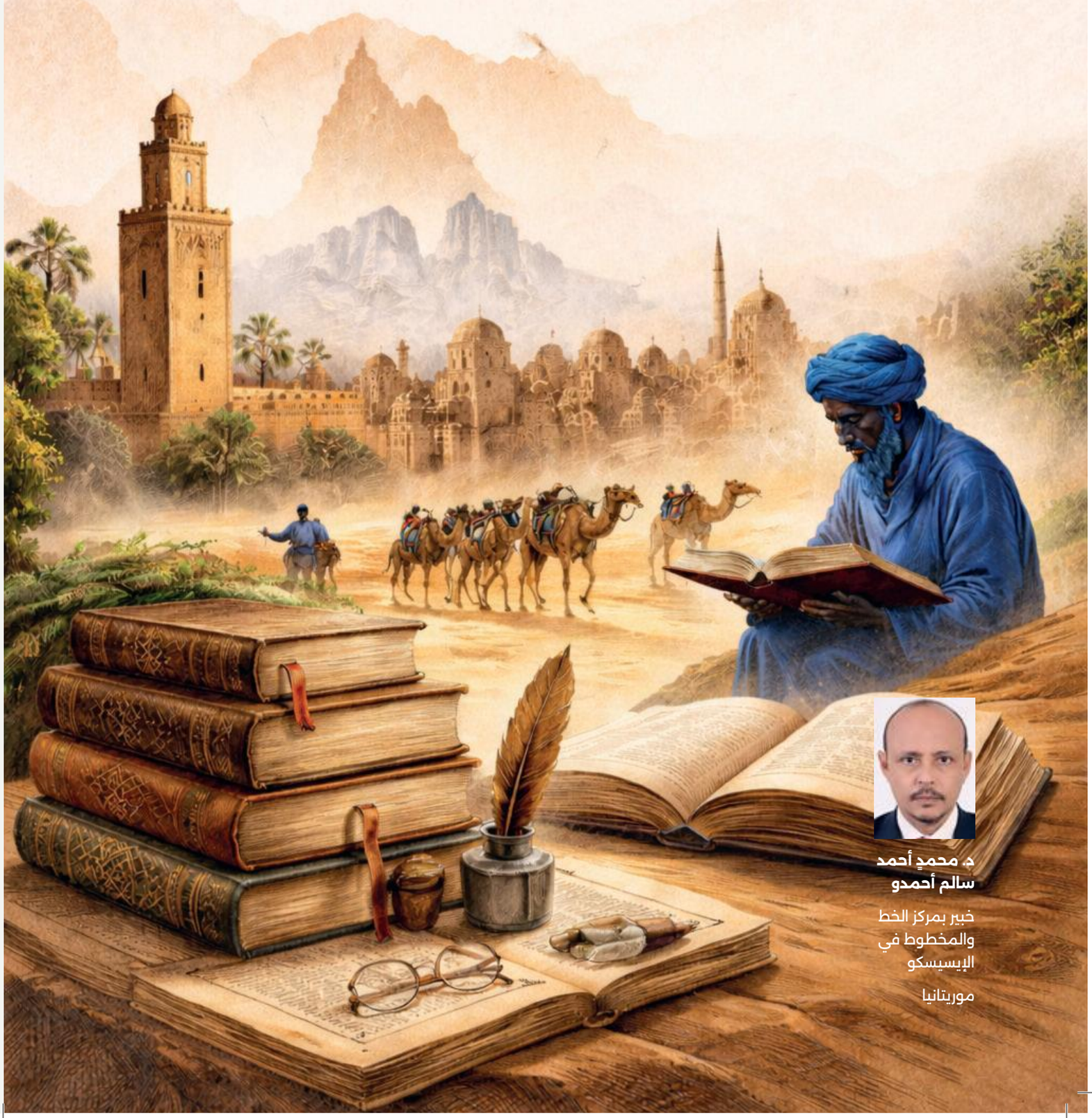

د. محمدٍ أحمد سالم أحمدو

خبير بمركز الخط والمخطوط في الإيسيسكو

موريتانيا

ربطت المغرب بإفريقيا منذ القدم صلات متعددة الأوجه شملت الجوانب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية والروحية، وقد تعززت هذه الصلات وتوطدت مع الزمن، ومثّل المغرب لإفريقيا الغربية المصدر الأساسي لأغلب أسباب الحضارة، ومركزَ جذب علمي وروحي. ويعد الكتاب أحد أهم الجوانب التي تجسدت فيها هذه العلاقة الوطيدة الممتدة، بل قلبها النابض بوصفه أداة مركزية في انتقال المعرفة، وتثبيت المرجعيات العلمية، وبناء الصلات الروحية والثقافية بين ضفتي الصحراء.

اتخذ حضور الكتاب المغربي في إفريقيا مسارًا تاريخيًا متدرجًا بدأ بالمخطوط، ثم اتسع مع الطباعة الحجرية، ليترسخ في صورة الكتاب المدرسي المغربي الموجه للمدارس الإفريقية، والكتاب الإفريقي المطبوع بالمغرب، وانتهى في الزمن الراهن إلى مبادرات التعاون الثقافي المؤسسي. وتميز المغرب في كل مراحل هذه المسيرة بأنه كان فضاءً لإنتاج الكتاب تأليفا ونسخا، ونشرًا، ثم ناقلا وموزعا، وأكثر من ذلك المرجعية التي يحملها وينبني عليها الكتاب نفسه.

> **لم تكن الصحراء الكبرى جدارًا يعزل المغرب عن عمقه الإفريقي، بل كانت مجالًا حيًّا ومعبرًا ثقافيًا نشطًا**

وخلال العقود الماضية برزت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) كأهم شريك مؤسسي للمغرب يؤدي دورا محوريا في تأطير التعاون المغربي الإفريقي في مجال الكتاب ضمن رؤية أوسع للعالم الإسلامي، ناقلة حضور الكتاب المغربي من مستوى الرمز الثقافي إلى مستوى البرامج والمشاريع والشراكات.

وبمناسبة اختيار الرباط عاصمة عالمية للكتاب 2026، فسوف نتناول في هذا المقال بعض معالم الحضور الاستثنائي للمغرب في إفريقيا من خلال الكتاب والصلات القوية التي انتسجت عبره بين القارّة والرّباط، وأهم ملامح جهود المغرب التاريخية والمعاصرة في نشر الكتاب في إفريقيا جنوب الصحراء، وشراكته المثمرة مع الإيسيسكو في هذا المجال.

الكتاب المغربي المخطوط في إفريقيا.. تاريخ عريق، ومكانة رمزية

تُجمع الدراسات التاريخية على أن المغرب شكّل، منذ العصور الوسطى، قاعدة رئيسة لانتقال الإسلام والثقافة العربية الإسلامية إلى إفريقيا جنوب الصحراء فمع الفتوحات الأولى وانتظام طرق التجارة الصحراوية، تحوّل العلماء والتجار والصوفية المغاربة إلى ناشرين للمعرفة والدين، ولم تكن الصحراء الكبرى جدارًا يعزل المغرب عن عمقه الإفريقي، كما ذهبت إليه بعض التصورات الجغرافية الجامدة، بل كانت مجالًا حيًّا ومعبرًا ثقافيًا نشطًا، انتقل عبره البشر والقوافل التجارية، وتدفقت من خلاله الكتب والمتون، وطرائق التدريس، وأسانيد المعرفة، ونشأت في هذا الفضاء الصحراوي الساحلي عبر الزمن مدن وحواضر مثل: ولاتة، وتيشيت، ووادان، وتمبكتو، وجنّي، وشنقيط، وأغاديس، وكنو، وغيرها، كانت مراكز علمية كما كانت أسواقا تجارية، وتشكلت فيها مدارس تقليدية وخزائن أهلية استقبلت الكتاب المغربي في صوره المختلفة.

دخل الكتاب المغربي إلى إفريقيا جنوب الصحراء منذ القرن الخامس الهجري عبر طرق متعددة، من أقدمها ما جلبه العلماء المغاربة الذين وفدوا إلى المنطقة منذ أيام دولة المرابطين ومملكة مالي، وكانوا يحملون معهم كتب الفقه المالكي وعلوم الحديث والعقيدة واللغة والتصوف، فينسخونها في تلك المراكز، أو يُمْلونها على طلابهم، فتدخل في نسيج التعليم وتصبح جزءًا من المكتبات المحلية. تلا ذلك مصدرٌ آخر هو الطلبة الذين كانوا يرحلون لطلب العلم إلى مدن مغربية مثل فاس ومراكش، اللتان استقبلتا على مرّ العصور طلبة من الصحراء وبلاد السودان الغربي، درسوا العلوم الشرعية واللغوية ثم عادوا إلى بلدانهم حاملين معهم الكتب والإجازات العلمية. كما كانت الطرق والحضرات الصوفية أيضا من أهم القنوات التي دخل عبرها الكتاب المغربي المخطوط إلى إفريقيا. غير أن القوافل التجارية العابرة للصحراء كان لها قديما الدور الأبرز، فلم تكن تخلو قافلة منها من الكتب، كما ذكر حسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» الذي ألفه في القرن العاشر الهجري/16م، وهو الذي أشار أيضا إلى أن الكتب المجلوبة إلى بلاد السودان من المغرب كانت تدرُّ من الأرباح ما لا يدره غيرها من البضائع. وقد أدّت «سجلماسة» أوّلًا، ثم «واد نون» لاحقا، وظيفة مهمة في هذا المسار؛ فكانتا بوابة العبور التجارية بين الشمال والجنوب، وهو ما جعل حركة الكتب جزءًا من منظومة أوسع لاقتصاد المعرفة، ليتجاوز حضور الكتاب المغربي تجارة الكتاب إلى ثقافة الكتاب نفسه.

لقد أدى الحضور المهيمن للكتاب المغربي المخطوط، من المصاحف وكتب الحديث الشريف، والفقه المالكي، والعقيدة الأشعرية، وعلوم القرآن، والسيرة النبوية، واللغة، والمنطق، وكتب الأدعية وغيرها، في حواضر مثل ولاتة وتمبكتو وغاو وجِنّي وشنقيط وأغاديس، وكنو، وغيرها من المدن الإفريقية،

إلى جعل النموذج المغربي هو النموذج الأوحد في إنتاج الكتاب ذاته، وهو ما تجلى في الخط المغربي الذي شاع استخدامه منذ أيام مملكة مالي، وبه كتب الأفارقة كتبهم دائما، كما تجلى في مختلف أوجه صناعة المخطوط، من تنظيم للمتن والشرح، والهوامش، وصيغ التقييد والتملك. ولذلك فإن كثيرا من الكتب المخطوطة في غرب إفريقيا تحمل آثار النسب «المغربي»، حتى ولو كانت منسوخة محليًا. كما دخل الكتاب المغربي في المقرّر الدراسي، والورد التعبدي، والمرجعية المذهبية معًا، وهو ما عكسه بجلاء الحضور النصّي عبر متون بعينها صارت جزءًا ثابتا من

> **مثّل المغرب لإفريقيا الغربية المصدر الأساسي لأغلب أسباب الحضارة، ومركزَ جذب علمي وروحي**

المنهج التعبدي والتعليمي والعلمي، من أبرزها كتاب «الشفا» للقاضي عياض، وكتاب «دلائل الخيرات» للجزولي، اللذين حازا مكانة رفيعة في البيئات العلمية والصوفية، ثم متون الفقه المالكي مثل كتاب «المرشد المعين» لابن عاشر، وشرحه لميارة الفاسي، والآجرومية لمحمد بن آجروم، وغيرها من الكتب التي ما تزال حاضرة إلى اليوم في التعليم التقليدي بغرب إفريقيا. ومع مرور الزمن، ترسّخت في أذهان النخب العلمية الإفريقية صورة المغرب بوصفه امتدادا طبيعيا لفضائهم الثقافي، ومصدرا للعلم، والعلماء، والكتب. كل هذا يدل على أن الكتاب المغربي المخطوط في إفريقيا كان يحمل قيمة رمزية وعلمية كبيرة، لارتباطه بالمذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، والمتون العلمية التي انبنت عليها الهُوية المشتركة للمغرب وإفريقيا، كما مثّل عنوانا لمرجعية علمية وروحية راسخة.

ومن أقوى الشواهد التي تقدم دليلا ماديا على حضور الكتاب المغربي المخطوط قديما في إفريقيا هي تلك المرتبطة بعلماء الشناقطة، فقد سجلت المصادر أن بعضهم سافر خصيصا لجلب الكتب، ومنهم الشيخ سيديّ بن المختار بن الهيبه الذي قام سنة 1230ه/1815م برحلة إلى مدينة مراكش، واشترى مكتبة ضخمة، ضمت ما يزيد عن مائتي كتاب مخطوط، ما يزال أغلبها موجودا إلى اليوم. كما تلقى علماء آخرون هبات من الكتب من سلاطين المغرب، من بينهم سيدي عَبدُ الله بن الحاج ابراهيم (ت. 1233هـ/1817م) الذي أمدّه المولى سيدي محمد الثالث بن مولاي عبد الله بخزانة كتب، والطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي (ت. 1265/1849م) الذي أتحفه سلطان المغرب المولى عبد الرحمن بن هشام بمكتبة نفيسة ذكَر أنها حِمْل ثلاثين بعيرا من الصناديق.

من المخطوط إلى الطباعة الحجرية.. اتساع الانتشار وتعزيز المسار

لم يُنهِ ظهور الطباعة الحجرية بالمغرب حضور الكتاب المغربي المخطوط بإفريقيا، بل وسّع من دائرة توزيعه وأعطاه قدرة أكبر على الانتشار. وعندما بدأت المطبعة الحجرية المغربية بفاس سنة 1865م، وجد فيها الأفارقة فرصة سانحة للحصول على المزيد من الكتب المغربية، فحرصوا على اقتنائها، لما لمطبوعاتها من قرب مع ما ألفوه من الكتب المخطوطة. ومن ثم، لم تكن الطباعة قطيعة مع الماضي، وإنما كانت امتدادًا تقنيًا له، أتاح كمًّا أكبر، ووسّع مجال التوزيع في المجال الصحراوي وغرب إفريقيا، بل إن مؤلفات بعض العلماء الصحراويين والشناقطة طبعت هي أيضا في المطبعة الحجرية بفاس، ومن بينها أغلب مؤلفات الشيخ ماء العينين (ت. 1323ه/1910م). وتشير الشهادات المتعلقة بخزائن موريتانيا ومالي إلى أن الكتب المطبوعة بالمطبعة الحجرية المغربية ظلت دائما تعامل معاملة الكتاب المخطوط.

الكتاب المدرسي المغربي وتحول الوظيفة الثقافية

إذا كان المخطوط قد أسس حضور الكتاب المغربي في المجال الإفريقي، وعملت المطبعة الحجرية على توسيع رقعته وكمّ انتشاره، فإن الكتاب المدرسي المغربي هو الذي عمّق هذا الحضور فيما بعد، حيث برز دور المغرب، بعد الاستقلال، في دعم المدارس الإفريقية الرسمية والمعاهد الأهلية عبر توفير الكتب المدرسية والبرامج التعليمية والمقررات الدينية، فقد اعتمدت كثير من المدارس في دول مثل موريتانيا والسنغال ومالي والنيجر وغينيا، كتبا مدرسية مغربية في تعليم القراءة والكتابة واللغة العربية والتربية الإسلامية، لما اتسمت به تلك الكتب من وضوح في المنهج، وارتباط بالثوابت الدينية المشتركة.

وقد حمل انتقال الكتاب المدرسي من المغرب إلى إفريقيا معه رؤية تربوية متكاملة عملت على تكوين أجيال من التلاميذ الأفارقة القادرين على الجمع بين متطلبات العصر والمرجعية الدينية الأصيلة. وهكذا أصبح الكتاب المدرسي المغربي أحد أهم أدوات التأثير الثقافي في الفضاء الإفريقي. ومن أبرز النماذج التي يستشهد بها في هذا السياق سلاسل «التلاوة المغربية للمدارس الإفريقية» التي ألّفها تربويون مغاربة وطبعت طبعات عديدة في المغرب منذ أوائل الثمانينيات من القرن الماضي لتكون صالحة للاستعمال في المدارس المغربية والأفريقية في

آن واحد. وقد ساعد ذلك في توحيد جزء من مناهج التعليم العربي في عدد من البلدان، حيث صارت بعض هذه الكتب مقررات معتمدة في مدارس رسمية أو أهلية إفريقية، مما عزز من حضور العربية الفصحى وربطها بالمعرفة الدينية والهوية الإسلامية. ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد قام المغرب -على سبيل المثال- في فترة السبعينيات من القرن العشرين بطباعة الكتب المدرسية الموريتانية باللغة العربية، وكانت بعض الكتب المدرسية المقررة بالمغرب هي نفسها التي تدرس بالمدارس الموريتانية، ومازال بعض المدرّسين الموريتانيين تستعينون إلى اليوم بالكتب المدرسية المغربية، بحكم وحدة المناهج الدراسية في البلدين.

لقد مثّل الكتاب المدرسي المغربي شاهدا على مرحلة انتقل فيها الحضور المغربي من تزويد الخزانة بالمتن العلمي، إلى تزويد المدرسة بالكتاب التعليمي، وتحول المغرب إلى فاعل مهم في تشكيل مستقبل التعليم لدى قطاعات من المتعلمين في عدد من البلدان الإفريقية، ومؤثرا في تكوين النخب الإفريقية، حيث يكشف تحليل مسار كثير من النخب الدينية والفكرية في غرب إفريقيا اليوم عن تأثير مباشر للكتاب المدرسي المغربي في تكوينهم العلمي الأولي، فقد درس الكثير منهم في مدارس ومعاهد اعتمدت كتبا مغربية في التلاوة والقراءة والنحو والتربية الإسلامية، قبل أن ينتقلوا إلى الجامعات في بلدانهم أو في بلدان أخرى، أو إلى المغرب نفسه لاستكمال دراساتهم العليا. وبذلك يمكن القول إن الكتاب المدرسي المغربي عمل كبوابة أولى فتحت أمام هؤلاء مسارات معرفية جديدة، وربطتهم بالمغرب معرفيا ورمزيا.

ولم يقف دور المغرب عند توفير الكتاب المدرسي، بل تعداه إلى أنه صار وجهة مفضلة لدى العديد من المؤلفين الأفارقة، خاصة من موريتانيا والسنغال ومالي، لطباعة كتبهم ونشرها وإدخالها في شبكات توزيع أوسع، مما جعل المغرب مركزا لإعادة إنتاج الكتاب الإفريقي وإعادة توزيعه داخل فضاء عربي وإفريقي وعالمي أرحب. وبهذا المعنى، لم يعد المغرب مجرد مصدرٍ للكتاب، بل صار أيضًا وسيطًا مؤسّسيًّا وثقافيًا يمنح الكتاب الإفريقي إمكانات جديدة للظهور والتداول.

من التاريخ الثقافي إلى الدبلوماسية المعرفية

اتخذ حضور الكتاب المغربي في إفريقيا في الزمن المعاصر، بعدًا مؤسسيًا أوضح، إذ صار جزءًا من سياسة ثقافية مغربية ترى في القارة فضاءً استراتيجيًا للتعاون، وتتعامل مع الكتاب بوصفه أداة من أدوات القوة الناعمة والدبلوماسية المعرفية. وهكذا، برزت أدوار الجامعات، ومراكز الدراسات، والهيئات الثقافية، وبعض المؤسسات الرسمية، والمعارض الدولية، في توسيع هذا الحضور. واعتباراً من ثمانينيات القرن العشرين، ومع إنشاء معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس بالرباط، انتقل دور المغرب في مجال الكتاب الموجّه لإفريقيا من تزويد القارة بالكتب التراثية والمدرسية إلى إنتاج ونشر الكتب عن إفريقيا نفسها، فقد حُدّدت مهام هذا المعهد في تشجيع البحث في العلوم الإنسانية المتعلقة بإفريقيا، وتنظيم الندوات الدولية، وإصدار الدراسات والكتب التي تتناول القارة من زوايا متعددة: تاريخية، وسياسية، وثقافية، ودينية. وأصدر المركز منذ بداية التسعينيات عشرات

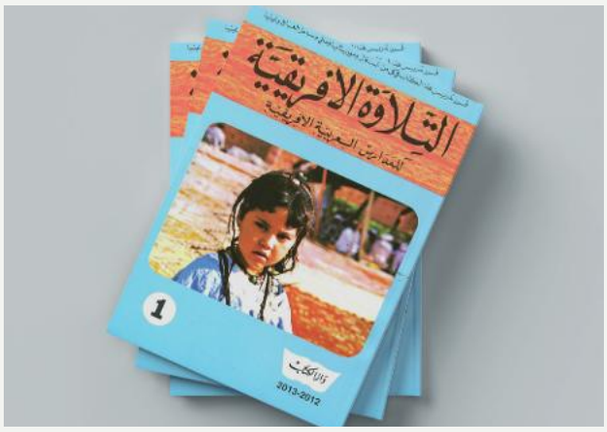

الكتب والأعمال الجماعية، كما أطلق مجلتين علميتين محكّمتين هما: «المغرب الإفريقي» بالعربية، و«دفاتر البحث» بالفرنسية، نشر فيهما باحثون مغاربة وأفارقة دراسات تناولت قضايا مثل: العلاقات المغربية-الإفريقية، تاريخ الإسلام في إفريقيا، الحركات التحررية الإفريقية، التحولات السياسية والاقتصادية في القارة، والتراث المخطوط الإفريقي. وإلى جانب ذلك، نظم المعهد وباقي الجامعات المغربية ندوات عديدة حول التراث الإفريقي، انتهى بعضُها إلى كتب منشورة، كما نشر كتبا ودراسات عديدة تناولت موضوعات تهم التراث الإفريقي والذاكرة المشتركة بين المغرب وإفريقيا. وقد جعلت هذه الندوات وما رافقها من إصدارات، من الرباط محطة لا غنى عنها للباحثين الأفارقة المهتمين بقضايا القارة، ورسّخ صورة المغرب كمركز إقليمي للدراسات الإفريقية. كما قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية بنشر العديد من الكتب التي تهتم بإفريقيا، أو ألفها مؤلفون أفارقة.

> **لم يعد المغرب مجرد مصدر للكتاب، بل صار أيضًا وسيطًا مؤسّسيًّا وثقافيًا**

وعندما عاد المغرب إلى الاتحاد الإفريقي سنة 2017 مثّل ذلك محطة مفصلية في مسار سياسته الإفريقية، ومستوى أعمق من الدبلوماسية المعرفية، جاء تتويجاً لمسار طويل من الحضور الثقافي والديني والمعرفي، فقد راكم المغرب، قبل هذا التاريخ، دبلوماسية مبنية على إرث تاريخي وعلى بنية معرفية راسخة، وخبرة معتبرة في مجالات تزويد إفريقيا بالكتاب، وإنتاج الدراسات الإفريقية، وبناء جسور روحية وتعليمية مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وهو ما جعل عودته إلى المنظمة الإفريقية تتم على أرضية ثقافية ومعرفية جاهزة يمكن تحويلها إلى إستراتيجية أكثر تماسكاً في مجال الدبلوماسية المعرفية. وفي هذا السياق الجديد، لم تعد القارة مجرد فضاء للتعبير عن التضامن أو الروابط التاريخية، بل أصبحت بالنسبة للمغرب رهاناً استراتيجياً قوامه توجّه إفريقي شامل، شكلت فيه الثقافة والجامعة والكتاب مكوّناً ثابتاً إلى جانب الاقتصاد والسياسة والأمن.

وفي هذا السياق برزت مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، التي انطلقت في ثوبها الجديد سنة 2016م، كأداة مؤسسية لترجمة الرؤية المغربية للعمل الديني بإفريقيا جنوب الصحراء، تسعى إلى تجسيد عمق الأواصر الروحية العريقة بين المغرب والشعوب الإفريقية، وإلى توحيد جهود العلماء للتعريف بقيم الإسلام المتسامح وإحياء التراث الإسلامي الإفريقي المشترك، لتضطلع بدور مركزي في الدبلوماسية الدينية-المعرفية المغربية، وفي احتضان جزء من الإنتاج الإفريقي نفسه. وجسدت المؤسسة رؤيتها من خلال ندواتها المتكررة التي تناولت جوانب متعددة من العلاقات التاريخية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وما صاحبها من نشر محاضرات وكتب ورسائل علمية، إحياءً للذاكرة المشتركة في صيغ مكتوبة ومطبوعة توزّع على العلماء والطلبة في الفروع الإفريقية. كما عملت على إقامة مراكز ومكتبات ومعاهد دينية في هذه البلدان، كانت الكتب والموادّ العلمية ذات المرجعية المغربية حاضرة فيها بقوة. وهو ما جعل من الكتاب أداة عملية لترسيخ الولاء العلمي والروحي للنموذج المغربي في الحقول الدينية الإفريقية.

لم يقتصر حضور الكتاب المغربي في إفريقيا خلال العقود الماضية على الجهود المغربية فقط، بل أسهمت فيه منظمة دولية كبرى هي منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة(الإيسيسكو)، التي تتخذ من الرباط مقرا لها منذ إنشائها سنة 1982م، حيث تعزز هذا الحضور بفضل الشراكات وبرامج التعاون في مجال الكتاب التي ربطت المنظمة بمؤسسات مغربية وازنة، وفي مقدمتها المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، وأرشيف المغرب، ومؤسسات إعلامية وبحثية أخرى، وهو ما ساعد المؤسسات المغربية المختصة في توسيع إشعاع الكتاب المغربي خارج الحدود، وأعطى للمغرب قدرة أكبر على التأثير في توجيه البرامج الثقافية نحو إفريقيا، وربط خبرته في حفظ التراث والنشر بحاجات الدول الإفريقية الأعضاء في المنظمة، ضمن تصور جديد لوظيفة المكتبات والكتاب في العالم الإسلامي.

من القافلة إلى المعرض.. تحول الوسيط وبقاء الوظيفة

إذا كان الكتاب المغربي عبر إلى إفريقيا، في مرحلة أولى، بواسطة القوافل والأسواق والهبات السلطانية وشبكات العلماء، ثم تعزز وجوده مع الطباعة الحجرية والكتاب المدرسي، والتأطير المؤسسي، غير أن عنصرا مهما آخر انضاف إليها في المرحلة المعاصرة، تمثل في المعارض التي صارت تؤدي بعض الوظائف التي كانت تؤديها القافلة قديما، ولكن بصيغة حديثة. فكما كانت القوافل تنقل الكتب والورق والمتون وتربط بين أسواق مراكش وفاس وفضاءات شنقيط، وتمبكتو، وكنو، أصبحت معارض الكتاب اليوم تنقل العناوين، وتجمع الناشرين، وتفتح قنوات جديدة للتداول والتوزيع، وتربط الفاعلين الثقافيين الأفارقة بالمشهد الثقافي المغربي، وبذلك لم يتغير جوهر الوظيفة، وإنما تغير الوسيط الذي يقوم بها. وقد تجلى هذا من خلال المعرض الدولي للنشر والكتاب بالرباط الذي يعدّ واحدا من أهم التظاهرات التي تجسدت فيها الدبلوماسية المعرفية المغربية على أرض الواقع، فهو يجمع سنويا دور نشر مغربية وعربية وإفريقية وعالمية، ويستضيف كُتّابا وباحثين من بلدان مختلفة، كما تعقد على هامشه ندوات ولقاءات حول الأدب الإفريقي، والترجمة، والتراث المكتوب، وتبحث العلاقات الثقافية المغربية الإفريقية. وبهذا المعنى صار المعرض فضاء لعرض صورة المغرب باعتباره جسرا بين العالم العربي وإفريقيا، ومجالا لإبرام اتفاقيات للنشر المشترك، وتوزيع الكتب المغربية في الأسواق الإفريقية، ونشر الكتب الإفريقية في المغرب.

اتخذ حضور الكتاب المغربي في إفريقيا بعدًا مؤسسيًا وصار أداة من أدوات القوة الناعمة

لقد أصبح المعرض الدولي للنشر والكتاب بالرباط جزءا من إستراتيجية مغربية أوسع للتواصل المعرفي مع إفريقيا، وإحدى أهم الواجهات الحديثة لحضور المغرب في مجال الكتاب فيها، حيث ارتبط تحول المعرض إلى الرباط بتوسيع أفقه الإفريقي والإسلامي، مع تزايد حضور ناشرين وكتاب وباحثين ووفود إفريقية، وضيوف شرف، وتحولت أروقته إلى فضاء يعكس الحجم المعتبر للحضور الإفريقي، وتنوع الإبداع والمعرفة القادمين من إفريقيا جنوب الصحراء. ولعل أبرز ما جعل هذا المعرض وغيره من المعارض مظهرا مهما من مظاهر حضور المغرب في إفريقيا، هو أنها تؤدي وظيفة عملية مباشرة في ترويج الكتاب المغربي والكتاب الإفريقي معا، حيث إن فعالياتها تستقبل الكتاب الأفارقة وتتيح التعارف بين الفاعلين في صناعة الكتاب، وتبرمج ندوات حول التنمية الثقافية الإفريقية ومكانة الكتاب فيها. وهذه النقطة بالذات تجعلها امتدادا حديثا لروابط العلماء والرحالة التي صنعت في الماضي حركة الكتاب بين ضفتي الصحراء، كما تسهم في تعزيز حضور الكتاب المغربي في البلدان الإفريقية. وهذا يعني أن المعرض هو أكثر من نشاط ثقافي ظرفي، بل هو عامل فعال في حركة الكتاب، يربط بين الإنتاج والنشر والتوزيع، ويمنح الكتاب المغربي فرصة أوسع للوصول إلى القراء والمؤسسات والمكتبات في بلدان إفريقية متعددة. ولم يعد المعرض الدولي للنشر والكتاب فضاء مغربيا صرفا، بل صار

بوجه من الوجوه منصة إفريقية، بما يتضمنه برنامجه الثقافي من موضوعات إفريقية، كما أن الوفود الإفريقية أصبحت جزءا ثابتا من بنية المعرض، ويبين حضور الكتاب والناشرين الأفارقة داخله أن المغرب لا يكتفي بإنتاج كتابه الوطني وتوزيعه وتعزيز حضوره، بل يحتضن الكتاب الإفريقي كذلك ويعيد توجيهه داخل شبكات أوسع.

ولا يقف هذا الحضور والاحتفاء عند معرض الرباط وحده، إذ مثل مهرجان الكتاب الإفريقي بمراكش مؤشرا إضافيا على توسع الاحتضان المغربي للكتاب الإفريقي، فهذا المهرجان الذي تنعقد بمراكش دورته الرابعة في ابريل 2026، يمثل حدثا ثقافيا بارزا يجمع المؤلفين والناشرين والقراء والمتخصصين في مجال النشر، ضمن برنامج ثري ومتنوع يتضمن لقاءات مع كتّاب مرموقين، وجلسات نقاشية تستكشف التحديات الرئيسية التي تواجه النشر في أفريقيا، كما يشمل توقيعات كتب، وورش عمل في الكتابة والقراءة لجميع الأعمار، ويُسلّط المهرجان الضوء على الكُتّاب المعروفين والمواهب الصاعدة، وقد رسخ مهرجان الكتاب الأفريقي مكانته كحدث مهم، ومكان للتبادل والاكتشاف والمشاركة حول ما يربط المغرب بالقارة الأفريقية وتاريخها ومستقبلها.

> **المغرب لم يكن مجرد بلدٍ صدَّر كتبًا، بل كان طرفًا فاعلًا في بناء البنية التحتية للمعرفة**

إن وجود مثل هذه المعارض والمهرجانات يدل على أن المغرب فضلا عن مشاركته الفاعلة في صناعة الكتاب الإفريقي من خلال الطباعة والنشر، خلق مواسم ثقافية تستقبل الأدب الإفريقي، وتمنح الكتاب والناشرين والقراء فرصة اللقاء والحوار. ومن ثم، فإن تعدد هذه الفعاليات يعزز صورة المغرب كأرض استقبال وتداول وإشعاع للكتاب الإفريقي، ويؤكد أن المعارض صارت جزءا بنيويا من حضوره الثقافي داخل القارة، ويبرز الكتاب باعتباره وجها من أوجه السياسة الثقافية المغربية تجاه إفريقيا، وجزءا من دبلوماسية معرفية أوسع، تتيح للمغرب أن يعرض نموذجه الثقافي، وأن يقدم إنتاجه الفكري، ويستضيف الفاعلين الأفارقة، ويعزز صورته مرجعا ثقافيا ودينيا ومعرفيا. وبذلك يتحول إلى آلية من آليات بناء الحضور المغربي في المخيال الإفريقي المعاصر.

واللافت في هذه المعارض، أن الحضور الإفريقي فيها صار حضورا مهيكلا من خلال استضافة دول إفريقية، وتخصيص أروقة لأدبها وتراثها، وتنظيم أنشطة مشتركة بين ناشرين مغاربة وأفارقة. وهو ما جعل المغرب يتحول من موقع المنظم المحلي إلى موقع المنصة التي تلتقي فيها صناعة الكتاب داخل القارة. وتزداد هذه الصورة وضوحا مع المعطيات الخاصة بدورة 2024، التي شهدت مشاركة 743 عارضا من 48 بلدا، وتنظيم 241 نشاطا ثقافيا، مع حضور موضوعات مرتبطة بـ»إفريقيا المتعددة». وهي أرقام تؤكد أن المغرب لم يعد فقط بلد طباعة وتوزيع، بل صار مجالا سنويا كبيرا لتلاقي الفاعلين في صناعة الكتاب داخل إفريقيا وخارجها.

وخلاصة القول، هي أن المغرب لم يكن في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء مجرد بلدٍ صدَّر كتبًا إلى الجنوب، بل كان طرفًا فاعلًا في بناء البنية التحتية للمعرفة نفسها، من القافلة إلى الخزانة، ومن الزاوية إلى المدرسة، ومن المطبعة إلى المعرض. وقد ظل هذا الدور متجدّدًا لأنه قام على أكثر من ركيزة في آن واحد، شملت: الموقع الجغرافي، والشبكات العلمية، والمرجعية المذهبية، وسوق الكتاب، والمؤسسات الثقافية الحديثة. لذلك فإن الكتاب المغربي في إفريقيا ليس أثرًا من آثار الماضي، بل هو شاهد على تاريخ طويل من التفاعل، ووسيط حيّ لإمكانات تعاون ثقافي ما تزال قابلة للتوسيع والبناء.

وفي هذا السياق، تمثل الإيسيسكو أداة مؤسسية أساسية وفاعلة أسهمت بشكل فاعل في ربط البنية الوطنية للكتاب في المغرب بالفضاء الإفريقي الأوسع، لتصبح الرباط مركزا لدبلوماسية معرفية تستخدم الكتاب والثقافة لبناء علاقات قوية طويلة الأمد بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وهو ما يجعل الحديث واردا عن «طريق الكتاب عبر الصحراء» لا كوصف لماضٍ منقضٍ، بل كمشروع ثقافي معاصر يستعيد الذاكرة المشتركة ويؤسس لشراكات معرفية جديدة.

ملف خاص

مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو

منارة معرفية جديدة للحوار الثقافي وإتاحة المعرفة

فضاء وثائقي حديث يجمع بين الورقي والرقمي، وتجسيد رؤية الإيسيسكو في جعل المعرفة أكثر عدالة وانفتاحًا وشمولًا

مركز الترجمة والنشر
Centre de Traduction et de Publication
Translation and Publishing Center

تفتتح منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بمقرها في الرباط مكتبة السلطان قابوس يوم 16 أبريل 2026، في خطوة تعكس حرص المنظمة على ترسيخ حضور المعرفة وتعزيز فضاءاتها الثقافية والعلمية. ويشكل هذا المشروع إضافة نوعية إلى البنية المعرفية للإيسيسكو، إذ صُممت المكتبة لتكون فضاءً حديثًا للقراءة والبحث وتبادل الأفكار، يتيح للباحثين والطلبة والمهتمين بالشأن الثقافي والعلمي الوصول إلى مصادر معرفية متنوعة في بيئة محفزة على الاطلاع والتفكير.

وتجسد مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو ثمرة تعاون ثقافي مميز بين المنظمة وسلطنة عُمان، التي ساهمت في دعم إنشاء هذا الصرح المعرفي، تأكيدًا لالتزامها التاريخي بدعم الثقافة ونشر المعرفة في العالمين العربي والإسلامي. ويأتي إطلاق اسم السلطان قابوس - طيب الله ثراه - على المكتبة تقديرًا لإسهاماته البارزة في تعزيز مسارات العلم والثقافة والحوار الحضاري، وللدور الذي اضطلعت به سلطنة عُمان في إنجاح هذا المشروع الثقافي.

يأتي إطلاق اسم السلطان قابوس على المكتبة تقديرًا لإسهاماته البارزة في تعزيز مسارات العلم والثقافة والحوار الحضاري

وفي إطار هذا التوجه، جرى تصور مكتبة السلطان قابوس كونها فضاءً معرفيًا متكاملًا يسهم في دعم البحث العلمي وتيسير تداول المعرفة بين مختلف الفاعلين في المجال الثقافي والأكاديمي. وقد روعي في تصميمها أن توفر بيئة ملائمة للقراءة والدراسة والعمل الفكري، مع إتاحة موارد علمية متنوعة وأدوات حديثة تساعد المستفيدين على الوصول إلى المعلومات وتنظيمها واستثمارها في أعمالهم البحثية. ويأتي هذا المشروع منسجمًا مع التوجهات التي تتبناها الإيسيسكو ضمن خطتها الاستراتيجية للفترة 2026-2029، لا سيما في ما يتعلق بتعزيز دور المعرفة والثقافة في دعم مسارات التنمية المستدامة. وفي هذا السياق، تولي المكتبة اهتمامًا خاصًا بترسيخ الوعي بقيم وأهداف التنمية المستدامة (SDGs)، من خلال تعريف الأجيال الصاعدة بقضايا عالمية أساسية مثل جودة التعليم، وحماية البيئة، والصحة الجيدة، والمساواة، والسلام، بما يسهم في بناء وعي مبكر لدى الأطفال واليافعين بدور المعرفة في خدمة المجتمع والإنسان. ومن شأن هذا التوجه أن يعزز دور الإيسيسكو بوصفها منصةً للتفاعل المعرفي والتعاون الأكاديمي، بما يدعم جهود نشر العلم وتبادل الخبرات بين الباحثين والمؤسسات العلمية داخل دول العالم الإسلامي وخارجها.

وتعكس مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو منظومة القيم التي تقوم عليها رسالة المنظمة، وفي مقدمتها التضامن، والابتكار، والشفافية، والتعايش. وفي هذا الإطار، تسعى المكتبة إلى ترسيخ مبدأ إتاحة المعرفة على نحو شامل ومستدام، مع اعتماد أدوات وتقنيات حديثة تواكب تطور أساليب البحث والقراءة والتعلم. كما تحرص على تدبير مواردها وفق معايير الجودة والحوكمة الرشيدة، بما يعزز فاعلية خدماتها واستدامتها. ويجد التنوع الثقافي واللغوي في فضاءات المكتبة بيئة حاضنة للحوار والتفاعل المعرفي، في أجواء يسودها الاحترام المتبادل والانفتاح، بما يعكس التوجه الإنساني والثقافي الذي يميز مبادرات الإيسيسكو.

ويأتي هذا المشروع في سياق عمل مؤسسي أوسع يضطلع به مركز الترجمة والنشر بالإيسيسكو، الذي يقوم على هيكل تنظيمي متكامل يضم ثلاثة أقسام رئيسة تعمل في إطار

منظومة مترابطة لصناعة المعرفة ونشرها. إذ يتولى قسم الترجمة إدارة العمليات الترجمية التحريرية والشفوية وفق معايير مهنية دقيقة، ويحضى قسم التصميم والطباعة بدور أساسي في تحويل المحتوى المعرفي إلى منتجات بصرية متكاملة عبر حلول تصميمية احترافية والإشراف الفني على مراحل الطباعة والإنتاج. فيما يشكل قسم النشر والمكتبة الحاضنة الأساسية للإنتاج الفكري للمنظمة، من خلال إدارة النشر الورقي والإلكتروني وحفظ الإصدارات العلمية وتيسير وصولها إلى الجمهور عبر منصات رقمية متطورة.

تضطلع مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو بدور يتجاوز الوظيفة الوثائقية التقليدية، إذ تقوم على رؤية معرفية تهدف إلى تعزيز إتاحة المعرفة وتيسير تداولها على نطاق واسع. وفي هذا الإطار، تسعى المكتبة إلى تمكين الأفراد والمؤسسات من الوصول إلى مواردها العلمية، مع العمل على تنمية رصيدها المعرفي بمواد مكتوبة بالعربية وبمختلف لغات الدول الأعضاء. كما تدعم البحث العلمي وتشجع الابتكار عبر توفير أدوات حديثة للاطلاع والتحليل والنشر، إلى جانب تطوير مجالات التعاون مع المكتبات والمؤسسات الأكاديمية ومراكز البحث في مختلف أنحاء العالم. ويسهم هذا التوجه في إبراز الإنتاج الفكري والعلمي للعالم الإسلامي وتثمينه، بما يعزز حضوره في المشهد المعرفي الدولي ويكرس في الوقت نفسه التنوع اللغوي والثقافي بوصفه أحد المرتكزات الأساسية لرسالة الإيسيسكو.

ويعكس تصميم المكتبة هذا التوجه من خلال الجمع بين الفضاء المادي للمكتبة وامتدادها الرقمي في منظومة متكاملة تواكب التحولات التي يشهدها عالم المعرفة وطرق إتاحتها. فإلى جانب فضاءاتها الورقية، توفر المكتبة الرقمية للإيسيسكو منصة تتيح الوصول إلى رصيد غني من الكتب والدوريات والوثائق العلمية، بما يدعم التعلم المستمر ويعزز البحث الأكاديمي في مختلف التخصصات. كما تسهم هذه المنصة في حفظ الإنتاج الفكري وتثمينه وتيسير تداوله عبر اللغات والحقول المعرفية، بما يوسع دائرة الاستفادة منه. ويمنح هذا الامتداد الرقمي المكتبة بعدًا يتجاوز حدود المكان، إذ يتيح للباحثين والطلبة والمهنيين الوصول إلى مصادر المعرفة من مختلف أنحاء العالم، مدعومًا بأدوات بحث متقدمة وواجهات متعددة اللغات تسهّل الوصول السريع والدقيق إلى المحتوى المطلوب.

ولا تقتصر أهمية المكتبة على مواردها المعرفية فحسب، بل تمتد إلى طبيعة الخدمات التي تقدمها للمستفيدين في إطار تصور حديث لدور المكتبات بوصفها فضاءات حية للمعرفة والتفاعل العلمي. فقد جُهزت المكتبة بفضاءات مطالعة مريحة، وتضم رصيدًا متنوعًا من الموارد الورقية يشمل الكتب والدوريات والتقارير المتخصصة والمخطوطات والكتب النادرة، إلى جانب خدمات رقمية متاحة بشكل مستمر. كما توفر للمستفيدين مرافقة في مسارات البحث والاطلاع من خلال الاستقبال والإرشاد، وتنظيم جولات تعريفية، وتقديم تدريب على أدوات البحث الوثائقي، إضافة إلى إتاحة خدمات المساعدة عن بُعد ومنصات لتبادل المعلومات. ويعكس هذا التنوع في الخدمات رؤية حديثة تجعل من المكتبة فضاءً داعمًا للباحث والقارئ، وشريكًا فاعلًا في إنتاج المعرفة وتداولها.

د. سالم بن محمد المالك : ستشكل المكتبة نقطة إشعاع علمي يضيف إلى الحراك الثقافي والمعرفي الكبير بدولة المقر

وفي سياق تجسيد هذه الرؤية على أرض الواقع، تمتد مكتبة السلطان قابوس على مساحة تقارب 500 مترٍ مربعٍ، وتحتضن أكثر من 6000 مؤلف في صيغتها الورقية، فيما يتكامل هذا الرصيد مع المكتبة الرقمية للإيسيسكو التي تتيح ما يزيد عن 200000 عنوان متاح للباحثين والمهتمين عبر منصتها الإلكترونية. كما تضم المكتبة ثلاث نفائس تاريخية نادرة تضفي على رصيدها قيمة علمية وثقافية استثنائية، من بينها نسخة فريدة ومترجمة من المصحف الشريف بخط ابن البواب، ورقوق القيروان التي تعود إلى مخطوطات مصاحف تاريخية كانت موقوفة على جامع القيروان، إضافة إلى نسخة من الطبعة الفاخرة لكتاب «المسجد الأقصى» ضمن إصدار عالمي محدود.

من جانبه ثمّن الدكتور سالم بن محمد المالك مدير عام منظمة الإيسيسكو الشراكة المثمرة بين المنظمة والدول الأعضاء، مشيدًا

تتجه مكتبة السلطان قابوس مستقبلاً إلى تطوير خدمات رقمية متقدمة وتعزيز التعاون مع المؤسسات الأكاديمية والتكنولوجية، واستكشاف إمكانات توظيف الذكاء الاصطناعي في البحث الوثائقي وإدارة المعرفة

بالتعاون بين الإيسيسكو وسلطنة عمان لإطلاق مشروع مكتبة السلطان قابوس، كصرح معرفي ثقافي علمي جامع، يتوقع أن يجني القراء والمهتمون والدارسون ثماره، وأن تشكل المكتبة نقطة إشعاع علمي يضيف إلى الحراك الثقافي والمعرفي الكبير بدولة المقر، مؤكدًا المضي قدمًا في تنفيذ عدد من مشروعات الشراكة بين المنظمة والدول الأعضاء

هذا وقد أكدَّ الدكتور أحمد البنيان مدير مركز النشر والترجمة المشرف على تأسيس المكتبة أن المشروع يعد تتويجًا لجهد عامين من الحصر والجمع والتبويب والفهرسة

والاستعانة بأحدث نظم المكتبات والمعلومات ليخرج هذا المشروع على الوجه الذي يليق باسمها واسم منظمة الإيسيسكو، مشيرًا إلى أنها ستفتح أبوابها للجمهور من طلاب العلم والقراء عقب افتتاحها مباشرة.

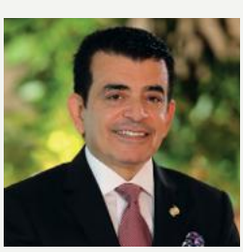

د. سالم بن محمد المالك

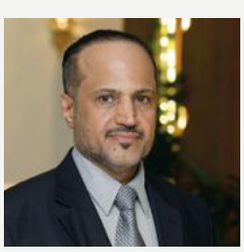

د. أحمد بن عبد الله البنيان

تستقبل مكتبة السلطان قابوس بالإيسيسكو فئات متنوعة من المستفيدين، تمتد من الخبراء والباحثين والأكاديميين والطلبة إلى الجامعات ومراكز البحث والمؤسسات الثقافية والناشرين والمؤلفين، إضافة إلى موظفي الإيسيسكو وعموم الزوار المهتمين بالمعرفة. وقد صُممت المكتبة لتكون فضاءً جامعًا يتيح الوصول إلى مصادر العلم والثقافة لمختلف الفئات. وفي هذا النظم، تضم المكتبة ركنًا مخصصًا للأطفال واليافعين يهدف إلى تنمية حب القراءة لديهم، وتنشيط فضولهم المعرفي،

وترسيخ قيم الانفتاح والتنوع الثقافي منذ المراحل العمرية الأولى. وتعكس هذه المقاربة حرص المكتبة على أن تكون فضاءً معرفيًا مفتوحًا للجميع، يسهم في نشر الثقافة وتعزيز الوعي العلمي داخل المجتمع.

وعلى المستوى العملي، جرى تجهيز المكتبة لتكون فضاءً معاصرًا يلبي احتياجات مختلف فئات المستفيدين، إذ تضم قاعات مطالعة مريحة، وحواسيب حديثة، وفضاءات مهيأة للعمل الفردي والجماعي، إلى جانب شاشات لعرض الإصدارات والمستجدات المعرفية. كما توفر خدمات الطباعة والنسخ والمسح الضوئي، بما يسهل الاستفادة من مواردها الوثائقية. وتولي المكتبة اهتمامًا خاصًا بمبدأ الولوجيات، من خلال تجهيزات مخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة، تشمل حواسيب مزودة ببرامج للقراءة الصوتية وتكبير الخط، إضافة إلى لوحات إرشادية واضحة تسهّل التنقل داخل فضاءاتها. ويعكس هذا التوجه حرصًا على أن تكون المكتبة فضاءً معرفيًا شاملاً، متاحًا لجميع المستفيدين دون استثناء.

تتجلى أهمية هذا المشروع كذلك في آفاقه المستقبلية وما يحمله من إمكانات للتطور والتوسع. إذ تتجه مكتبة السلطان قابوس إلى تطوير خدمات رقمية متقدمة وتعزيز التعاون مع المؤسسات الأكاديمية والتكنولوجية، إلى جانب استكشاف إمكانات توظيف الذكاء الاصطناعي في البحث الوثائقي وإدارة المعرفة. كما تشمل هذه التوجهات تطوير تطبيقات للهواتف المحمولة والاستفادة من تقنيات الواقع المعزز والواقع الافتراضي في الوساطة الوثائقية، بما يثري تجربة المستفيدين ويتيح طرقًا جديدة للتفاعل مع الموارد المعرفية. وتعكس هذه المقاربة الاستشرافية حرص المكتبة على مواكبة التحولات المتسارعة في عالم المعرفة والاستجابة لتطلعات الأجيال الجديدة من الباحثين والقراء.

دور الإيسيسكو في تمكين النساء

رؤية مؤسسية متكاملة بين القيادة والتنمية والعمل المجتمعي

رانيا عابدين الشوبكي

ناشطة نسوية ورئيسة جمعية عقيلات السفراء العرب والمنظمات الدولية

فلسطين

يشكّل تمكين النساء اليوم أحد الأعمدة الأساسية للتنمية المستدامة، وركيزة لا غنى عنها لبناء مجتمعات متوازنة وقادرة على مواجهة التحديات المتسارعة في مجالات الاقتصاد، والتعليم، والصحة، والثقافة، والابتكار وأوجه الحياة كافة. ولم يعد هذا التمكين يُقاس فقط بمدى وصول المرأة إلى فرص التعليم أو العمل، بل بات مرتبطاً بقدرتها على الاضطلاع بأدوار قيادية، والمشاركة في صنع القرار، والتمثيل في المحافل الدولية، والإسهام الفاعل في العمل المجتمعي والإنساني.

وفي هذا الإطار، برزت منظمة الإيسيسكو كإحدى المنظمات الدولية الرائدة في العالم الإسلامي التي تبنت مقاربة شمولية ومؤسساتية لتمكين النساء، تقوم على الدمج بين السياسات الداخلية الداعمة للمساواة، والبرامج التدريبية وبناء القدرات، والمبادرات الثقافية والإبداعية، إضافة إلى الشراكات المجتمعية والإنسانية ذات الأثر المباشر.

وقد تزامن هذا الزخم مع مرحلة من التجديد المؤسسي التي شهدتها الإيسيسكو بقيادة معالي الدكتور سالم بن محمد المالك، والتي اتسمت برؤية شاملة ومتجددة عززت حضور قضايا تمكين المرأة ضمن أولويات العمل الاستراتيجي للمنظمة، وأسهمت في تطوير برامجها وتوسيع أثرها على المستويين الإقليمي والدولي.

وتهدف هذه المقالة إلى تسليط الضوء على دور الإيسيسكو في تمكين النساء، من خلال تحليل تجربتها في توظيفهن في مواقع قيادية، وتحقيق التوازن بين الجنسين داخل المؤسسة، وإشراكهن في برامجها التدريبية، وتخصيص عام للمرأة، وإطلاق مبادرات ثقافية وتعليمية نوعية، إلى جانب دعمها للأنشطة الخيرية والمجتمعية بالتعاون مع الجمعيات والمؤسسات الطوعية مثل جمعية عقيلات السفراء العرب والمنظمات الدولية وغيرها.

أولاً: تمكين النساء داخل الهيكلة المؤسسية للإيسيسكو

• النساء في مراكز القيادة وصنع القرار

اعتمدت الإيسيسكو سياسة واضحة تقوم على مبدأ تكافؤ الفرص في التوظيف والترقي، ما أتاح للنساء المؤهلات تولي مناصب قيادية وإشرافية داخل المؤسسة. وتشغل النساء مواقع متقدمة في الإدارة العليا، وإدارة البرامج، والتخطيط الاستراتيجي، والتعاون الدولي، والإعلام والاتصال، وغيرها من القطاعات الحيوية.

> **اعتمدت الإيسيسكو سياسة واضحة تقوم على مبدأ تكافؤ الفرص في التوظيف والترقي، ما أتاح للنساء المؤهلات تولي مناصب قيادية**

ولا يقتصر هذا الحضور على البعد العددي أو الرمزي، بل يمتد إلى المشاركة الفعلية في صنع القرار، وإدارة الملفات الكبرى، والإشراف على البرامج الإقليمية والدولية، بما يعكس ثقة المؤسسة في الكفاءة المهنية للمرأة، وإيمانها بدور القيادة النسائية في تحسين جودة الأداء المؤسسي وتعزيز الحوكمة.

• التوازن الوظيفي بين النساء والرجال

تشير المؤشرات المؤسسية إلى أن عدد النساء العاملات في مختلف قطاعات الإيسيسكو يناهز نصف إجمالي الموارد البشرية، وهو ما يعكس التزاماً عملياً بمبدأ المساواة والتوازن. وتعمل النساء في مجالات متنوعة تشمل التعليم، والثقافة، والعلوم، والبحث العلمي، والإدارة، والدعم التقني، والاتصال المؤسسي.

وقد أسهم هذا التوازن في خلق بيئة عمل تشاركية، تعزز تبادل الخبرات، وتدعم التنوع في الرؤى، وتُنتج سياسات وبرامج أكثر شمولاً واستجابة لاحتياجات المجتمعات.

ثانياً: تمكين النساء من خلال برامج التدريب وبناء القدرات

• مشاركة النساء في البرامج التدريبية

تولي الإيسيسكو اهتماماً خاصاً لبناء القدرات النسائية، حيث تشكل النساء نسبة معتبرة من المستفيدين من برامجها التدريبية، سواء من داخل المؤسسة أو من الدول الأعضاء. وتركز هذه البرامج على تطوير المهارات القيادية، والإدارية، والتقنية، والبحثية، بما يعزز جاهزية المرأة لتولي مسؤوليات أكبر.

وتغطي هذه البرامج مجالات متعددة، من بينها:

- القيادة النسائية وإدارة الفرق
- التخطيط الاستراتيجي وصياغة السياسات العامة
- الابتكار وريادة الأعمال
- التحول الرقمي والتكنولوجيا الحديثة
- الدبلوماسية الثقافية والتعاون الدولي

• الاستثمار في القيادات النسائية المستقبلية

تتبنى الإيسيسكو رؤية بعيدة المدى في تمكين النساء، من خلال الاستثمار في إعداد جيل جديد من القيادات النسائية الشابة. ويتم ذلك عبر إتاحة فرص التدريب المتقدم، والمشاركة في المشاريع الإقليمية، والاستفادة من برامج التوجيه والإرشاد المهني، بما يضمن استدامة التمكين وتعزيزه على المدى الطويل.

ثالثاً: تخصيص عام للمرأة وترسيخ البعد المؤسسي للتمكين

في خطوة تعكس التزاماً استراتيجياً واضحاً، خصصت الإيسيسكو عاماً كاملاً للمرأة، وقد حظي بشرف الرعاية السامية للملك محمد السادس نصره الله كما ترأست صاحبة السمو الملكي الأميرة للا مريم رئيسة الاتحاد الوطني لنساء المغرب حفل ختام عام المرأة والذي تم خلاله تنفيذ سلسلة من البرامج والأنشطة التي ركزت على قضايا المرأة في مجالات التعليم، والثقافة، والعلوم، والصحة، والتمكين الاقتصادي، والمشاركة المجتمعية.

وقد أسهم هذا العام في:

- تسليط الضوء على إنجازات النساء في العالم الإسلامي
- تعزيز الحوار حول التحديات التي تواجه المرأة
- توسيع الشراكات مع المؤسسات الوطنية والدولية المعنية بقضايا المرأة
- إدماج منظور النوع الاجتماعي في السياسات والبرامج

رابعاً: المبادرات الثقافية والإبداعية الداعمة للمرأة

• ملتقى الإيسيسكو للشاعرات

يُعد ملتقى الإيسيسكو للشاعرات من أبرز المبادرات الثقافية التي أطلقتها المنظمة لتمكين المرأة في المجال الإبداعي. وقد وفّر هذا الملتقى فضاءً للحوار الثقافي والتبادل الأدبي بين شاعرات من مختلف الدول، وأسهم في إبراز الصوت النسائي في المشهد الثقافي العربي والإسلامي.

ويمثل هذا الملتقى نموذجاً لتمكين المرأة من خلال الثقافة، وتعزيز الثقة بالذات، وبناء شبكات ثقافية نسائية عابرة للحدود، وترسيخ دور الإبداع في التنمية الإنسانية

خامساً: تمثيل النساء في المؤتمرات والمحافل الدولية

حرصت الإيسيسكو على إتاحة الفرصة للنساء العاملات فيها لتمثيل المؤسسة في عدد كبير من المؤتمرات والمنتديات الدولية، سواء بصفتهن خبيرات أو متحدثات أو منسقات برامج. ويعكس هذا التوجه اعترافاً بكفاءة المرأة المهنية، ودورها المحوري في الدبلوماسية الثقافية والعلمية.

كما يسهم هذا التمثيل في نقل الخبرات الدولية إلى المؤسسة، وتعزيز حضور المرأة المسلمة في الفضاءات الدولية، وتقديم نماذج إيجابية للقيادة النسائية.

> **لم يعد تمكين المرأة شعاراً، بل أصبح ممارسة مؤسسية قائمة على سياسات وبرامج وشراكات فاعلة**

سادساً: الأنشطة الخيرية والمجتمعية

• جمعية عقيلات السفراء العرب نموذجاً

في إطار التزامها بالمسؤولية المجتمعية، قدمت الإيسيسكو دعماً مادياً ولوجستياً لعدد من المبادرات الإنسانية والاجتماعية، منها دعم النساء خلال جائحة كرونا للمساهمة في الحد من انتشار الوباء بتقديم دعم لتوفير وتصنيع المواد الأولية للحماية والرعاية مثل الكمامات الواقية ومواد التعقيم مما ساهم في الحد من انتشار الوباء وخلق فرص دخل مستدامة.

أما عن تعاون المنظمة مع جمعية عقيلات السفراء العرب والمنظمات الدولية، فإنه نموذج يعكس تكامل العمل المؤسسي مع العمل المجتمعي النسائي.

• دعم مبادرة قفة رمضان

أسهمت الإيسيسكو في دعم مبادرة قفة رمضان، التي تهدف إلى مساعدة الأسر المحتاجة خلال شهر رمضان المبارك، بما يعزز قيم التضامن والتكافل الاجتماعي، ويجسد البعد الإنساني لرسالة المؤسسة.

• حملات التوعية بسرطان الثدي

دعمت الإيسيسكو حملات التوعية بسرطان الثدي، في إطار تعزيز الوعي الصحي لدى النساء، والتشجيع على الكشف المبكر والوقاية، من خلال شراكات فاعلة مع الجمعية ومختلف الفاعلين المدنيين.

• الأنشطة الخيرية والمعارض الفنية: «لوحة أمل»

من بين المبادرات البارزة، دعم المعرض الفني «لوحة أمل»، الذي خصص ريعه لمكافحة الهدر المدرسي. وقد جسد هذا المعرض التكامل بين الفن والعمل الخيري، وأبرز دور المرأة في المبادرات الإبداعية ذات الأثر الاجتماعي.

• مبادرة «قفطان الخير - أنامل النور»

كما شاركت الإيسيسكو في دعم نشاط خيري نوعي تمثل في فعالية «قفطان الخير - أنامل النور»، التي نُظمت بحضور وتشريف الأميرة للا لمياء الصلح. وقد خُصص ريع هذه المبادرة لدعم عمليات تصحيح البصر لفائدة المحتاجين، عبر جمعية نور الخيرية

وتعكس هذه المبادرة توظيف الثقافة والتراث، ممثلين في القفطان المغربي، كأداة للتضامن الإنساني، وتبرز الدور الريادي للمرأة في الجمع بين الإبداع والعمل الخيري، بدعم مؤسسي فاعل من الإيسيسكو.

• الملتقى الرمضاني الذي تواصل على مدار ثلاثة أعوام وتم خلاله تنظيم لقاءات روحانية سنوية استقطبت مئات المتابعين والمتابعات سواء بالمتابعة المباشرة وإثراء الحوار بالحضور في

يمثل نموذج الإيسيسكو في تمكين النساء مرجعاً مهماً للمؤسسات الساعية إلى تحقيق التنمية الشاملة والمستدامة

مباني المنظمة أو بالمتابعة عبر وسائل التواصل الاجتماعي والتي سجلت أرقاماً مميزة من حيث التفاعل معها حيث تشكل الدكتورة يسرى الجزائري رئيسة اللجنه الثقافية بجمعية عقيلات السفراء العرب ورؤساء المنظمات الدولية بالمغرب مع فضيلة الدكتورة خديجة أبو زيد ثنائياً مبدعاً استطاع تحقيق النجاح والقبول عبر ثلاثة مواسم من هذه اللقاءات الفكرية التنويرية المتميزة

سابعاً: دعم وتشجيع تعليم النساء والفتيات والحد من الهدر المدرسي:

• يعد مشروع استلحاق الفتيات المتسربات من المدارس في اليمن من أبرز مشاريع الإيسيسكو في هذاالجانب، حيث جاء المشروع تنفيذا للاتفاقية الموقعة بين كل من منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ومركز الملك سلمان للإغاثة والأعمال الإنسانية ووزارة التربية والتعليم بالجمهورية اليمنية ومؤسسة ائتلاف الخير للإغاثة الإنسانية، لتقديم الدعم التربوي وتوفير الوسائل التعليمية اللازمة لإتاحة فرصة تعليمية للفتيات المتسربات من التعليم، حيث تم تجهيز أكثر من 20 مدرسة بالأثاث والتجهيزات المكتبية، إضافة إلى توفيرأكثر من 60 فصلا دراسيا بديلا.

- قامت المنظمة بدعم إنشاء مرافق صحية للفتيات في عدد من الدول الإفريقية والآسيوية، الأمر الذي انعكس إيجابًا على تقليل الهدر المدرسي وتعزيز استمرارية التعليم.
- في مناطق النزاعات، قدمت الإيسيسكو دعمًا للطلاب والطالبات الجامعيين من فلسطين والسودان واليمن، لتمكينهم من استكمال دراستهم الجامعية رغم التحديات.
- اعتمدت الأيسيسكو محو أمية النساء والفتيات ركيزة أساسية في استراتيجية المنظمة حيث تم تنفيذ مشروعات «تمكين النساء في مراكز محو الأمية» بالتعاون مع الوزارات المعنية (مثل النيجر والغابون)، والتي تهدف إلى التأهيل الاقتصادي والاجتماعي عبر مشاريع مدرة للدخل.

ثامناً: الأثر الاستراتيجي لتمكين النساء في الإيسيسكو

أسهمت السياسات والمبادرات التي اعتمدتها الإيسيسكو في تحقيق أثر استراتيجي ملموس، تمثل في:

- تعزيز جودة البرامج والمشاريع
- ترسيخ التنوع في صنع القرار
- تحسين الأداء المؤسسي
- توسيع نطاق الشراكات الدولية
- تعزيز صورة المؤسسة كنموذج تقدمي في تمكين النساء

خاتمة

لا تزعم هذه المقالة الإحاطة بكل ما يخص النساء والفتيات في سياسات الإيسيسكو وبرامجها على مدى سنوات، لكنها إشارات إلى برامج مهمة تعزز اعتقادنا ونحن نرصد شواهد ومؤشرات دعم وتمكين النساء؛ أن الإيسيسكو قد قدمت نموذجاً يحتذى في هذا المجال، وما زالت هناك المزيد من المبادرات والبرامج التي لم نحصها ولم نشر إليها عبر هذه المقالة مكتفين بهذه الأمثلة.

إن نموذج الإيسيسكو في تمكين النساء يبرهن أن التمكين الحقيقي لا يتحقق بالشعارات، بل عبر سياسات مؤسسية واضحة، وبرامج عملية، وشراكات فاعلة، ورؤية استراتيجية بعيدة المدى. فمن خلال دعم القيادة النسائية، وتحقيق التوازن الوظيفي، وبناء القدرات، وإطلاق المبادرات الثقافية، والانخراط في العمل المجتمعي والإنساني، رسخت الإيسيسكو نموذجاً متكاملاً لتمكين النساء داخل المؤسسة وخارجها.

ويمثل هذا النموذج مرجعاً مهماً للمؤسسات الإقليمية والدولية الساعية إلى جعل تمكين المرأة رافعة حقيقية للتنمية الشاملة والمستدامة في العالم الإسلامي وخارجه.

محمية جزر فرسان -السعودية - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

جوامع ومساجد سورية التاريخية

فرادة العمارة وروعة الزخارف الإسلامية

هشام اسماعيل عدرة
كاتب وصحفي
سوريا

مـن المعـروف أن مدينـة بصرى الشـام جنـوب سـوريا هـي أولـى المـدن السـورية التـي فُتِحَـت صلحاً بعـد حصـار وذلـك سـنة 13هـ فـي عهـد الخليفـة أبـي بكـر الصدّيق(رضـي الله عنـه). ثـمّ كانـت معركـة اليرمـوك الشـهيرة التـي قادهـا جيـش المسـلمين بقيـادة أبـي عبيـدة بـن الجـرّاح وخالـد بـن الوليد(رضـي الله عنهمـا). بعـد ذلـك تابعـت الفتوحـات الاسلاميـة للمـدن السـورية. ففتحـت دمشـق عـام 134هـ/ 635م حيـث دخلهـا أبـو عبيـدة بـن الجـراح صلحـاً مـن البـاب الغربي(بـاب الجابية) ودخلهـا خالـد بـن الوليـد مـن الشـرق مـن بـاب شرقـي حربـاً والتقـى الجيشـان فـي الشـارع المسـتقيم. ولتتوالـى فتوحـات المسـلمين للمـدن السـورية كمـدن حمـص وحمـاة وحلـب واللاذقيـة وغيرهـا.

وبعـد الفتوحـات الاسلاميـة بنيـت عشـرات المسـاجد والجوامـع التـي جـاءت بطـرز معماريـة فريـدة تـميّزت بهندسـة بنائهـا وزخارفهـا وأشـكال متنوعـة لمآذنهـا وقببهـا. وكان أول مسـجد بنـي فـي مدينـة بصرى الشـام وهـو المسـجد العمـري ومـن ثـم المسـاجد الأخـرى التـي جـاء فـي مقدّمتهـا المسـجد الأمـوي الشـهير.

في دمشق: 66جامعاً ومسجدًا تاريخيًّا

يمكن القول إن مدينة دمشق هي أولى المدن السورية في عدد المساجد القديمة التاريخية التي تضمها أحياؤها وحاراتها القديمة والتي تعود لعهود إسلامية عديدة حيث شيدت هذه المساجد في العهود الأموية والعباسية والأيوبية والسلجوقية والمملوكية والعثمانية.. ومن المعروف أن أول مسجد بني في دمشق كان(مسجد الصحابة)الذي أقيم في القسم الشرقي من موقع المسجد الأموي الحالي وكان هذا الموقع قبل ذلك عبارة عن معبد مسيحي وهو كنيسة القدّيس يوحنا المعمدان وبعد الفتح الاسلامي قسم هذا المعبد إلى قسمين الشرقي: أقيم عليه مسجد الصحابة وبقي القسم الغربي كنيسة، ومن ثم تم تحويل كامل البناء إلى مسجد حيث قام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بتنفيذ بناء الجامع الأموي الكبير بعد أن عوّض المسيحيين عن كنيستهم، فجاء المسجد الأموي ببنائه الفريد واعتبر مدرسة فنية معمارية هندسية إسلامية بحد ذاته.

> **أول مسجد بني في دمشق كان(مسجد الصحابة)الذي أقيم في القسم الشرقي من موقع المسجد الأموي الحالي**

وإذا كان الجامع الأموي هو أشهر الجوامع التاريخية في دمشق فهناك عشرات المساجد التي تتميز بطرزها المعمارية الجميلة و المكتملة البناء ومنها: (جامع الدرويشية)والذي يقع بجانب سوق الحميدية التراثي الشهير حيث يُعَدُّ أنموذجاً لفن العمارة العثمانية من حيث التخطيط والقواعد المعمارية والفنية، أنشأه درويش باشا بن رستم أحد ولاة دمشق في العهد العثماني سنة 982هـ/1574م كما هو مثبّت في الكتابة التاريخية المنقوشة فوق الباب، ويتميز بناء هذا الجامع بأنّ له صحنًا مستطيل الشكل، تتوسطه بركة حجرية مضلّعة، ويتوضع الرواق جنوب الصحن تتقدمه خمس قناطر محمولة على أعمدة مستديرة ذات تيجان وقواعد مختلفة، وتعلو الرواق خمس قباب صغيرة، وفي الجدار الجنوبي من الرواق محراب مزين بألواح القاشاني، أما الحرم فهو عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة الشكل أبعادها 18*11.5متراً تغطيه سبع قباب مستديرة تقوم القبة الكبرى في الوسط، ويتوسط المحراب الجدار الجنوبي من الحرم ويُعدّ آية في الإبداع الفني وعلى جانبي المحراب إطارات هندسية عريضة من الرخام الأبيض والأسود والمنبر منشأ من المرمر، أهم ما فيه قبّة الخطيب المبنية على أربع دعائم رشيقة يعلو كلًّا منها قوس مدبب تكتنفه زوايا مزخرفة، ويلاحظ أن الزخارف تزيّن الجامع من بابه إلى محرابه بأشكال وأنواع عديدة، أما مئذنته فقد شيّدت فوق المدخل بقاعدة ذات شكل مربع، ثم يتحول إلى مثمن ينتهي بشرفة مقرنصة، مع مظلة مخروطية من الرصاص.

وعلى مسافة ليست بعيدة عن جامع الدرويشية وفي الجهة المقابلة له في باب الجابية يقع(جامع السنانية) وهو من أجمل الجوامع المتبقية من العهد العثماني، شيّد سنة 999هـ/1590م، يتألف من مئذنة وحرم وصحن وأروقة، وكل شيء في بناء الجامع رائع ومزوّد بألواح القاشاني، فالمنبر من المرمر الأبيض المحفور والمحراب مؤلف من قطع المرمر المتعددة الألوان الدقيقة الصنع، وتعلو المحراب لوحة مستطيلة من القاشاني الأزرق عليها آيات قرآنية. أما مئذنة الجامع فهي مستديرة مبنية بالحجارة تكسوها طبقة من الآجر المطلي بطبقة من القاشاني الأخضر(الخزف الزنجاري)تفصل بينها ثلاثة خطوط من القاشاني الملوّن بالأزرق، وتعلو جذع المئذنة مقرنصات بسيطة جميلة، ثم يليها تاج المئذنة، ولا يوجد في سوريا ما يماثل هذه المئذنة من حيث الطبقة القاشانية التي تكسو سطح جذعها الخارجي.

ولعلّ من أجمل وأورع جوامع دمشق التاريخية هناك(جامع الشيخ محي الدين)والذي بني في بداية الفترة العثمانية في حي الصالحية القديم على سفوح جبل قاسيون.. ويوجد مدخلان للجامع الجنوبي والمدخل الرئيسي حيث يتم الدخول من تحت مئذنة الجامع وهي نادرة معمارياً في مساجد العالم الإسلامي وفريدة من حيث عمارتها حيث أشيدت على القوس مباشرة والجامع من خلال عمارته التاريخية يضم أربعة فنون معمارية اجتمعت به وهي(الأيوبي والسلجوقي والعثماني والفن العربي الإسلامي)ولذلك فهو أيضًا محط أنظار السياح من خلال تميزه المعماري وخاصة مئذنته الشهيرة والغرفة الخاصة لإقامة الصلاة وهي نادرة جدًا حيث أشيدت لتقام فيه الصلاة من قبل المؤذن وليؤذن من خلالها ومن أقسام الجامع هناك الصحن وعلى اليمين منه هناك المكتبة التي أسسها الشيخ محمد سكر وهو من سكان حي الصالحية ورجل صالح وأصبحت مكتبة شهيرة بكتبها القيمة وهناك على اليسار مصلى للنساء ومن ثم المقام وفيه قبر الشيخ محي الدين وأولاده سعد الدين وعماد الدين. وفي صدر الجامع هناك الحرم وهو المصلى الرئيسُ ومن قلب الحرم يوجد باب ينزل منه للمدخل الجنوبي للجامع وفيه قبو وصحن والقبو يستخدم في شهر رمضان لصلاة التراويح على المذهب الحنفي كما يستخدم لإعطاء الدروس الدينية وتحفيظ القرآن الكريم ويستعمل للاحتفالات الدينية. أما قبة الجامع فهي ملبسة بالرصاص ومطلية باللون الأخضر.

أما جوامع العهد الأيوبي فهي عديدة ويتموضع العديد منها في منطقة الصالحية خارج أسوار مدينة دمشق القديمة ومنها(جامع الحنابلة)ولكن أبرزها وأكملها(جامع التوبة)ويعدّ المسجد الأهم الثاني في دمشق بعد المسجد الأموي ويتوضع في منطقة العقيبة بحي ساروجة بدمشق القديمة والذي يعتبر من أكبر وأجمل جوامع دمشق التاريخية وبني في العهد الأيوبي على نسق المسجد الأموي وقد بني في عهد الملك موسى العادل أبي بكر سنة 632هـ/ 1234م.

أما جوامع العهد المملوكي والتي تتميز بفنون معمارية جميلة حيث تظهر عليها الفنون المملوكية واضحة ومنها: يلبغا القلعي - الشيخ رسلان - الجوزة - السنجقدار ومن أبرزها وأكملها هناك(الجامع المعلّق) في منطقة العمارة والذي يتميز بارتفاعه عن الأرض ببضع درجات فسميّ بالمعلق كما يتميز بطراز معماري خارجي جميل وهو ما يطلق عليه(الأبلق)حيث تتناوب الحجارة البيضاء مع السوداء بشكل هندسي جميل.

جوامع مدينة حمص

في المنطقة الوسطى من سوريا تتوضع مدينة حمص ثالث أكبر المدن السورية بعد دمشق وحلب والتي يطلق عليها مدينة ابن الوليد نسبة إلى الصحابي والقائد الاسلامي(خالد بن الوليد) رضي الله عنه والذي أحبّ مدينة حمص وسكنها أواخر أيامه وتوفي فيها ودفن في تربتها حيث شيد جامع شهير بجانب قبره ويعدّ من أجمل وأكمل المساجد السورية حيث كان أول من بناه الظاهر بيبرس سنة 944هـ. أما بناء الجامع الحالي فهو ذو طراز عثماني يتميز بقببه المعدنية الضخمة وبمئذنتيه الباسقتين وبالأروقة النحيفة المبنية بالحجارة السوداء والبيضاء المتناوبة

في صفوف أفقية وقد بناه والي دمشق العثماني(ناظم باشا) في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وجعله على نسق جوامع استانبول وانتهى من بنائه سنة 1912م. وللجامع حرم مربع الشكل تقريباً(30.5*30.5متر)وفوقه قبّة قطرها 12متراً وترتفع إلى 30متراً وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب وصحن الجامع واسع وأبعاده(36*47متراً)

ومن جوامع حمص التاريخية الكبيرة والمكتملة البناء هناك(الجامع النوري الكبير)الذي يعود للقرن الثاني عشر الميلادي وهو ذو مدخ جميل متميز وقد بناه(نور الدين زنكي) وهناك جامع(الأربعين).

جوامع مدينة حلب وأهمها الجامع الأموي الكبير

تضم مدينة حلب شمال البلاد وثاني أكبر المدن السورية عددًا كبيراً من الجوامع التاريخية حيث تأتي في المرتبة الثانية بعد دمشق. ومن أشهر جوامعها وأكبرها وأقدمها هناك(الجامع الأموي الكبير)والذي يتوضع في المدينة القديمة وكان الجامع أيام الروم بستاناً للحلوية، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع الجامع، وكان في أول أمره يضاهي جامع دمشق الأموي في الزخرفة والفسيفساء وفنون العمارة، حيث بُني على نسق جامع دمشق، ويقال إن (سليمان بن عبد الملك)هو الذي بناه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق، وقد وصف الجامع عدد من الرحالة ومنهم(ابن جبير)واصفاً إيّاه في رحلته:(وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها)وهو ذو شكل مستطيل يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب(105 أمتار) وعرضه(75.77)متراً من الجنوب إلى الشمال وللجامع أربعة أبواب الباب الجنوبي(النحاسين)والشرقي(باب الطيبية)والشمالي(باب الجراكسة) والغربي(باب المسامرية)أما الساحة الداخلية للجامع فهي مبلطة بالأحجار الصفراء والسوداء المصقولة والمتناوبة مع الحجر المرمري الأبيض والسماقي وتنتصف في جهاته الشمالية والشرقية والغربية ثلاثة أروقة محمولة على دعائم حجرية ضخمة ويضم صحن الجامع حوضاً سداسي الشكل للوضوء تحته قبة ارتفعت على أعمدة رخامية صفراء. وإلى الطرف الجنوبي سبيل ماء مع بحرة متصلة به بقبة مخروطية من صفائح الرصاص على أعمدة مضلعة كذلك يضم الصحن مصطبة حجرية ترتفع إلى نحو المتر بطول يقارب الخمسة أمتار وبعرض (3,5 أمتار) وفي الصحن مزولة لحساب أوقات الصلاة ظهراً و عصراً صنعها فنان حلبي عام 1300 ه تغطيها طاسة نحاسية. أما مئذنة الجامع فهي مربعة الشكل جدد بناؤها في العصر السلجوقي عام 1089م وتعتبر من روائع العمارة الاسلامية حيث يبلغ ارتفاعها 46 متراً ويصعد إليها ب- 174

درجة و عليها كتابات لخطين الكوفي المورق و الثلثي المزخرف و يبلغ ضلع المئذنة حوالي(5 أمتار). كما يتميز مصلى الجامع الكبير بكثرة عدد أبوابه التي تصل لخمسين باباً تطل على الصحن وهناك أيضاً الأقواس المعمارية الجميلة و الزخارف المميزة للجامع.

ومن جوامع حلب التاريخية هناك(جامع القلعة)والذي يتوضع ضمن منشآت قلعة حلب الشهيرة وكان قد بناه نور الدين زنكي وفيه محراب خشبي نادر يعود للعهد الأيوبي حيث صنع سنة 643هـ . ومن جوامع حلب في العهد الأيوبي هناك: الدباغة - الكريمية أما جوامعها في العهد المملوكي فهي كثيرة ومنها:

الأطروش - الطواشي - الفستق - المهمدار - العمري - السكاكيني - القصيلة - الباب الأحمر - الموازيني - الشيخ سعد وغيرها.

جوامع مدينة حماة التاريخية

من جوامع مدينة حماة التاريخية المجاورة لمدينة حمص وسط سوريا ورابع أكبر المدن السورية

هناك(الجامع النوري)الذي بناه نور الدين زنكي عام 558هـ/ 1162م، ويقع في بقعة غنية بالمباني الأثرية من قصور وحمامات ونواعير كما يجري نهر العاصي من تحته فيزيد في جمال موقعه، ويضم الجامع منبراً خشبياً رائع الجمال وتعدّ هذا الجامع من أجمل الجوامع التاريخية في سوريا حيث يشكل جزيرة وسط نهر العاصي.

وفي حماة هناك أيضاً(جامع أبي الفداء)الذي بناه ملك حماة عماد الدين اسماعيل أبو الفداء سنة 726هـ/1325م وتزدان قبّة محرابه بالفسيفساء الرخامية والصدفية، كما يتوسط النافذتين الشرقيتين في حرم الجامع عمود رخامي على شكل ضفيرة تشبه الحيّات الملتفة، ولذلك تسميه العامة(جامع الحيّات)

> **تضم مدينة حلب ثاني أكبر المدن السورية عددًا كبيراً من الجوامع التاريخية حيث تأتي في المرتبة الثانية بعد دمشق**

وهناك أيضاً(الجامع الكبير)وهو جامع قديم أجريت فيه أعمال بناء في العهد المملوكي شملت المئذنة الشمالية والمنبر وعضائد الحرم، وهناك (جامع الحسنين والشرقي والعبيسي).

جوامع الساحل السوري

في مدينة اللاذقية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، يوجد أقدم جامع في ساحل بلاد الشام وهو(الجامع الكبير المنصوري)وكان كنيسة قديمة من عهد ملوك الروم البيزنطيين حولها المسلمون إلى جامع بعد فتح مدينة اللاذقية سنة 638م. وهناك(الجامع الكبير)المعروف باسم الجامع الظاهري وقد بناه الملك الظاهر غازي الابن الثالث لصلاح الدين الأيوبي، وهناك(جامع الريس التونسي) ويقع ضمن حرم مرفأ المدينة البحري وبني عام 1748م وترتفع مئذنته عن الأرض حيث يمكن المرور تحت بنائها. وهناك(جامع المغربي) ويطل على مدينة اللاذقية من موقع عالٍ، و(جامع البطرني)والذي يُنسب إلى أبي علي البطرني الذي حارب الفرنج وكان قائداً بحرياً عند الظاهر بيبرس، وهناك جوامع تاريخية مكتملة البناء في اللاذقية ومنها:(الأقساطي - الجديد - البازار - العوينة).

أما في مدينة(جبلة)الساحلية السورية المجاورة للاذقية فتضم أحد أهم وأكمل جوامع الساحل السوري القديمة وهو(جامع السلطان ابراهيم) والجامع وحسب كتابات فيه يعود بنائه إلى عام 1095م ورمم بشكل كبير في عام 1350م يتميز باتساعه وببنائه المستطيل الشكل وبمئذنته البديعة وبعدد من القبب الرائعة كما له أوقاف شاسعة تبلغ حوالي 8500هكتار،و يتألف من حرم للصلاة وصحن ويتم الدخول إلى حرمه عبر بوابتين وهناك الصحن الذي يضم بركة مياه من الحجر الكلسي مربعة الشكل فرشت أرضيتها بأشكال هندسية من الألوان الحجرية تتوسطها نافورة مياه. وهناك(الجامع المنصوري).

وفي محافظة طرطوس الساحلية هناك(مسجد القدموس) التاريخي وهو مؤلف من ثلاثة أروقة، وذو سقف عقدي، وترتفع مئذنته عشرين متراً وفيه محراب قديم، أما البوابة الرئيسية له فقد كتب عليها:(أمر ببناء هذا الجامع جمال الدين..)إلاّ أنّ بقية الكتابة مبهمة وغير واضحة بسبب تأثرها بالعوامل المناخية، وعلى جدار المسجد صخرة نُحِتَتْ عليها هذه الكتابة:(بسم الله الرحمن الرحيم.. أمر بتجديد هذا الجامع المبارك المولي نجم الدين بن شمس الدين أعزّ الله نصره)وعلى عتبة بابه الرئيسة آية قرآنية.

الجامع الكبير في معرة النعمان وجوامع أخرى.

في مدينة(معرّة النعمان)شمال سوريا يقع(الجامع التاريخي الكبير)وهو من أجمل الجوامع السورية القديمة ويتميز بمئذنته الأيوبية الطراز، وقد بني سنة 595هـ/1198م، وهناك(مسجد النبي يوشع)في مدينة معرة النعمان وقد تم تجديده في العهد الأيوبي.

من جوامع سوريا التاريخية الأخرى والمكتملة البناء هناك:(جامع مدينة الرقة)والمتميز بمئذنته المبنية من الحجر الفخاري وهناك(جامع قلعة جعبر)القريب من مدينة الرقة والمماثل لجامعها من حيث الطراز المعماري - وهناك جوامع أخرى مثل جامع(أريحا الكبير) وجامع تادف وجامع المحاريب السبعة(الامام إسماعيل)في مدينة سلمية وسط سوريا، وغيرها.

المراجع والمصادر

1. كتاب(العمارة العربية الإسلامية في سوريا)- عبد القادر ريحاوي - وزارة الثقافة السورية دمشق 1979م.
2. كتاب(دمشق تاريخ وصور)- قتيبة الشهابي - وزارة الثقافة السورية دمشق 1984م
3. كتاب(الآثار الإسلامية في حلب)- محمد طلس - 1951م.
4. كتاب(لاذقية العرب)- مجموعة من الباحثين - دار حطين للنشر دمشق 1993م.
5. جولات قام بها الكاتب في المدن السورية وفي جوامعها التاريخية.

حوار وترجمة :
د. محمد الداهي
جامعة محمد الخامس
المغرب

حوار مع الباحثة الفرنسية إيزابيل غريل*

تخوم التخييل الذاتيّ

نحت سيرج دوبروفسكي مفهوم «التخييل الذاتي» سنة 1977 حرصًا منه على تصنيف مُؤلَّفه«Fils» الذي كان- بحكم خِلْقته وتكوينه- يَنِدُّ عن الأجناس المتعارف عليها، وسعيًا إلى ملء الخانة التي ظلت شاغرة في «الجدول الشهير» لفيليب لوجون (1975) بدعوى عدم وجود أمثلة تناسبه آنئذ. ما فتئ مفهوم «التخييل الذاتي» منذ هذا التاريخ إلى الآن يثير زوبعة من الآراء المتناقضة لإقحامه في سياقات شتى قد لا تلائم طبيعته ولا توافقها من جهة، ولاختلاف النقاد والباحثين في تحديد هويته وتبيُّن خصائصه بالنظر إلى المعنيَين الحصريّ والعامّ، من جهة ثانية.

ارتأيتُ أن أجري حوارًا مع الباحثة إلزابيت غريلIsabelle Grell المختصة في المجال عينه بالنظر إلى احتكاكها وتفاعلها مع باحثين بارزين؛ وفي مقدمتهم سيرج دوبروفسكي، ومواكبة إصداراتهم ونقاشاتهم بإدارة «فريق بحث» يعنى بتكوُّن التخييل الذاتي، وإصدار كتاب حول «التخييل الذاتي» (2014) يستوعب المقارباتِ المختلفةَ والتياراتِ المتباينةَ التي قاربته بالسعي إلى إثبات جدارته في المشهد الثقافي، وحَفْزِ المؤسسة الأدبية إلى الاعتراف والعناية به.

لم يكتف الحوار بإثارة النقاش حول المفهوم من زوايا متعددة، بل سعى إلى تعرُّف مواقف إلزابيت غريل من منزلته، وبيان الجهود التي بذلتها من أجل رصد تَكَوُّنِ أحد المصادر الأساسية في التخييل الذاتي، والعمل على إصدار مسوداته ومخطوطاته على مراحل («الوحش»، ثم «السيد الحالة»، ثم «الابن/ الخيوط»).

1-ألفيتِ كتابكِ حول «التخييل الذاتي» لبيان تعدد معانيه، والجدال الذي ما فتئ يثار حوله. لِمَ أضحى المفهوم فضفاضًا بإثارة زوبعة من النزاعات الثقافية والاجتماعية؟

أعتذر عن عدم الرد على أسئلتك منذ مدة لبواعثَ والتزاماتٍ كثيرةٍ. وأود أن أشكر لك إحالتك إلى كتابي عن «التخييل الذاتي» الذي صدر سنة 2014. مرَّ على صدوره ما يزيد على عقد من الزمن. ألفته استجابة لطلب الناشر قصد توجيه الطلبة إلى الانعطافات الجامعية التي رافقت المفهوم منذ أن ابتكره سيرج دوبروفسكي بإثباته على ظهر روايته الشهيرة الموسومة بـ(Fils) [يصعب ترجمة اللفظ باللغة العربية لأنه عبارة عن جناس بتشابه اللفظين في النطق والإملاء (Fils/Fils) واختلافهما في المعنى(الخيوط/ الابن)]. أوافقك تمامًا على أن المفهوم أثار نقاشًا حادًّا في المجالات الفنية جميعها ؛ ومن ضمنها الأدب، والسينما، والتشكيل، والمسرح، والصورة. لا أزعم الآن بأنه «ما فتئ فضفاضًا»، لأن النزاعات فترت وانحسرت بصدور مؤلفات لكل من كرستين أنجو، وكاترين ميلي، وكلير لوجوندر وآخرين.

توجد على الأقل مدرستان متخصصتان في مقاربة المفهوم. كل باحث يجد ضالته في المدرسة التي تناسبه. المدرسة الدوبُروفسكيَّة (نسبة إلى سيرج دوبروفسكيSerge Doubrovsky) التي تقرُّ بحمل الشخصيةِ والسارد اسمَ المؤلفِ عينِهِ وبسرد الرواية وقائعَ حقيقية، يُعادُ تمثيلُها أسلوبيًّا وامتثالًا أحيانًا لبواعثَ مشروعة، بل واقعية. إن التخييل الذاتيّ هو الأسلوب. بالمقابل توجد المدرسة التي تقترن باسم فانصون كولونا Vincent Colonna،

وتدافع عن اندفانِ المفهوم في طبقات عديدة. التخييل الذاتي -بالنسبة لفانصون كولونا- هو اختلاق الكاتب حياة له. ومن ثم يتضح أنه تبنّى تعريفًا مخالفًا لسيرج دوبروفسكي؛ ما أهّله إلى عدّ «الكوميديا الإلهية» لأليغييري دانتي تخييلًا ذاتيًّا. يستحسن أن يعود القارئ إلى المراجع المذكورة آنفًا لتعرُّف مستويات الكتابات التخييلية التي تكون في مجملها إخبارية من وجهة نظر التلقّي.

2- ذكرتم في مؤلفكم أننا نجد في مقدمة العوامل التي أسهمت في ظهور التخييلِ الذاتيّ التحليلَ النفسيَّ، والسوريالية، وما بعد البنيوية. كيف أثّر كل عامل من هذه العوامل في بلورة المفهوم؟

منذ أن أصبحت للاشعور سلطةٌ على الأنا (أي منذ سيجموند فرويد)، بدأ هذا الأخير يتملص من نفسه، ويتفكك، بسبب تمازج الخيال والحقيقة في الذاكرة. وهو ما ترتبت عليه أزمة الذات التي أفضت إلى تجارب مختلفة في تزامن مع تحكم البنيوية في نقيضها (السوريالية). في الأصل عُدَّ التخييلُ الذاتيُّ سيرةً ذاتيةً مصوغةً من جديد وفق معاييرِ التحليل النفسي، ومُسْتَنْبِعةً أن كل صورة عن الذات ما هي إلا بناءٌ تخييليٌّ يقتضي منا فهم بواعث الوجود. «التخييل الذاتيُّ هو التخييل الذي قررتُ بكوني كاتبًا أن أعطيَه عن نفسي، مدمجًا فيه (بالمعنى التام للكلمة) تجربة التحليل ليس على المستوى الموضوعاتيّ فحسب، بل على مستوى إنتاج النصّ أيضا»(1).

تفاعلت السوريالية -قبل التخييل الذاتيّ- مع تجربة انفجار الأنا في العالم سواء أكانت سياسية (الماركسية في مواجهة النازية والرجعية) أم نفسية. أضحت الوظيفة المرجعية لمنطق اللغة أكثر احتلامًا، وأقل محاكاةً، وأكثر إزعاجًا ،وانزعاجًا. إن السوريالية -بحسب أندريه بروطون الذي يصر أن نكتب «لا على الواقع ولا على الخيال، بل على الواقع المعكوس»(2)- هي وسيلة ليتحرر العقل بطريقة شاملة. استحوذت السوريالية على كل المواضيع بصرف النظر عن المُحرمَّات الأخلاقية أو الدينية أو الجنسية. إن هدفها الأسمى هو الرقيُّ بالوضع البشريّ بفضل الفن، متقدمة بذلك على ما سيصرح به سيرج دوبروفسكي فيما بعد: «نكتب حياتنا (لذواتنا) لنجعل منها حياة بإشراك الآخرين(3). إن الكتابة عن الذات هي دومًا متعهدة بالزمن، ومنصهرة فيه، وهي -في الحين نفسه- جغرافيا ومجتمع و«وضعية».

> **توجد مدرستان متخصصتان في مقاربة مفهوم التخييل الذاتي، المدرسة التي تقترن باسم إلى سيرج دوبروفسكيSerge Doubrovsky والمدرسة التي تقترن باسم فانصون كولونا Vincent Colonna**

نميز عادة بين البنيوية والعودة إلى الذات. لكن يوجد بينهما استمرار وتواطؤ لمقاومة التعلق الشديد بالتخييل الخالص للسرد والهوس بالحبكة. إن الكتابة التخييلية الذاتية التي تعكس (بالمعنى المرآتي) الكتابة، تندرج حسيًّا في إطار الكتابات التجريبية (السوريالية، البنيوية، الرواية الجديدة). وإذا كانت البنيوية قد شيدت شهرتها باستبعاد الذات، فهي لم تَتَعامَ عن الدينامية الجديدة للكتابة السيرذاتية التي شهدتها مع بداية السبعينيّات من الألفية الثانية: بارث -الذي سبق له أن كتب سنة 1967 مقالا عن «موت الكاتب»- نشر سنة 1975 مؤلفًا معنونًا بـ» رولان بارث بقلم رولان بارث» للنظر إلى الهوية بكونها دورًا يؤديه ويؤوله الإنسان نفسه. سبق لميشيل فوكو أن تساءل في مقال له عن هوية الكاتب (مَنِ الكاتب؟) لكنه صرح فيما بعد أن كتبه النظرية ما هي إلا «شذرات سيرذاتية».

2- ألا توجد عوامل أخرى أسهمت من جهتها في تكريس مفهوم»التخييل الذاتيّ»؟

الجامعيون أنفسهم باستحضار قول رولان بارث: «الأدب هو ما يُدرَّسُ. هذا هو كل ما في الأمر». كان من الطبيعيّ أن يتلاشى المفهوم إذا لم تُنتِجِ الجامعةُ نخبةً من الأساتذة الفرنسيين المرموقين ؛ ومن جملتهم نذكر على سبيل المثال فيليب لوجون، وجاك لوكارم، وأنطوان كومبانيون، وماري داريوسيك، وفانصون كولونا وجان-فرنسو شيانتاريطو ،من غير إغفال ما نظمته الإنتلجنسيا من ندوات حول المفهوم نفسه في المحافل العريقة مثل المدرسة العليا للأساتذة، وجامعة السوربون، والمركز الثقافيّ العالميّ سوريزي-لا-صال. كان العالم في أمس الحاجة إلى هذا المفهوم، لأنه تعرض إلى انفجار. لا نغفل أيضًا أثر الإعلام (التلفزة، والصحافة، والمجلات) في هذا السياق، وكذا عدد الندوات التي نُظمتْ لإضاءة المفهوم من جوانب متعددة، وترويجه على نطاق واسع، وعدد المقالات التي عالجته؛ ومن ضمنها أكثر من ستين مقالًا عن رواية «الكتاب المُحطَّم» الذي أحرز به سيرج دوبروفسكي جائزة «مديسيسMédicis». علاوة على عدد الأطاريح التي نوقشت ابتداءً من عام 1989 حول الكتّاب الذين يسائلون كتاباتهم (الميتاتخييل)؛ ما أدى -بمرور الوقت- إلى تضاعف عدد مؤلفات النقد والنقد الذاتيّ.

ظل سيرج دوبروفسكي ،ما بين عامي 1977 و 2014 وفيًّا لنشاطه من حيث هو مثقف مشغول بما يسميه «صداع الرأس» لمعاودة النظر في تصوره للتخييل الذاتيّ. صرح سنة 1982 إبان صدور روايته «حب الذات» بما يلي: «أكتب روايتي وليس سيرة ذاتية. إنها أرض قنص محروسة، ونادٍ خاصٌّ للسادة المشهورين. إذا أردت أن يكون لك الحق في ولوجه، عليك أن تكون شخصية

1 - Doubrovsky .S ,« psychanalyse/vérité/Autobiographie » ,créateur, Esprit'L .XX, N°3, 1980, p. 77.

2 - Breton, André, Second Manifeste du surréalisme, in Œuvres Complètes, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 3 vol, t. 1, 1988, p. 812.

3 - Doubrovsky .S ,« fini est'C » ,Forest Philippe in ,« Moi & Je » ,*Revue Nouvelle La française* ,*(octobre2011)*, p. 29 n°598.

معروفة مثل نجم مسرحيّ أو سينمائيّ أو جان-جاك روسو. أنا مجرد شخص في بيت مُستأجر من غرفتين. أعيش بالكاد، أنا شخصية خيالية. أكتب تخييليَ الذاتيّ»[4]، ونقرأ أيضًا في رواية «الحياة اللحظة» 1985 ما يلي: «إن تخييلي لا يمثل أبدًا رواية. أتخيل وجودي»[5]. إن التخييل الذاتيّ- لدى سيرج دوبروفسكي هو -في الحقيقة- أقلُّ غنًى من الواقع. يدمج الكاتب التخييل في عمله ويضمره. أعاد -في آخر المطاف- الاعتبار للسيرة الذاتية. «أعتقد أن التخييل الذاتيّ والسيرة الذاتية هما -في نهاية الأمر- شكلان من الرواية لكن كل واحد منهما مسرود على طراز القرن التاسع عشر باعتماد ضمير المتكلم والتتابع الزمنيّ (نموذج جان-جاك روسو)، وعلى طراز القرن العشرين بتفكك السرد وفُرجاته وقطائعه. إنه المشروع نفسه لاستجماع شتات الحياة في لغة عصر آخر. سعيت بذلك إلى التمييز بين الأجناس. ولذلك انخرطت في المعركة الدائرة حول ما يميز بين السيرة الذاتية والتخييل الذاتيّ. أخلص الآن إلى أن ما أنجزته يندرج في إطار مشكل التاريخ. لا يمكن لنا أن نكتب الآن كما هو الحال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. يظل المشروع هو نفسه: استعادة الحياة، وسردها لا بالطريقة نفسها»[6]. احتفظ سيرج دوبروفسكي بهذا التعريف للتخييل الذاتيّ: «هو السرد الذي تكون طريقته سيرذاتية بالتمام، وطريقته تخييلية بالتمام»[7].

3- تتكون رواية « الوحش» من 2599 صفحة. لم يغامر أي ناشر بنشرها لبواعث تجارية. لكنه نشر في آخر المطاف بفضل مبادرتك وجهدك. ارتأت دار النشر «غراسي» أن تنشر هذه المسودة أو المخطوطة التي حافظت على استراتجيات التخييل الذاتيّ وأسراره.

أ-ما الفروق والتشابهات بين المسودة الأصلية «الوحش» والرواية المختزلة في 450 صفحة، المنشورة بعنوان «الابن/الخيوط» سنة 1977؟

نميز عادة بين البنيوية والعودة إلى الذات. لكن يوجد بينهما استمرار وتواطؤ لمقاومة التعلق الشديد بالتخييل الخالص للسرد والهوس بالحبكة

حُذفتْ كثيرٌ من الأوراق على ثلاث مراحل. قررت دار النشر «غراسي» نشر العمل، لكن طلب من صاحبه أن يقلص حجمه. استجاب لطلب الناشر، لكنْ حالَ الحجم مرة أخرى دون نشره. اضطر سيرج دوبروفسكي وقتئذ إلى تكليف صديقه جان باريس (Pa- Jean ris) لأداء المهمة المطلوبة. ماذا حُذف؟ ذكرياتُ الطفولة، وأيامُ الحرب، وتلقّى سيرج دوبروفسكي مساعدة من صديق عندما أجبر على الانقطاع عن متابعة الدراسة بالثانوية بسبب تداعيات الحرب العالمية الثانية، وما جرى من مناقشات بين سيرج وثلة من زملائه ولا سيما زميليه جون ريكاردو وتزفيتان تودوروف، وقصص الحب والأهواء العابرة. فضلًا عن ذلك استُغني أيضًا عن علاقة سيرج بوالده، وبعائلته اليهودية، واضطراره -برفقة الأهل والأحباب- إلى التخفي عن الأنظار حفاظًا على أرواحهم من جهة، وحرصًا على التخفف من وطأة الخوف والقلق اللذين خيما على أجواء الحرب آنئذ، من جهة أخرى.

ب- لِمَ اضْطُرَّ سيرج دوبروفسكي إلى تغيير العنوان الأصليّ الذي يوحي في النسختين معًا إلى صنف من الحيوانات الغريبة (رأس التمساح وجسد السلحفاة) التي تظهر بين الفينة والأخرى في بحر النورماندي؟

يبدو أن الموضوع لم يبق هو الوحش بتقلُّص عددِ الصفحات. أسعف التحليل النفسيُّ سيرج الذي كان يخضع لحصصه بانتظام على استبعاد الوحش من اهتماماته، والاستغناء عن كثير

4 - S. Doubrovsky, *De fils en fils. Un soi*, Hachette, 1982, rééd. Gallimard, coll. « Folio », 2001, p. 104 *sq*.

5 - S. Doubrovsky, *La vie l'instant*, Balland, 1985, p. 36.

6 - S. Doubrovsky, *Le Monstre, (*tapuscrit originel inédit-Préface d'Isabelle Grell), Grasset,2014.

7 - S. Doubrovsky, « Entretien avec Philipe Forest (dir), *Je Moi, La NRF, op.cit.*, pp. 21-30, p. 24 *&*.

مـن الأجـزاء ذات صلـة بالحلـم الـذي كان يسـتولي عليـه بخصـوص التمساح والسلحفاة. من جهة أخرى، أشير إلى أن سيرج اختار عنوانًا آخر (الابن/ الخيوط) فـضلًا عـن عنـوان «السيد الحالة» بالإحالـة إلى سـيجموند فرويـد وفرانـز كافـكا.

4- معروف عنكِ أنك متخصصة في أعمال جان-بول ساتر. ما البواعث التي حفزتك على تغيير الوجهة نحو أعمال سيرج دوبروفسكي؟

ليكُنْ فـي علمـك صديقـي العزيـز أن سيرج دوبروفسـكي سـبق لـه أن دخـل فـي حـوار مـع جان-بـول سـارتر بفضـل مقـال جـريء عـن «سـبعة قلـوب مـن ورق» فـي روايـة «الغثيـان». كان سـارتر يعُـدُّه «ابنًـا» لـه، وهـو مـا صـارح بـه ميشـيل كونتـا. ظـل سيرج سـارتريًّا إلى الأبـد لأنـه لمـس فـي أسـتاذه الروحـيّ رفعـةَ الحـسّ وقـوةَ الـذكاءِ فـي فهـم النصـوص وتأويلهـا.

عندما اطلعت على نسخة «الابن/ الخيـوط» فـي إطـار تخصصي في النقـد التكوينـيّ (الاشـتغال على مخطوطـات الكُتّـاب ومسـوداتهم)، لاحظـت أن فُرُجـاتٍ وثقوبًـا كـثيرةً تتخللهـا. طلبـت مـن سيرج أن يمدني بالنسـخ التـي لديـه. اسـتجاب مشـكورًا لطلبي، فحملـت على متن سـيارتي («كليـو» الحمـراء) عشـرين علبـة مـن المُسـوَّدات التـي تسـتوعب المراحـل الـثلاث.

6- لِمَ تناولتِ التخييل الذاتيّ في العالم العربيّ باقتضابٍ رغم تنوعه وغناه، مع العلم أنه سبق لي أن وزعتُ عليكم -في الندوة التي نُظمتْ في سيروزي-لا -صال سنة 2012 حول «تخوم التخييل الذاتي»- قائمة بأهم المؤلفات العربية التي تستوعب شروط التخييل الذاتيّ بالمعنى الحصريّ؟

أتأسـف إن خيبـتُ ظنـك. لـم أتوسـع فـي الموضـوع رغـم أهميتـه لأننـي لا أتوفـر على المعلومـات المناسبة، ولـن يتاح لـي ذلـك .. هذا أمـر طبيعـيّ. مـا يسـعدني أننـا نتبـادل وجهـات نظرنـا حـول الموضـوع نفسـه مـن زوايـا وجغرافيـات متعـددة، وقـد أتاحـت لنـا نـدوة سيروزي-لا-صـال التـي التقينـا فيهـا فُرصـةَ توسـيعِ آفـاق قراءتنـا وتبـادل الـخبرات بيننـا. وفـي السـياق نفسـه، نظمـت برفقـة جـون-ميشـيل دوفـزا نـدوة فـي موضـوع «كتابـة (الأنـا) فـي لغـة المنفـى» سـنة 2019، ونشـرت الأعمـال بالعنـوان نفسـه سـنة 2020. وكمـا تعلـم نظمـت نـدوة بصحبـة صديقنـا المشـترك أرنـو جونـو Arnaud Genon فـي موضـوع «تخـوم التخييـل الذاتـيّ، الرهانـات الجغرافيـة والفنيـة والسياسـية»، ونشـرت الأعمـال فـي كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه سـنة 2016. وأنـت طبعًـا مـن ضمـن المسـاهمين بدراسـتك الموسـومة بـ «التخييـل الذاتـيّ فـي الأدب العربـيّ».

7- ما طبيعة العلاقة بين التخييل الذاتيّ وعصر الشكّ؟

سـبق لنتالـي سـاروت Sarraute Natalie أن نحتـت عبـارة «عصر الشـكّ» سـنة 1956 لتعنـيَ بهـا أزمـة الثقـة فـي الأشـكال السرديـة التقليديـة الواقعيـة. يمـس هـذا الشـكُّ علـمَ النفـس التقليـديّ للشـخصيات، وتماسُـكَ الحبـكات، وشـفافيةَ السرد. ينبغـي للكُتّـاب، تبعًـا لسـاروت، أن يشـككوا فـي هـذه المواضعـات لتكويـن ذاتيـة أكثر أصالـة وحركيـة، وتَشـظيًّا أحيانًـا. إن التخييـل الذاتـيّ -وفـق سيرج دوبروفسـكي عـام 1977- يـندرج فـي هـذا النطـاق النقـديّ، بدعـوى أنـه يعيـد النظـر فـي التقسـيم السرديّ الكلاسـيكيّ (التخييـل فـي مقابـل السـيرة الذاتيـة) بالخلـط بين الحـدود التـي تفصـل بين الواقـع المعيـش والإبـداع الأدبـيّ. يظهـر الكاتـب فـي المشـهد باسـمه الشـخصيّ مطالبًـا فـي الوقـت نفسـه بحريـة تخييليـة أوسـع. ترتبـط هـذه البـادرة بالتشـكيك فـي الحقيقـة الثابتـة للسـيرة الذاتيـة، هـذا وإن «عصـر الشـكّ» يشـكك أيضًـا فـي التمثيـل الأمين للطَّويّـة.

علاوة على ذلـك، تَسـتبعِدُ المقاربتـان معًـا فكـرةَ الـذات المُتَحَكَّـم فيهـا. يصبـح الأنـا بنـاءً غير قـارٍّ، وغالبًـا مـا يكـون مُعْتِمًـا على نفسـه. إن التخييـل الذاتـيّ -بهـذا المعنـى- هـو جـواب شـكليٌّ وموضوعاتـيٌّ عـن الأزمـة الروائيـة كمـا شـخصها جان-بـول سـارتر. تَعـزَّز هـذا التحـول الاسـتبطانيُّ الـذي اسـتثمر الـذات بكونهـا لغـزًا، بـل ماهيـة. ومـن ثـم، أدى التخييـل الذاتـيّ إلـى تمديـد «عصـر الشـك» بتحيين الرهانـات اعتمـادًا على ذاتيـةٍ أدبيـةٍ مابعـد حداثيـة.

8- عملت عن رضا واقتناع بتخصيص حساب لسيرج دوبروفسكي على الفايبسوك. كيف يتعامل الناس مع أعماله عمومًا، ومع المفهوم الذي ابتدعه خصوصًا؟

مـا يهـم الأشـخاص الذيـن يتفاعلـون مـع الصفحـة هـو الاطـلاع على الإصـدارات الحديثـة التـي تسـلط الضـوء على أعمالـه. يتابعـون مـا ينجـز ويقـال عـن كتـب. فـي غالبيتهـم طلبـة ينجـزون أطاريحهـم أو يـحضرون نـدواتٍ فـي الموضـوع نفسـه.

* إيزابيل غريل Grell Isabelle باحثة وناقدة فرنسية، من مواليد أميان (Amiens) سنة 1969م. متخصصة في النقد التكوينيّ (génétique Critique) بالبحث في مسودات الكُتّاب ومخطوطاتهم لرصد التغيُّرات التي تطرأ عليها بمرور الزمن (ومن ضمنهم جان-بول سارتر وسيرج دوبروفسكي).

عضو في فريق «ساتر» وفي فريق «المخطوطات واللسانيات» التابعين لـ «معهد النصوص والمخطوطات العصرية». تدير منذ 2003 م فريق بحث يُعنى بتكوُّن التخييل الذاتيّ في مسودات رواية لسيرج دوبروفسكي حملت على التوالي أسماءً مختلفة (الوحش، ثم السيدة الحالة، ثم الابن/ الخيوط)

من بين مؤلفاتها: ما يشبه الحب 1990م، سبل الحرية عند سارتر (التَّكوُّن والكتابة) 2005م، التخييل الذاتي 2014م، لماذا دوبروفسكي؟ 2017م. ومن بين الأعمال الجماعية التي أشرفت عليها : التخييلات الذاتية 2011م، تخوم التخيل الذاتيّ (الرهانات الجغرافية والفنية والسياسية) 2016 م.

أثنـاءٌ

أم رثاءٌ لإفريقيا ؟؟

د. عبد الله الحسين ميغا

خبير خارجي بالإيسيسكو

مالي

إفريقيا... أرض العظمة والملوك والخيرات.

إفريقيا ليست مجرد قارة على خريطة العالم، بل هي قلب الأرض النابض بالحياة منذ فجر التاريخ، منها انطلقت أولى خُطى الإنسان، وعلى ترابها وُلدت حضارات علّمت الدنيا معنى البناء والصمود.

هي الأرض التي غنّت للحرّية قبل أن تعرفها الأمم، والتي كتبت تاريخها بعرق أبنائها المخلصين، ودماء شهدائها الأبطال، وصبر أمهاتهم اللاتي أنجبن قادة غيروا مجرى الزمان.

في سهولها تمتد الخُضرة بلا نهاية، وفي جوفها ترقد كنوز لا تُعدّ ولا تُحصى؛ ذهبها يلمع كشمسٍ لا تغيب، وماسها يشهد على نقاء جوهرها، ونفطها يسيل كالعِطر من رحم الأرض الطيبة.

إفريقيا غنية بثرواتها، وإنّ أغلى ما تملك هو إنسانها؛ ذاك الذي صبر في مواجهة الاستعمار، ونهض من تحت الرماد ليبني وطنه من جديد؛ لم تنكسر روحه، ولم تضعف عزيمته، لأن الكرامة تسري في عروقه كما يسري النيل ونهْرا النيجر والسنغال في أرضه.

يا إفريقيا، يا أمّ العزة، ستعودين كما كنتِ، ترفرف راياتك فوق القمم، وتشرقين من جديد على وجه العالم؛ لأن التاريخ يشهد أنك كنتِ دائمًا منبع النور، وأن كل حضارةٍ مرّت على وجه الأرض، إنما استمدّت ضوءها منك.

إفريقيا... مهد النور والسلام وموسم الخلود

إفريقيا ليست قارةً من ترابٍ وحدود، بل هي روحُ الأرض وذاكرةُ الزمان، وهي المهدُ الأولُ للإنسان، ومن رحمها وُلد النورُ الذي أضاء الوجود، فيها بدأ التاريخُ يخطّ سطوره الأولى، وعلى جبينها سال عرقُ الحضارة يوم كانت الدنيا طفلةً تتعلّم النطق.

يا إفريقيا، يا أمَّ العراقة، كم من مملكةٍ قامت على سهولك، وكم من إمبراطورية ازدهرت على أرضك، وكم من عرشٍ سجد لبهائك! من تمبكتو إلى غانا، ومن مروي إلى كوش، ارتفعت أعمدةُ المجد، وتزيّنت الليالي بأغاني النصر والخصب.

في جوفكِ ينامُ الذهبُ كما ينامُ الحلمُ في صدرِ طفلٍ بريء، وفي أعماقكِ تتلألأ جواهرُ لا تُقاسُ بثمن؛ لكنّ أثمنَ ما فيكِ هو إنسانُكِ الذي صبرَ على البلاء، وخرجَ من ليلِ الاستعمارِ كالفجرِ يولدُ من رحمِ الظلمة.

أرادوكِ ضعيفةً، فكنتِ أصلَ القوة!

أرادوكِ منسيةً، فكنتِ ذاكرةَ التاريخ!

أرادوكِ فقيرةً، فكنتِ أغنى من خيالهم بما اختزنَتْ أرضُكِ من كنوزٍ وخيراتٍ وكرامةٍ لا تُشترى!

إفريقيا... يا قلبَ الشمسِ الدافئ، ما زال فيكِ نَفَسُ الحياةِ يتردّد،

> **إفريقيا غنيّة بثرواتها، لكنّ أغلى ما تملك هو إنسانها**

وما زالتِ الطبولُ القديمةُ تدقّ في صدورِ أبنائك، تُناديهم إلى النهوض، إلى الوحدة، إلى المجد الذي يليقُ بكِ.

سيأتي يومٌ يُنصتُ فيه العالمُ لصوتكِ،

فيعلمُ أن الحضارةَ لم تبدأ من بحرٍ بعيدٍ،

بل من هنا... من تربتكِ الطاهرة التي أنبتت الإنسانَ والعزّةَ والكرامة معًا.

إفريقيا بين الأمس واليوم:

كانت إفريقيا أرضا تستوعب شعبا متّحدًا، وأسرةً تضمّ أفرادا متعاونين متعاطفين، وأمةً تعيش مطمئنةً آمنةً، ودولةً غنية بنفسها وذاتها؛ إذ إنّ ثرواتها الطبيعية تأتي في الصدارة على ساحات الاستغلال في المعيار الكمي والمقياس النوعي.

ومواردها الزراعية ليست بحاجة إلى عمليات بشرية اصطناعية. فهي (إفريقيا) متميزة بأمطارها الغزيرة وأنهارها اليانعة، وبحارها النابغة ... وهي الظل الظليل بأشجارها العالية، وغاباتها الكثيفة، وأزهارها الخضراء... وهي مهد للبشرية بشعوبها المتدينة وساكنتها المتعاونة، وعاداتها وتقاليدها الرفيعة.

وهي القوة العظمى برجالها الأبطال، وملوكها العدول، وعلمائها الأفاضل وكتابها وشعرائها وأدبائها الفحول !!!

إلا أن أسفا ويأسا وصدمة تصيب - أحيانا - قلب المتأمل وشعور المتدبر، ووجدان المدرك أنّ هذه الصفات لم تعد إلا في خبر (كان) بعد أن كانت في خبر (إنّ)، وفي الماضي بعد أن كانت في الحاضر، وفي التاريخ بعد أن كانت في الواقع، وفي الأمس بعد أن كانت في اليوم.

فلماذا الصيرورة:

فإنّ هجوما عدوانيا، واستدمارا أوروبيا، واحتلالا غربيا على القارة جرّدها من هذه الصفات الحيوية، فذهبت - للأسف الشديد - ضحية؛ إذ قسم الغرب المستعمر أرضها، وجعلها دويلات ذات حدود سياسية، عبر تخطيطات انحيازية دون استفسار لأبنائها، ومشاورة ممهّدة لسكانها ومؤتمر منعقد يحضره أبناء شعبها وحُكامها الذين حَكمُوها على الأسس الإنسانية الموحدة، والقوانين السياسية المتماسكة والروابط الاجتماعية المتينة. وأدلّ دليل على ذلك أن مملكة (سوسو)كانت ممتدة إلى إمبراطورية

كانت إفريقيا أرضا تستوعب شعبا متّحدًا، وأسرةً تضمّ أفرادا متعاونين متعاطفين، وأمةً تعيش مطمئنةً آمنةً، ودولةً غنية بنفسها وذاتها

(ماندنغ) و (ماندنغ) كانت ممتدة إلى المحيط الأطلسي ويسكن سواحلها (الولوف)... كل ذلك من عمل أيدي أجدادنا، وتخطيطات أفكارهم الحاذقة، وتوجيهات سياستهم المستقيمة ...

فأيام الاستعمار أيام سوداء، بينما كانت مآثر إفريقيا بيضاء...

وأمّا أيام الاستقلال، فأيام ذات لون جوهري تعيش فيها الشعوب الإفريقية عمياء، وتهتدي بتوجيهات أعدائها المبصرين، فالمنطلق مجهول ناهيك عن المصير.

كيف نسترد ما لنا من حقوق ؟؟

فيا شباب القارة أين الحيوية والوطنية والحماسة الشعبية !!!

يا شباب القارة السمراء لماذا التفرق والتشتت !!

يا شباب القارة الغنية، آن الأوان لليقظة والنهوض!

إنّ إحياء التراث الإفريقي هو إحياء أمّةٍ ومسؤوليةٌ تطوّق أعناق أبنائها الذين عاشوا على أرضها، فانهضوا بأرواحكم وأجسامكم، وبأقلامكم وأقوالكم، وذلك أضعف الإيمان...

ولتحقيق هذه الأمانة لابدّ من :

إنماء الشعور والوعي بعظمة الروح الإفريقية الأصيلة.

الاقتناع الكامل بأن الكرامة لا تستورد بل تُمنح وتُصنع بيد الإفريقي.

الالتزام بعاداتنا وتقاليدنا وثقافاتنا الإفريقية... لذا أقول دائما:

أنا إفريقي ما حييت، وإنْ متُّ فوصيتي للناس أن يتأفرقوا !!!!

الكاتب والمخرج الفلسطيني فتحي عبد الرحمن

للمسرح هويّة كونيّة ومسؤوليتهُ تّوحيد المجتمع الإنسانيّ

عبد الرزّاق الربيعي
شاعر وكاتب صحفي
سلطنة عمان

يعدُّ الكاتب والمخرج المسرحي الفلسطيني فتحي عبد الرحمن المولود سنة (1953) في مخيم «عقبة جبر» قرب أريحا، من أبرز المسرحيين العرب والفلسطينيين، أسّس المسرح الشعبي في عمَّان وجمعية المسرح الشعبي في فلسطين، وأصدر مجلة مسرحية بجهود ذاتية وساهم في تأسيس مهرجان فلسطين الوطني للمسرح بين عامي (2017 و2019). درّس الإخراج المسرحي في أكاديمية الفنون الجميلة بجامعة بغداد، وقدّم العديد من المسرحيات التي جسّدت قضايا فلسطينية وعربية، مثل: «كيف يمكن تخليص موكنبوت من آلامه» لسعد الله ونّوس، و«القيامة» لممدوح عدوان، و«هناك على الشاطئ الآخر» لخوسيه تريانا.

تحدّث في لقائنا معه عن التحديات التي يواجهها المسرحيّون العرب وغير العرب، قائلا

«هذا الصراع الذي لا يستكين، بين مسؤوليات ومواقف السياسيين من جهة، والمثقفين من جهة أخرى، ومواقفنا نحن كمسرحيين عندما نُسأل عن مستوى الحرية المتاح للإبداع، وعن موقف الجمهور من المسرح في بلداننا، وعن قدرتنا على العيش بكرامة، وسط هذا الخراب والعجز الذي يحيط بنا. مسؤولية كبيرة أن تتحدث عن لوحة الواقع الذي أمامك اليوم، أيُّ الألوان ستختار لتمزج وتحدد درجاتها؟ بأي درجة حرارة ستكتب كلماتك برقتها وخشونتها؟ وكيف ستنتقل من بلاد السعادة إلى مدن الخراب والجحيم؟ كيف تتغلب على نرجسيتك وتواضعك ليخرج ما في صدرك معبرًا عن تجربتك الشاقّة والشيقة؟ هل تسهب أم توجز؟ ومن أنت لتقول ما ستقول؟ لستَ المعلّم الفريد، ولا القدّيس الوحيد، جيشٌ من الفرسان، ومرجٌ من الزهرات، وهبوا ووهبْنَ أجمل العمر للمسرح، لكل واحد وواحدة عطر وقدرة وفرادة وبصمة وعطاء، في جعل المسرح حيًّا فاعلًا ينير العقول بدفء القلوب.

جاء دورك لتنهض من قيامتك، وتكتب رسالتك لقبيلتك المسرحيّة وللعالم الذي يَنْشُد الجمال والكمال والحكمة، وينبذ التسلط والظلم والعدوان».

وماهي الرسالة المنوطة بالمسرح العربيّ اليوم؟

الحروب الكارثية التي خطّطوا لها لتغيير وجه منطقتنا، أحدثت وستحدث تغيُّرات كثيرة، مزيدًا من السيطرة والإخضاع والتوسّع والتجزئة، رسالة المسرح لمجتمعاتنا: الفنُّ يَجمع ولا يفرّق، وللمسرح هويّة كونيّة، مسؤوليته توحيد المجتمع الإنسانيّ، وهدفه النهائيُّ مصير الإنسان والعدالة، وبناءً عليه تُنبّهُ مجتمعاتنا بأنْ لا نأكل لحم بعضنا، بأنْ لا نخلط بين التنوير والظلاميّة، بين التبعيّة والعبوديّة، وأن لا نمجّد البطولات الكاذبة وننشد أمام الهزائم الصغيرة. الفنان الحقيقيّ لا يتوقف عن خدمة الحريّة والحقيقة والجمال، عن الانتصار للضحايا الذين خسروا حياتهم دون ذنب، أو فقدوا أبناءهم وعائلاتهم أو أعطبتهم الحرب، أو أضاعوا زمنًا طويلًا من أعمارهم في السُّجون لأنهم وطنيّون.

المسرحيّون صُنّاع الجمال والبهجة، وحدهم من يستطيع إظهار القلب المشترَك لكلّ البشر.

عكست الثقافة الفلسطينية معاناة الشعب الفلسطينيّ وأبعاد قضيته التي هي قضية العرب الأولى، كيف عبّر المسرح عن هذه المعاناة؟

الثقافة الفلسطينية مرافقة لوجود الشعب الفلسطينيّ على هذه الأرض منذ القِدَم، فاللغة والآداب والفنون وعناصر التراث وجدت منذ قديم الزمان، كذلك انتشرت الصحافة والترجمة والطباعة والمدارس الوطنية مثل المدرسة الصلاحية، ودار المعارف، منذ العام (1920)، وإلى جانب هذه الحركة الثقافية كانت هناك المدارس الأجنبية والإرساليات التبشيرية التي كانت تدرّس الطَّلبة الفلسطينيين الإنجليزية والفرنسية والروسية، وتنظّم عروضًا مسرحيّة نهاية كلّ عام دراسيّ، وعندما تنبّه المثقفون للخطر الصهيونيّ ومخططاته للاستيلاء على الأرض، وظّفوا المسرح ونظّموا عروضًا في المدارس والمقاهي والأندية. النضج التدريجي لفهم الوظائف الأيدولوجيّة للمسرح ودوره في إمكانية تطوير الثقافة الوطنية هو الذي قاد المسرحيين الأوائل والمثقفين لإنتاج وتقديم عروض مسرحيّة مثل: (صلاح الدين الأيوبي)، (السموأل)، (طارق بن زياد)، (العربي والصهيوني)، (عبد الكريم الخطابي)، (الشموع المحترقة). كانت هذه المسرحيات تمجّد البطولات العربية وتنبّه الناس للحفاظ على أراضيهم، وتحرّضهم ضدَّ الانتداب البريطانيّ والعصابات الصهيونيّة.

ثم حدثت النكبة عام (1948)، وتمَّ تهجير 800 ألف مواطن بعد تدمير قُراهم ومنازلهم، ضاعت الجهود المسرحيّة كما ضاعت الوثائق التي تشير إلى طبيعة النّشاط المسرحيّ وميزاته ورموزه.

> **المسرحيّون صُنّاع الجمال والبهجة ويستطيعون بفنّهم إظهار القلب المشترك لكلّ البشر**

يؤكد المشتغلون بالمسرح الفلسطينيّ، وأنت منهم، أن نقلة نوعيّة حدثت في المسرح الفلسطينيّ المعاصر بعد هزيمة 5 حزيران، شكلًا ومضمونًا، كيف يمكن أن توضّح تمثّلات هذه النقلة؟

نعم، فعدد من الفِرَق انبثقت في العام (1970) بَعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، وتحقق التواصل بين الفلسطينيين، تلك الفِرَق عبّرت عن رفضها للاحتلال، ودعت لمقاومته والاعتماد على الذّات بعيدًا عن الأنظمة العربية التي خذلتها. وعلى صعيد الشكل وظّفت العناصر البصريّة والمكمّلات الفنيّة مستفيدة من تجارب المسرح الأوروبيّ؛ بسبب دراسة بعض الفنانين للمسرح، واطلاعهم على المسرح في أوروبا وروسيا، ورغم التضييق الذي كانت تفرضه سلطات الاحتلال على المسرح والمسرحيين من إغلاقٍ للمسارح، ومنعٍ للعروض المسرحيّة، واعتقالٍ للمسرحيين ومطاردتهم؛ إلا أنَّ الجهود المسرحيّة بهويتها النِّضاليّة استمرت، واستنهضت فِرَقًا ومجموعات جديدة في جميع المناطق المحتلة، وبرز العديد من المخرجين الدارسين، وتحوَّلت كثير من القصص والروايات والنصوص لإميل حبيب، وغسان كنفاني، إلى عروضٍ مسرحيةٍ ناجحةٍ بعد إعدادها. كما سجّلت فِرَق عديدة، وفنّانون، تجارب جديدة تعتمد الكتابة الجماعية، والتمثيل الصامت، والبانتومايم، والمسرح الغنائي. هذه الجهود كانت بمعظمها تعكس معاناة الشعب الفلسطينيّ وقضيته، وتوقَهُ للحريّة والاستقلال، ورفضه للاحتلال.

وبعد تفاهمات أوسلو عام (1993)، تفاءل بعض المسرحيين بأنَّ السّلام وإقامة دولة فلسطينية سيتحقق دون عثرات، فظهرت مسرحيات تدعو للتعايش والتسامح، لكن سرعان ما اكتشف الفلسطينيون بأن أوسلو فخ، وأنَّ الاحتلال هو الاحتلال الذي لا

يعترف بالحق الفلسطينيّ، ولن يسمح بالاستقلال والدولة وحق تقرير المصير، ومن جديد عادت الأعمال المسرحية تتحدث عن قضايا القمع والسجون، والاستيطان وخنق الحرّيات، والعذابات التي يتعرض لها الفلسطينيون، وأنَّ المقاومة بأشكالها المختلفة هي الوسيلة التي ترفع هذا الظلم، وتزيل الاحتلال.

قاوم المثقّف الفلسطينيّ سنوات طويلة من أجل تثبيت الهوية الثقافية، كيف استطاع أن ينجح في منحها الحياة، والوقوف بصلابة في وجه المحاولات الصهيونية الرامية لطمسها؟

منذ أن نشأ المشروع الصهيونيّ وهو ينكر وجود الشعب الفلسطينيّ، وينكر هويته الثقافية. ورغم القوة الهائلة التي استخدمها ويستخدمها لطمس هذه الهوية وإنكار وجودها إلا أنَّ الفلسطينيين الذين عاشوا على هذه الأرض منذ مئات السنين يعرفون أنفسهم كفلسطينيين، يتمسّكون بلغتهم وأرضهم وتراثهم، وما ورثوه من أجدادهم من خبرات زراعيّة، وحرف يدويّة، ومعتقدات دينيّة، ومفاهيم فكريّة وإنسانيّة، ووعي بالتاريخ العربيّ، وبالثقافة العربيّة والإسلاميّة.

> **عندما تنبّه المثقفون للخطر الصهيونيّ ومخططاته للاستيلاء على الأرض، وظّفوا المسرح ونظّموا عروضًا في المدارس والمقاهي والأندية**

الدولة الصهيونيّة العنصريّة، سعت جاهدة لعرقلة وتأخير بلورة الهويّة الثقافيّة الفلسطينيّة، كما أعاقت تطور الوطنيّة الفلسطينيّة وحاولت إزغامها لتكون عربيّة عامّة أكثر من كونها فلسطينيّة خاصّة. إلّا أنَّ النكبة التي أدت لدمار المجتمع الفلسطيني، وتفكك نسيجه، وتهجيره، وتقطيع أوصاله إلى قطع معزولة عن بعضها (غزة، الضفة، الـ1948، الشتات)؛ جعلت من الصعب الحديث عن أجيال فلسطينيّة ثقافيّة، وبات كل مثقّف (رائد) بمفرده، وبانقطاعٍ شبه تامٍ عن نظرائه، وعن الأجيال الثقافيّة الأخرى، وظل هدف الجميع (فلسطين) بما تعنيه الأرض الوطن، وقضيّة حق العودة والذاكرة، والدولة المستقلّة.

في ظل الاحتلال وفي الشتات، تميّزت الإبداعات الفرديّة كالشعر والرسم والقصة، فانتشرت بسرعة وتطورت، أمّا الفنون الجماعيّة كالمسرح والسينما وغيرها، فقد تأخرت لبعض الوقت؛ لحاجتها إلى الاستقرار والبناء المؤسسيّ، والرعاية وتجميع المواهب والتخصصات، ونذكر على سبيل المثال في الإبداع الفرديّ: (غسّان كنفاني وإسماعيل شموط وناجي العلي وإدوارد سعيد وجبرا

إبراهيم جبرا) في الشتات، و(سميح القاسم وتوفيق زياد وإيميل حبيبي ومحمود درويش) في الأرض المحتلة. وبعد عام (1967)، وكَردٍ على الهزيمة العربيّة نشأت الكثير من فِرَق المسرح، وفِرَق الفنون الشعبيّة والإنتاج السينمائيّ، ومراكز الأبحاث والمجلات الثقافيّة.

جبهة الثقافة رسَّخت الهوية الثقافية عبر معركة مفتوحة بين قوّة الثقافة وثقافة القوّة، المثقفون لم يقدّموا أنفسهم كضحايا يستجدون الاعتراف بهم، بل قدّموا أنفسهم كشعب يقاوم الاحتلال والظلم ببسالة، ويرفض التسليم برواية العدو الزائفة. نجح المثقّفون والمؤسسات الثقافيّة الوطنيّة في تثبيت الهويّة الثقافيّة الفلسطينيّة والتصدي للثقافة الصهيونيّة الشموليّة المشبعة بالعنصريّة والخرافة والنهب والاحتلال.

لكن تواجه الباحثين في شؤون المسرح العربيّ مشكلة قلّة المعلومات عن المسرح الفلسطينيّ، لماذا؟

المعلومات قليلة فعلًا لأسباب عديدة:

1. بعد نكبة عام (1948)، حدث انقطاع للنشاطات المسرحية ما يقارب عقدين من الزمن، فالكارثة التي حلّت بالفلسطينيين، وحالة التشرد والبؤس، وضياع الجهود التي تراكمت؛ غيَّبت النشاطات والمعلومات، وانشغل الجميع بالحفاظ على حياته ومعيشته، إلّا من بعض التجارب المتناثرة في بلدان اللجوء.
2. بعد هزيمة الأنظمة في 5 حزيران (1967)، حدثت نهضة مسرحيّة داخل الأرض المحتلة وفي الشتات، وتشكّلت العديد من الفِرَق المسرحيّة، إلّا أنَّ النشاطات المتناثرة اعتمدت على مبادرات الأفراد، وغاب المركز الراعي والداعم والمنظّم، إلّا من بعض التجارب التي تبنّتها التنظيمات الفلسطينيّة، ولم تول

تلك المبادرات والتجارب الجانب الإعلامي والنقدي والتوثيقي إلّا القليل من الجهد.

3. مصطلح المسرح الفلسطينيّ خضع للتقييمات الجغرافية داخل الأرض المحتلة، كانت هوية المسرح أوضح، فالفلسطينيون العرب تحت الاحتلال لهم مسرحهم، والمسرح العبريّ المتعالي له هويته، في حين معظم الفنانين المسرحيين الفلسطينيين في البلدان العربية انصهروا في مسارح البلدان التي عاشوا فيها كلاجئين وكأفراد يجمعون بين أصولهم والجنسيات التي يحملونها، لكن دون أن تسمّي فرقة نفسها بالمسرح الفلسطينيّ؛ لأن ذلك يثير حساسيات لا ضرورة لها، واستثناء ذلك فرقة المسرح الوطنيّ الفلسطينيّ التي دعمتها منظمة التحرير لبعض الوقت، والتي ضمَّت في عضويتها فنّانين عربًا مرموقين أبرزهم المخرج جواد الأسدي.

4. الحركة النقدية والصحافة الثقافية والدراسات المسرحية كانت قليلة ومحدودة في فلسطين.

لهذه الأسباب وغيرها كانت المعلومات قليلة عن المسرح الفلسطينيّ، رغم أن المشاركات العربية والدولية كانت كثيرة ولم تنقطع منذ عام (1970).

هل يمكن التعرف على أبرز محطّات المسرح الفلسطينيّ، قبل عام 1948 وبعده؟

قبل عام (1948)، انتشر المسرح من خلال الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية التي كانت تسعى لنشر لغاتها بتنظيم نشاطات مسرحية نهاية العام الدراسي بالعربية واللغات الأجنبية، وأتيحت الفرصة للجمهور الفلسطيني كي يتعرّف على مسرحيات عالمية لشكسبير وغيره من الكتّاب، من خلال الترجمة والعروض التي كان ينظّمها الانتداب البريطاني لضبّاطه وجنوده باستضافة فرق بريطانية.

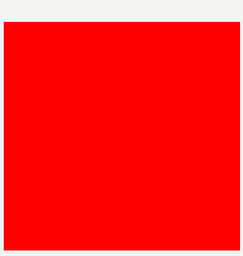

غسّان كنفاني

ادوارد سعيد

ناجي العلي

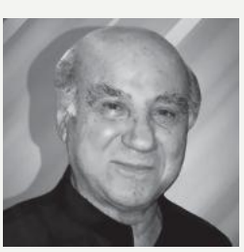

إسماعيل شموط

أما الفِرَق المسرحية والغنائية المصرية فكانت في كل موسم تقدّم عروضها في المدن الفلسطينية الرئيسة، وتنبَّهت القوى السياسية الناهضة لأهمية المسرح فشجَّعت الأدباء على ترجمة نصوص مسرحية عالمية، وشجَّعت الجمعيات والأندية والمدارس الوطنية على تقديم مسرحيات في المناسبات المختلفة، وتوظيفها للتقدم الاجتماعي، ومقاومة الاحتلال والخطر الصهيوني. في هذه المرحلة تأثَّر الفنّانون المسرحيّون بطريقة تمثيل الفرق المصرية الزائرة وتحديدًا بيوسف وهبي وجورج أبيض، وعزيز عيد ونجيب الريحاني، وغيرهم.

قلّة المعلومات عن المسرح الفلسطينيّ، مشكلة واجهها الباحثون العرب

من عام (1948) وحتى عام (1967)، توقف النشاط المسرحي في مناطق 1948 لسنوات؛ بسبب إرهاب الدولة العبرية التي كانت تقمع أي مظهر له علاقة بالهوية الثقافية الوطنية، وفي الضفة الغربية تركَّز النشاط في أعمال مسرحية مدرسية ذات أهداف تربوية، أما في مخيمات اللجوء في سوريا والأردن ولبنان فقد انحسر النشاط في أندية الشباب التابعة لوكالة غوث اللاجئين، وكانت معظم المسرحيات والتمثيليات تدور حول الحنين إلى الوطن الضائع، والدعوة للتضحية والشهادة، إلى جانب قضايا اجتماعية وأخلاقية. وكانت تلك التجارب مجموعات شبابية متحمّسة، تتشكل وتنحلّ بعد إنجاز العمل المسرحي. في هذه المرحلة كانت معظم النشاطات تقوم على الهواية دون إعداد وتدريب للممثلين، وكانت تقدّم العروض في المدارس والأندية.

من عام (1967) وحتى عام (1993)، وبعد هزيمة 1967 وسيطرة الكيان الصهيوني على كامل الأراضي الفلسطينية، تخلّص المثقفون من أوهام الانتظار وتعليق الآمال على الدور العربي الرسمي في مقاومة الاحتلال واسترداد الحقوق، في هذه المرحلة تزايد عدد الفِرَق والمجموعات المسرحية التي وجدت في المسرح وسيلة مقاومة وتعبير عن رفض الاحتلال، فبرزت ظاهرة كتابة النصوص المسرحية بشكل جماعي، وإعداد نصوص عالمية، وإعداد روايات فلسطينية كروايات غسان كنفاني «عائد إلى حيفا» و«أم سعد» و «رجال في الشمس»، وبرز عدد من المخرجين الدارسين في الدول الأوروبية والدول الاشتراكية وفي مصر وبغداد، فتطور فن الأداء عند الممثلين ودخلت السينوغرافيا في تقنياتها وجمالياتها على العروض المسرحية وازداد عدد الممثلات، أما التكوين والنقد فقد ظلّا ضعيفين.

من عام (1993) وحتى الآن، بداية هذه المرحلة عبَّرت الأعمال المسرحية عن الآمال الكبيرة بالحرية والاستقلال، فتنوعت مواضيع العروض المسرحية ما بين النقد السياسي والاجتماعي،

نجح المثقّفون والمؤسسات الثقافيّة الوطنيّة في تثبيت الهويّة الثقافيّة الفلسطينيّة

الشموليّة المشبعة بالعنصريّة والخرافة والنهب والاحتلال

وسرعان ما تسببت الوقائع على الأرض بخيبة مل للمثقفين أ والفنانين من ثم بنوا ع الاستقلال، والفنا الأعمال المسرحية و المعدّة عن) لتتناول مواضيع تنتقد الممثلين والمخرجين الإنتاج ق الجديدة والمبتكرة ن العديد من تجمع سينما إلى مسرح عد وراش العمل أ عناوين مختلفة للمسرح بالتعاون «مهرجان فلسطين الدولي وننوه ا قاسيا وصعبا؛ فتراجعت وانقطع غزة بسبب حرب

القلق وفقدان الشعور بالأمان لدى الفلسطينيين العروض المسرحية نطاق ضيق.

يقول الفنان احل سعد الله قوس: « نحن محكومون بالأمل الأبدي»

بالمسرحيين الشباب، المندفعين الشغوفين الحالمين بتوحيد المجتمع الإنساني والانصهار عوهم الأمل في حلامهم وهم أ كيف المتطرفين بمصائر الشعوب، الناس كحزم الحطب، كحجارة الشطرنج، وذلك باسم الدفاع عن النفس ك بالمثل العليا اكتشفوا ن التربة وطاننا تكا س الأمراض وتوله إلى عجزة. كيف ينتفضون ويصرخون ، وهم غارقون بمشاعر اليأس ماذا قول لهم، وهم يشاهدون آلاف الرجال وقد خرجوا من أ السجون شبه بالكهول بعد أ شبابهم

خبرتنا حلامكم وعن إصابة لسنا عميا ، لا زلنا نبصر الكوارث والخوف تثنيكم عن الأوطان، عن الأحلام، فحياة قصيرة والكرامة ذلك

مجلة الإيسيسكو

مجلة الإيسيسكو الثقافية مجلة فصلية شاملة، تصدر عن منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة- الإيسيسكو، وتنشر رقمياً وورقياً.

شروط النشر بمجلة الإيسيسكو الثقافية

مجال النشر

ترحب المجلة بالمواد الثقافية والفكرية والأدبية، بما يشمل: المقالات، الدراسات، القراءات النقدية، النصوص الإبداعية، الحوارات، الترجمات والتقارير. كما تفرد مساحة مقدرة للمواد التربوية والاجتماعية والعلمية.

الآراء الواردة في المجلة لا تعبر عن رأي منظمة الإيسيسكو ، ويتحمل كل كاتب المسؤولية الكاملة عن الآراء والأفكار الواردة في عمله.

الأصالة

يشترط أن يكون العمل أصيلاً وغير منشور سابقاً ورقياً أو إلكترونياً، وألا يكون مقدماً للنشر في جهة أخرى في الوقت نفسه.

تعرض الأعمال المرشحة للنشر على برنامج
أي عمل تتجاوز نسبة الاقتباس

اللغة والأسلوب

تُقبل الأعمال المكتوبة باللغة العربية السليمة،
اللغوية.

الالتزام الأخلاقي

تحرص المجلة على احترام القيم الإنسانية
قية، لذا لا تنشر أية مادة تتضمن إ
دينية أو عرقية أو طائفية، أو تحض على الكراهية أو العنف.

حقوق النشر

تحتفظ المجلة بحق النشر الورقي والإلكتروني، مع حفظ الحقوق الأدبية للكاتب.

التحرير

رئيس التحرير هو المسؤول الأول عن ما ينشر بالمجلة.

تخضع المواد المقبولة للمراجعة والتحرير اللغوي والفني، بما لا يخل بمضمون النص أو فكرته الأساسية.

التوثيق

في المقالات البحثية أو النقدية، يُ
المصادر والمراجع.

آلية القبول

تخضع جميع المشاركات لقرار هيئة التحرير، ولا تلتزم المجلة بتوضيح أسباب الرفض.

معلومات إضافية

يُرفق مع المشاركة صورة شخصية حديثة
للكاتب مع نبذة مختصرة عنه لا تتجاوز
أسطر، مع ذكر معلومات التواصل (البريد الإلكتروني، رقم الهاتف، العنوان).

يجب ألا يتجاوز عدد كلمات المادة المرسلة
، ما لم يتم الاتفاق
رئيس التحرير.

ترسل المشاركات على البريد الإلكتروني :

ICESCO_MAGAZINE@ICESCO.org

السَّيْر جَايِر أنْدرْسون ومُتْحَفـه بِالْقـاهرة

قِصَّة عِشْق لِلْآثَار والْفنون الإسْلاميَّة

د. محمد أحمد عنب

أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية-
كلية الآثار- جامعة الفيوم

مصر

جايز أندرسونْ سيرتهُ وحياتهُ

هـوَ الطبيـبُ والضابـطُ الإنجـليزيُ تومـاسْ جايـزْ أندرسـونْThomas Gayer Anderson، ولـد فـي29 يوليـو عـام1881م في إنجلترا لعائلة عريقة، وكان لـه أخ شـقيق يُدعـى روبرت جريفيل جاير أندرسون، وكانا شـقيقين توأمًا متطابقين. تخرج جاير أندرسـون من كلية الطب عام 1904م، ثم التحق بالأكاديمية العسكرية الملكية حيث عمل ضابطًا في الجيش البريطاني، وخدم في العديد من مدن الشرق، ومنها مدينة القاهرة التي استقر بها خلال فترة الاحتلال الإنجليزي. وبعد أن ترك الخدمة العسكرية، عمل بالسفارة البريطانية عام1924م، وأصبح شغوفًا بشكل خاص بالفنون والحضارة الإسلامية، فكوّن مجموعته الأثرية والفنية الثمينة، والتي أهداها عام1942م إلى الحكومة المصرية تقديرًا وحبًا للقاهرة وشعبها. توفي جاير أندرسون عام1949م، تاركًا إرثًا عريقًا من الفن والثقافة وحب الحفاظ على التراث [1].

جايز أنْدرْسون وعشْقه لِلْفنون والْحضارة العربيَّة

أظهر أندرسون منذ صغره شغفًا بالتاريخ والثقافات الأجنبية. وخلال خدمته في الجيش البريطاني بالشرق الأوسط، أُتيحت له الفرصة لاكتشاف جمال الفن الإسلامي عن قرب، فبدأت رحلته الملهمة مع هذا الفن العريق. لقد سحرته الزخارف المعقدة التي تزين جدران المساجد، والخط العربي الراقي الذي يزين المصاحف واللوحات، والألوان الغنية التي تبعث الحياة في القطع الفنية.

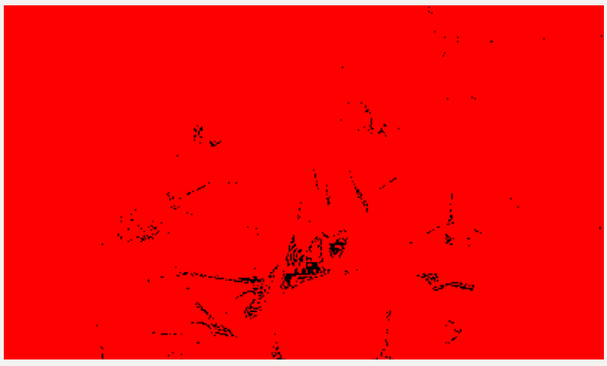

قرر جاير أندرسون أن يكرس حياته لدراسة الفنون والآثار الإسلامية، وقد قال: «لقد وجدت في الفنون الإسلامية جمالًا يخاطب الروح، وتاريخًا يتجاوز الحدود». تأثر أندرسون بشدة بالعمارة الإسلامية، حيث وجد فيها تناغمًا فريدًا بين الجمال والروحانية، فأصبح شغوفًا بجمع القطع الفنية التي تعكس هذا الفن المعماري الرائع. ولم يكن شغف أندرسون مجرد هواية عابرة، بل سعى إلى تعميق معرفته عبر الدراسة الأكاديمية؛ فتعلم اللغة العربية وفنون الخط الإسلامي، ودرس الرموز والزخارف المستخدمة في الفن الإسلامي، كما توسع في دراسة التاريخ الإسلامي وعلم الآثار، ليُدرك بعمق السياق الثقافي والحضاري الكامن وراء هذه الفنون الخالدة.

لقد رأى جاير أندرسون في الفنون والآثار الإسلامية نافذة على حضارة عظيمة، ووسيلة للتواصل بين الثقافات. وكان شغفه صادقًا وعميقًا، حيث كرّس حياته وموارده للحفاظ على هذا التراث الثقافي الثمين ومشاركته مع العالم. بدأ أندرسون رحلة طويلة من البحث والتنقيب، فسافر عبر مختلف بلدان الشرق الأوسط؛ من إيران إلى سوريا، ومن تركيا إلى بلده الثاني مصر. وفي كل مكان، كان يفتش عن القطع الفنية النادرة والتحف التي تعكس جمال وروح الثقافة الإسلامية. وهكذا كوّن مجموعته الفنية الثمينة، التي لا تزال محفوظة في بيت الكريدلية، شاهدًا حيًا على شغفه ووفائه للحضارة الإسلامية.

أَصْل وَفِكرَة إِنشَاء مَتحَف جَايِر أَنْدرْسون لِلْفنون الإِسْلاميَّة

جاءت فكرة المتحف من إعجاب أندرسون بالثقافة المصرية الغنية وتقاليدها العريقة، فقرر الاستقرار في القاهرة. وجاء اختياره لأحد البيوت العثمانية الأثرية الشهيرة ليكون سكنًا له ومقرًا لمقتنياته، وهو بيت الكريدلية. يتكون البيت من منزلين متجاورين: الأول هو منزل المعلم عبد القادر الحداد المعروف بمنزل آمنة بنت سالم وتاريخه 947هـ/1540م، وهي آخر من امتلكته فنُسب إليها. أما المنزل الثاني فهو منزل الحاج محمد سالم بن جلمام الجزار، المعروف بمنزل الكريدلية، وقد أنشأه سنة 1041هـ/1631م. وقد آل المنزل فيما بعد إلى سيدة تُدعى الست زينوبة الكريتلية، فنُسب إليها. ثم جرى تحريف الاسم بين العامة، فقُلبت التاء دالًا ليُعرف لاحقًا بمنزل الكريدلية، نسبة إلى مسقط رأسها جزيرة كريت اليونانية. ويقع المنزلان شرقي جامع أحمد بن طولون الشهير، ويفصل بينهما ممر يُعرف بعطفة الجامع، ينتهي بباب يؤدي إلى الزيادة الشمالية الشرقية للجامع الطولوني[2].

1 عبد الرحمن ذكي، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1969م، ص13

2 غزوان ياغي، مقاعد القاهرة ومنازلها في العصر المملوكي والعثماني دراسة أثرية حضارية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004م، ص118-120

وفي عام1935م تقدّم جاير أندرسون بطلب إلى لجنة حفظ الآثار العربية بالقاهرة ليُصرّح له بسكنى هاتين الدارين، واعدًا بتأثيثهما بمجموعته الأثرية. وقد وافقت اللجنة على تأجيرهما له، مقابل أن يترك هذه المجموعة في المنزل هبةً لمصر عند وفاته أو مغادرته البلاد. وفي سنة1942م غادر جاير أندرسون مصر، وترك مجموعته الأثرية هبة للحكومة المصرية، التي عنيت بها وحوّلت الدارين إلى متحف أطلقت عليه اسم متحف جاير أندرسون. وفي مارس1943م أنعم عليه حضرة صاحب الجلالة الملك برتبة الباشوية تقديرًا لجهوده ومقتنياته الثمينة [3]. تعود أهمية هذا المتحف إلى كونه أنموذجًا حيًا يعكس ما كانت عليه البيوت الأثرية في مصر خلال العصر العثماني[4].

البيوت وفق التقاليد الشرقية، بحيث لا يؤدي المدخل مباشرة إلى فناء الدار، بل يصل إليه عبر مدخل منكسر يضمن عدم كشف الداخل للمارين أمام المنزل، تحقيقًا لمبدأ الخصوصية وامتثالًا لقواعد الفقه الإسلامي. وتزدان جدران المتحف وقاعاته وأسقفه بزخارف نباتية وهندسية بديعة، إلى جانب نقوش كتابية رائعة تتضمن آيات قرآنية وأبياتًا شعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم [5].

مَتحَف جَاير أَنْدرْسون تُحفَة مِعْماريَّة

يتميز المتحف بتصميمه المعماري الفريد الذي يعكس سمات العمارة السكنية في العصر الإسلامي. فقد روعي فيه الفصل بين مجالس الرجال المعروفة بـ السلاملك، حيث المقاعد وغرف الاستقبال والقاعات الخاصة، وبين مجالس النساء المعروفة بـ الحرملك، وهي القاعات المخصصة لجلوس السيدات، وتشرف على فناء البيت المكشوف عبر شبابيك الخَرط والمشربيات الخشبية. ويضم المتحف فناءً داخليًا تتوسطه نافورة رخامية وحديقة صغيرة، وتلتف حوله جميع عناصر ووحدات المنزل. وقد صُممت

تَحوِيل بَيْت الكرِيْدليَّة الأثَريّ لِمتْحف جَايِر أَنْدرْسون

بعد أن استأجر المنزلين، اندفع جاير أندرسون في عمله بحماسة لا تعرف الكلل، وبذوق فني رفيع وخبرة واسعة في عالم الفنون والتحف. أنفق الكثير من ماله في شراء الأثاث والقطع النادرة، يلتقطها من البيوت الأثرية الخاصة ومن أسواق العاديات في مصر وخارجها. كان دقيقًا في اختياره، مهووسًا بالبحث عن الجودة والندرة والقيمة التاريخية. تنوّعت مقتنياته بين السجاد الفارسي الفاخر والمصابيح النحاسية، وبين اللوحات الفنية والتحف النادرة. وبفضل شغفه وتفانيه، جمع واحدة من أثمن المجموعات الإسلامية في القرن العشرين. لكن قيمة المتحف لم تقتصر على جمال مقتنياته، بل تجاوزت ذلك ليصبح جسرًا حيًا بين الشرق والغرب؛ فقد فتح أبوابه لزوّار غربيين اكتشفوا من خلاله روعة الفن الإسلامي، وأتاح في الوقت نفسه لأهل القاهرة أن يعيدوا

3 حسن عبد الوهاب، بين الآثار الإسلامية، 2018م، ص56

4 شحاته عيسى إبراهيم، القاهرة، ص237

5 غزوان ياغي، مقاعد القاهرة ومنازلها في العصر المملوكي والعثماني، ص118-120

اكتشاف تراثهم، وأن يشعروا بفخر أعمق بحضارتهم. وهكذا تحوّل المتحف إلى وجهة أساسية لعشاق الفنون الإسلامية، وشاهد خالد على شغف رجل استثنائي أسرته الحضارة الإسلامية.

قاعات المتْحف ومقْتنياتها الأثريّة

نُسّقت معروضات المتحف المختلفة في أربعٍ وعشرين قاعة، أُطلق على كل منها اسم يعبّر عن طبيعة مقتنياتها المتنوعة، والتي تُبرز اندماج الثقافات والتأثيرات الفنية، وتحكي قصة التلاقي بين الثقافة المصرية والإسلامية مع التأثيرات الأوروبية في قلب القاهرة التاريخية. ومن أبرز هذه القاعات: القاعة الشتوية، والقاعة الدمشقية، والغرفة الصينية، والغرفة الفارسية والتركية. وهناك أيضًا غرفة العرائس التي تضم العديد من المقتنيات الخاصة بالنساء في العصور الوسطى، مثل الأمشاط المصنوعة من الأبنوس، وأدوات الزينة المختلفة، والقنينات الزجاجية لحفظ العطور، إلى جانب بعض القباقيب الخشبية والمعدنية المطعّمة بالصدف والعاج والنحاس. أما غرفة الولادة فتحتوي على مجموعة نادرة من كراسي الولادة تعود إلى العصر الإسلامي، إضافة إلى مجموعة من التمائم التي كانت تُعلّق كأحجبة للأطفال للحماية من السحر والحسد، فضلًا عن ألعاب أطفال مصنوعة على هيئة حيوانات، تعكس ملامح الحياة الاجتماعية في تلك العصور.

وقد كان شغف جاير أندرسون بالتاريخ والحضارة المصرية القديمة واضحًا، فخصّص لذلك الغرفة الفرعونية، التي استخدمت لعرض مجموعة من الآثار المصرية القديمة التي جمعها. وتتنوع القطع المعروضة فيها لتشمل عددًا من الأواني الكانوبية، وأجزاء

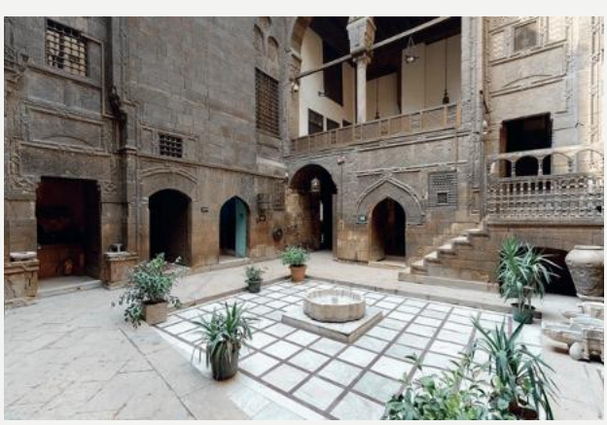

من توابيت خشبية تحمل كتابات هيروغليفية، بالإضافة إلى جعران كبير الحجم يعود إلى عصر الملك أمنحتب الثالث، وهيئات لمعبودات من مصر القديمة. كما تضم الغرفة مجموعة من التماثيل التي ترجع إلى العصرين اليوناني والروماني. أما التأثيرات الإسلامية والأوروبية فقد امتزجت في أبهى صورها داخل غرفة الملكة آن ستيوارت، التي سُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى الملكة آن، ملكة بريطانيا في القرن الثامن عشر، ويغلب عليها الطراز الأوروبي في ديكوراتها وأثاثها. ويحتوي المتحف أيضًا على مكتبة قيّمة زاخرة بالكتب النادرة لبعض الرحّالة الأوروبيين الذين جابوا بلاد الشرق، كما تُعرض فيها نسخة من كتاب وصف مصر، إلى جانب مخطوطات إسلامية نادرة، من بينها نسخ من القرآن الكريم مكتوبة بخط عربي بديع ومزخرفة بزخارف ذهبية [6].

وأخيرًا، فقد عبر جاير أندرسون حدود الزمن والثقافات ليقع في شغف لا ينطفئ بالفنون والآثار الإسلامية. ومن خلال جهوده الدؤوبة وولعه الصادق، ترك إرثًا خالدًا يواصل إلهام الأجيال. لقد كان بحق سفيرًا للفن الإسلامي، أسهم في تعريف العالم الغربي بروعة هذا الفن وثرائه، وفي الوقت نفسه شجّع على صون هذا التراث الثقافي الثمين. وفي النهاية يبقى أثر جاير أندرسون حاضرًا في كل قطعة فنية معروضة، وفي كل زائر يتأمل جمال متحفه، وفي كل باحث يجد في رحلته مصدر إلهام جديد. إن شغفه بالفن يذكّرنا دائمًا بقدرة الجمال على مدّ الجسور بين الشعوب، وبأهمية الحفاظ على التراث الثقافي الإنساني كذاكرة حيّة لا تزول.

6 حسن عبد الوهاب، بين الآثار الإسلامية، 2018م، ص56

توظيف التاريخ والموروث في إبداع نجيب محفوظ

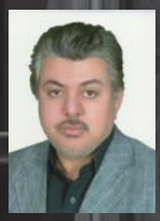

د. محمود كحيلة
مصر

مع نهاية كل عام ميلادي نحتفل بذكري ميلاد أمير الرواية العربية «نجيب محفوظ» الذي ولد في الحادي عشر من ديسمبر عام 1911م، والذي في كل مرة ننقب في إبداعه نجد الجديد ونتعلم ما يفيد ومن بين أهم قرارته وأعمق اختياراته أنه لما انتهي من دراسة الفلسفة بجامعة القاهرة، والتحق بماجستير الفلسفة الإسلامية اكتشف أن التركيز بالدرس سيشغله عن إبداعه فاتخذ قرارا حازما في وقت مناسب يعد أحد أهم قراراته المصيرية فتخلي عن الماجستير وإن لم يتوقف يوما عن طلب العلم فاتجه إلي دراسة التاريخ الذي ارتأى أنه سوف يكون أكثر نفعا لمشروعه الأدبي الذي خطط أول الأمر أن يتجه إلى كتابه تاريخ مصر القديم بصيغة روائية، وكان لتلك الفكرة التي تقدم في اتجاهها عدة خطوات دور كبير في تكوينه الاستثنائي الذي لا نمل الحديث عنه وتداول حيثياته ليس فقط لأنه الأديب العربي الوحيد الذي اقتنص جائزة نوبل 1988م، ولكن لأنه تمكن من كتابتنا على نحو ما كنا نتمنى أن نكتب.

إخناتون وعظاته النبيلة، وأناشيده الخالدة لم ولن تموت... حيث يفنى الجسد بينما الأفكار والأقوال تبقي عائشة في الحقيقة لا تموت

ترجم محفوظ كتاب «مصر القديمة» تأليف «جيمس ميكى» كأحد بواكير التعبير عن اهتمامه بالتاريخ، واستمر في الوفاء لهذا العشق حتي أخرج عددًا من الروايات ذات الصبغة الفرعونية والخلفيات التاريخية منها وقيل إنه أعدم خمس روايات عن التاريخ الفرعوني قبل أن يخرج روايته الشهيرة «عبث الأقدار» التي تحكي بطولات الملك «خوفو» الذي بني أحد معجزات التاريخ وهو الهرم الأكبر، وكذلك رواية «رادوبيس» التي جرت أحداثها أواخر عصر الأسرة السادسة الفرعونية، ورواية «كفاح طيبة» التي تتناول كفاح وبطولات المصريين القدماء ضد الهكسوس بقيادة «سقنن رع» ثم كاموس، وأخيرا «أحمس» الذي نجح في طرد الأعداء واستعادة الأرض وتحرير «أواريس» عاصمة مصر القديمة وفى هذه الرواية التي نشرت 1944م، استنطق محفوظ التاريخ لكي يدفع أمته نحو مستقبل أكثر أمنا وحرية بنفحة من التاريخ.

آخر روايات محفوظ التاريخية كانت محورها «إخناتون» ذلك الفرعون المدهش الذي تضاربت بشأنه الآراء والذي قرر نجيب محفوظ أن يكتب عنه عام 1985م رواية بعنوان «العائش في الحقيقة» تتضمن باكورة دعوته إلى عبادة إله واحد، وفي الرواية نقرأ كيف تزعم إخناتون ثورة كبيرة على نظام فكري وعقائدي وديني عتيق وبالٍ وكيف حاول تعديل مسار حياة القدماء، وكان إخناتون وقت ذاك علي قمة هرم السلطة وناضل بكل قوة نحو ما آمن بأنه حق، ولكنه لم يقدر علي الإصلاح والتغيير، لأن أمور تعديل العقائد تتطلب صبرًا وتحتاج إلي أغلبية، وأغلبية الشعب كانت في صف كهنة «آمون» الذين كانوا وجموع الناس منتفعين ببقاء الوضع علي ما هو عليه، وقد حرص «محفوظ» علي أن يعرض مختلف الآراء حول شخصية بطل روايته «إخناتون» من كافة الزوايا في جميع مراحله العمرية.

أولى «نجيب محفوظ» شخصيات هذه الرواية «العائش في الحقيقة» عناية فائقة ورسم تفاصيل وأبعاد هذه الشخصيات بمهارة كبيرة، ووصف كيف كادت فرقة الديانة الجديدة «آتون» أن تفرق بين المصريين وكادت أن تسقط الإمبراطورية الكبري التي كونها «أمنحتب الثالث» والد إخناتون، ولذلك طالبه كهنة آمون ومعهم الشعب بالتنازل عن الحكم، وإنهاء دعوته إلى مذهبه الجديد فتنازل عن العرش وعين الفرعون الأشهر «توت عنخ أمون» بدلا منه فيما بقي «حور محب» قائد الجيش بمنصبه لأنه كان الوحيد الذي لم يعتنق فكر إخناتون عن دين آتون ولزم ديانة آمون متمسكا بآداء واجبه العسكري والوطني علي أكمل وجه وإن بدي مزدوج الولاء بنظر البعض ولكنه كان يعلى مصلحة الوطن ليقدر نهاية الأمر من الجميع.

استنطق محفوظ التاريخ لكي يدفع أمته نحو مستقبل أكثر أمنا وحرية بنفحة من التاريخ

في رواية «عبث الأقدار» لنجيب محفوظ كان القائد العسكري حور محب يري إخناتون رمزا للوطن وإن كان لا يصلى كفرعون وعبر عن ذلك قائلا: (لم أستطيع أبدا أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر، ولم أتحول عن رأى هذا في أي وقت من الأوقات) وكان حور محب يرى أن إخناتون رغم ضعف صحته والأنوثة التي تغلب مظاهر الذكورة في هيئته مناضل قوى لعقيدة التوحيد أمام جبروت الكهنة ووصف ذلك بقوله : (رغم الضعف الجسدي، والأنوثة الخلقية انطلقت منه عزيمة متحدية مثل ألسنة اللهب لا ندرى من أي مجهول استعارها، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة)

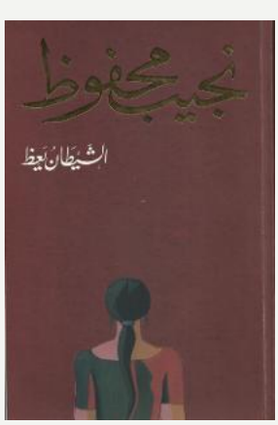

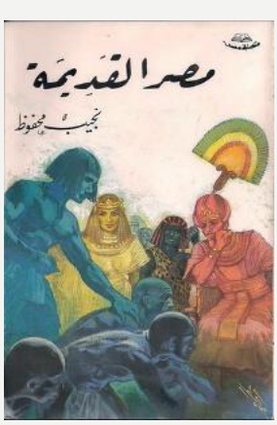

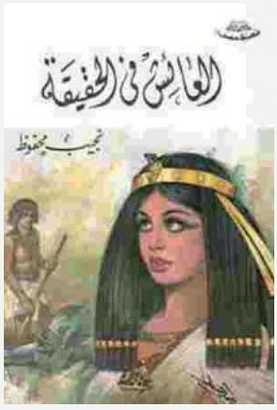

وهكذا ظل «حور محب» يري حاكمه مقاتلا شرسا حتي وصلت الأمور إلي طريق مسدود إما أن تكون مصر أو يكون إخناتون فتحيز إلي ما فيه صالح الوطن نزولا علي إرادة فرسان الجيش ممن هالهم تهاون إخناتون مع أعداء الخارج مما أجبر القائد العسكري «مای» علي الخروج عن شعوره قائلا: (ذلك المجنون أهان شرفنا العسكري وجعلنا هزأة للمعتدين وفريسة سهلة لقطاع الطرق) وشنت حملة كبيرة لتشويه صورة إخناتون لتنتهي حكايته في مدينته تل العمارنة التي شيدها علي هواه وعاش فيها آواخر أيامه وحيدا معتزلا إلا من زوجته وبعض خدمه حتي النهاية التي وصفها «محفوظ» علي لسان الراوي بقوله: (إخناتون وعظاته النبيلة، وأناشيده الخالدة لم ولن تموت وإن مرت مئات الأعوام علي رحيل أخناتون حيث يفني الجسد بينما الأفكار والأقوال تبقي عائشة في الحقيقة لا تموت)

إتجه نجيب محفوظ إلي التاريخ العربي في سردياته منها علي سبيل المثال لا الحصر قصة قصيرة بعنوان (السلطان) ضمن مجموعته القصصية «الشيطان يعظ» وفيها فوق جبل بالصحراء يسلم الحارس الخاص سيفه لمولاه السلطان بعدما يخبره أنه كان يفترض به أن يقتله تنفيذا لمؤامرة دبرتها السلطانة والوزير وأنه لو لم يقبل القيام بهذه المهمة لقتلوه وعادوا فقتلوا السلطان ولكنه لكي يحمي سيده تظاهر بالقبول فإما أن يتكرم السلطان بقتله ليفعل ما يريد أو يذهب في سلام إلي حيث لا يصل إليه أحد ويرحل السلطان متألما من الخيانة، ويظل بعيدا أعوام وأعوام حتي يرجع ذات يوم ومعه جيش عظيم يسترد به الملك، واعتمد محفوظ علي التاريخ العربي أيضا في صياغة مسرحية (الشيطان يعظ) التي تجري أحداثها في عهد أمير المؤمنين «عبد الملك بن مروان» وفيها يصل إلي علم الأمير حكاية قمقم يسكنه عفريت من الجان ومن يملكه يحصل علي قوة عظيمة يفرض بها سيادته ويملي إرادته علي أهل الأرض، ولذلك أرسل عبد الملك رجاله لاستطلاع الأمر ووصلوا إلي مدينة مسحورة جمد الجن سكانها منذ عشرين ألف سنة عندما اغترت ملكتهم بقوتها السحرية فادعت أنها آلهة وأنه على شعبها أن يعبدها ما دامت تتمتع بهذه القدرة فكان عقابها أن تتجمد مع شعبها لتظل عظة لمن يتعظ وهذه مسرحية من وحي التراث العربي الإسلامي الذي اتجه إليه محفوظ خلال مسيرته إبداعية بدأت بالشعر ومرت بالترجمة ثم السرد سواء كان طويلا في رواياته التي قرأها العالم أو قصصه القصيرة الجميلة إلي جانب إبداعه الدرامي الذي يشمل كتابة سيناريوهات أفلام ثم المسرحيات.

وأخيرا كتب نجيب محفوظ مجموعة من القصص القصيرة جدا أقرب لما نسميه اليوم ومضة قصصية أطلق علي مجموعتها (أحلام فترة النقاهة) والتي تشهد مخطوطاتها علي أنه من رواد النضال بالكلمة إذ عرضه الإبداع الجريء إلي محاولة إغتيال خرج منها بعاهة كبري سلبته القدرة علي الإمساك بالقلم والكتابة إلا أنه ناضل مجددا كعادته حتي استطاع أن يكتب مجددا ليترك في نهاية مشواره الإبداعي أحلاما مبدعة.

وبقيت إبداعات «نجيب محفوظ» ذات المصادر والمراجع التاريخية خالدة في تاريخ الأدب والإبداع الإنساني ننهل منها كل حين وكلما طالعناها ازددنا تقديرا له وفخرا بما قدم من إنجاز لأن نجيب محفوظ تواضع للتاريخ فموضع بالواقع، ولذلك حتي إبداعاته التي لا يبدو فيها التاريخ بشكل مباشر نلمحه في تكوينه الفكري والثقافي يمنح مؤلفاته مذاقها الخاص لأنه لا حاضر يذكر ولا مستقبل يرتقب لمن لا يقدر تاريخ الإبداع والإبداع التاريخي.

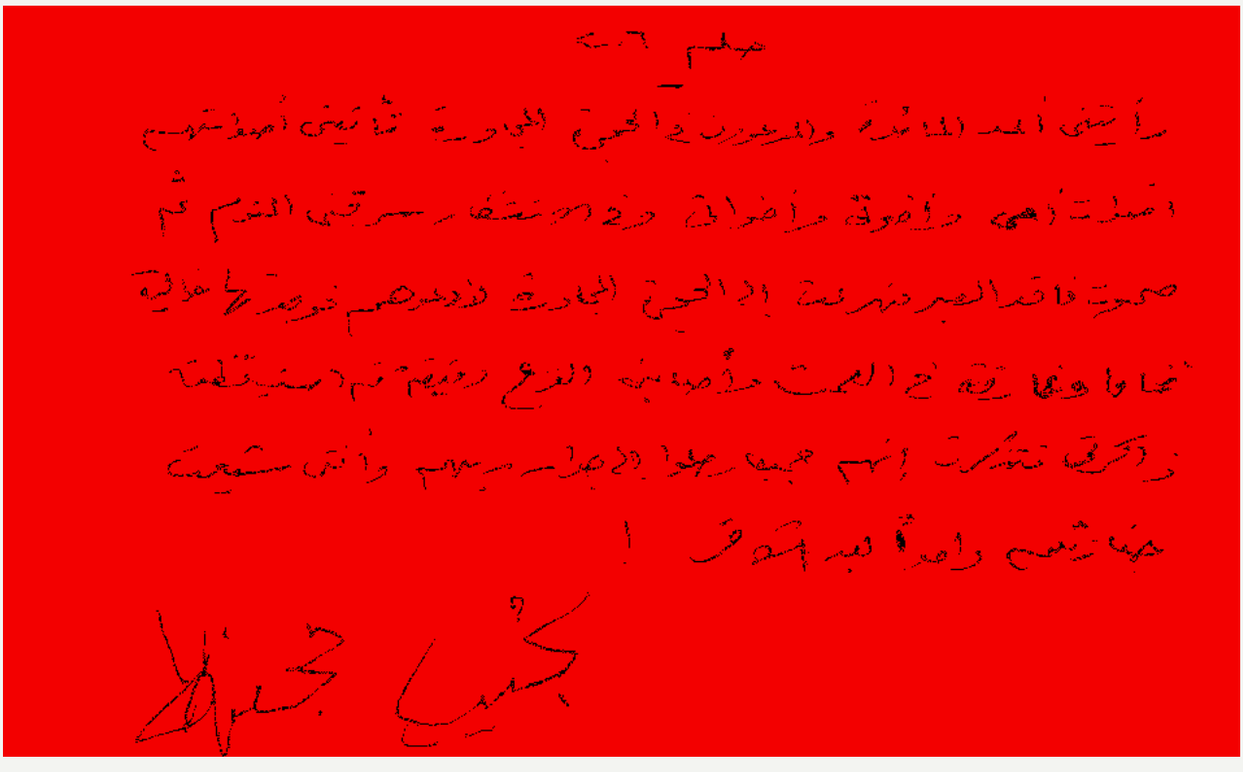

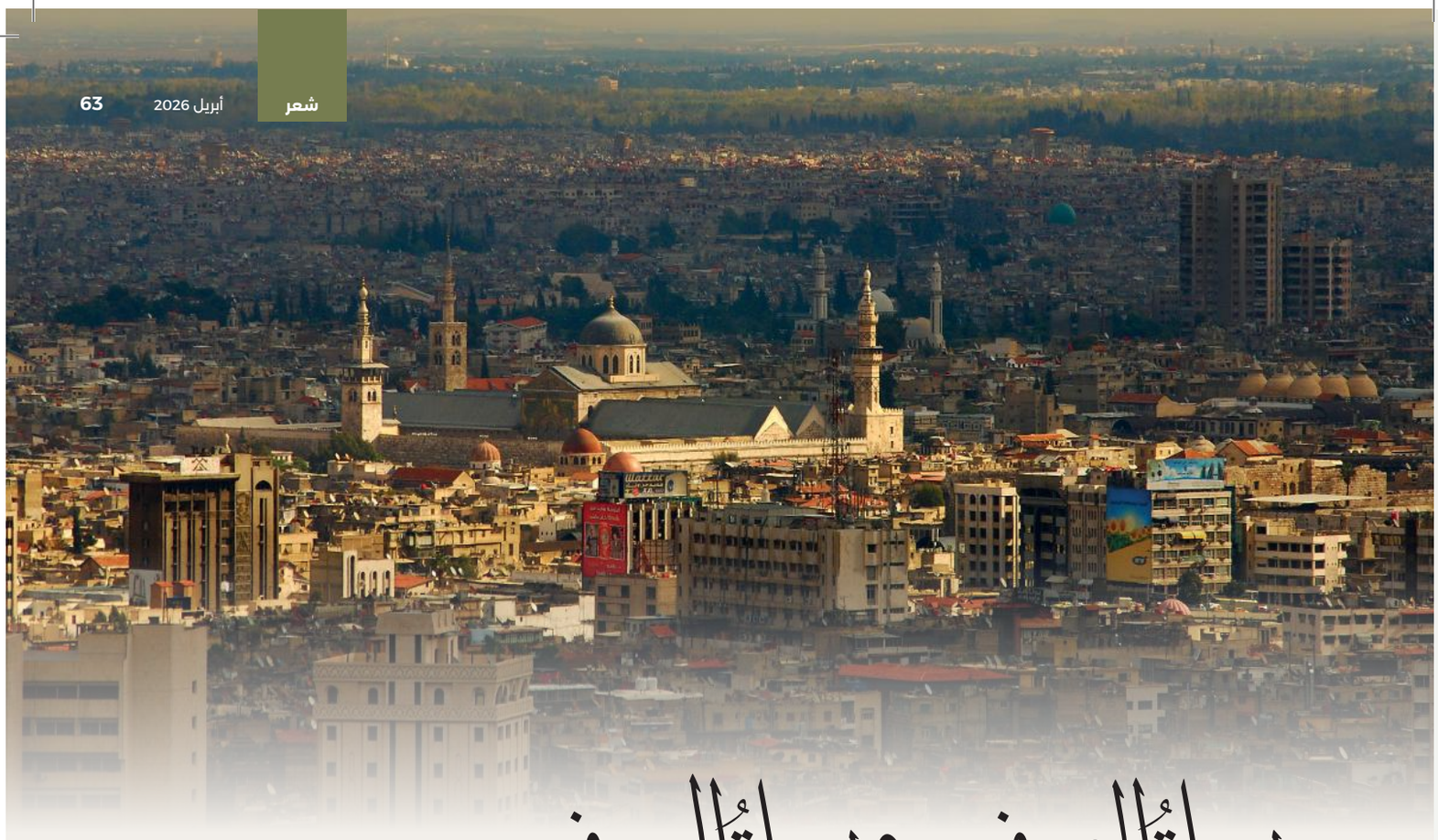

رحلةُ الصيف.. ورحلةُ السيف

الشاعر السفير خالد فتح الرَّحمن

مدير مركز الحوار الحضاري بالإيسيسكو

السودان

لا عبقرُ الشعـرِ..لا الألحـانُ..لا الحَبَـبُ
تكفـي لتُعلـنَ ما يُشجـي و ما يَجِـبُ

فيـا دمشقُ سلامـاً .. حين نسكُبُـه
يـقـولُ كلُّ سـلامٍ منـكِ يُنتَخَـبُ

و كلُّ نجـمٍ على شرْفـاته انسدَلَـت
أُغـرودةٌ..فهـو من عينيـكِ يقـتربُ

هنـا صحـا الفجـرُ تـوَّاقـاً لموعِـده
مـع التَّـأنُّقِ : يستهـوي و يجتـذبُ

هنـا رَقَى الأُمَـويُّ الليـلَ، فاحتفلَـت
بسـورةِ اللَّيـلِ في ترتيلِـها الشُّـهُبُ

هنـا القـوافي تنـاهَت في تألُّقِهـا
فاستأذَنَتهـا، و طـارت بالشَّـذى حلَـبُ

هنـا تدَمشَقَـتِ الأسمـارُ فانطلقـت
تـروي حكاياتِـها بين الـورى الكتُـبُ

هنا السماحةُ سارت في الدروبِ على
مَهْلٍ، فرافقـها التدليـلُ و الطَّـربُ

عراقـةٌ، قالـتِ: الأزمـانُ قد تعِبَـت
و أنتِ مـا زار يومـاً عينَـكِ التعـبُ

يا رحـلةَ الصَّيـفِ في الآيـاتِ عاطـرةً
و رحلـةَ السيـفِ يستعـلي و يلتـهبُ

قاسيـتِ بالأمـسِ .. فالأقمـارُ عازفـةٌ
عن ابتسـامٍ و وجهُ الصبـحِ مكتئـبُ

قاسيتِ قاسيتِ، كان الجرحُ محتمـلاً
لو كـان يُعرَفُ ما المغزى ومـا السببُ

لكنـها البشريـاتُ استدفـأت بـدمٍ
ناجـاهُ بالنصرِ ذاك المدمـعُ الخضِـبُ

فقـمتِ للنـاسِ تُهدينَ الشَّجَى أمـلاً
تكسَّـرت دونَـه الأوهـامُ و الرِّيـبُ

و أنـتِ أنـتِ على الأهـدابِ باسمـةً
فيـا دمشـقُ سلامـاً منـكِ يُنتَخَـبُ

«القصيدة التي ألقاها الشاعر، فى افتتاحيات معرض دمشق الدولي للكتاب، فبراير 2026»

رحلة الوعي الثقافي

تأملات من تجربة تعليم اللغة العربية لليابانيين

د. راوية جاموس

جامعة كيئو اليابان

لقد بدأت رحلة جديدة من الوعي عندما تغيرت أمامي ألوان الحياة فجأة لأجدني في عالم نسمة هوائه مختلفة ولون أزهاره مختلف وصخب شوارعه مختلف .. مختلف بأدق تفاصيله عن العالم الذي سكنته وسكنني سنوات طويلة. لقد كانت طريقة إدراكي لهذا الاختلاف تتراوح بين التقبل والاستنكار، بين الخوف والقلق، بين الرغبة في الاندماج والتعرف على الثقافة الجديدة وبين المراقبة الدقيقة لكل ما حولي ورصد طريقة تقبل الآخر لي ولاختلافي.

هذا ما كان يعتمل في داخلي عندما بدأت ذاكرة جديدة تنسج خيوطها الدقيقة في داخلي محاولة المزج بين أناي وهويتي وبين الأنا الأخرى التي أصبحت في ما بعد جزءًا مني، محرّكة لتفكيري وسلوكي ومؤسّسة لبناء معرفي منسجم متناغم يبرز جماليات الحياة الإنسانية وتفاعلاتها.

إن طريقة إدراكي لهذا الاختلاف بعد أن انتقلت إلى حياة جديدة في اليابان البلد المختلف كل الاختلاف عن بلادنا العربية جعلتني أعود لبضع سنوات إلى الوراء مستعيدة سلسلة من المواقف التي حدثت معي عندما بدأت بتدريس اللغة العربية للطلاب اليابانيين في جامعة حلب، لأدركها بشكل أعمق، ولأعيش تجربة المتعلم الذي يزور بلدًا جديدًا ويتعلم لغته وثقافته. لقد أصبحت ذلك المتعلم بكل ما يعتمل في داخله من مشاعر وأفكار مختلطة تارة تجعله يسير في هذا الاتجاه وتارة تجذبه لاتجاه مغاير.

في صباح اليوم الأول لي في اليابان توجهت إلى السوق وأول ما كنت أود شراءه ركوة قهوة وفناجين صغيرة جميلة تصنع صباحي، إلا أني آنذاك وبخبرتي المتواضعة حول طبيعة الاختلاف الذي قد أواجهه في بلد آخر لم يخطر ببالي أنني لن أجد شيئًا بسيطًا اعتدت أن أجده في كل مكان، ووجدت المدخلات الثقافية المتنوعة تتسابق إلى عقلي من كل حدب وصوب .. فوجدتها مختلفة بألوانها وأشكالها واستخداماتها ومسمياتها.. أدوات الطعام، مفروشات المنزل، الملابس، الأدوات المكتبية وغير ذلك. كان يجب علي آنذاك ليس أن أعرف أسماء الأشياء باللغة اليابانية، بل كان علي أن أعرف كيف أستخدمها ومتى ولماذا درءًا لأية مواقف محرجة، فكلها غريبة عني وتنتمي إلى منظومة معرفية واجتماعية مختلفة تتميز بالتزامها بالأعراف والآداب بشكل كبير. فهكذا هي اللغة ليست مجرد كلمات نتعلمها وجمل نصوغها بل هي أسلوب حياة تعكسه الكلمات، فإذا لم نَعِ هذا الجانب جيداً وقعنا فريسة لكثير من المواقف المحرجة.

اللغة ليست مجرد كلمات نتعلمها وجمل نصوغها بل هي أسلوب حياة تعكسه الكلمات، فإذا لم نع هذا الجانب جيداً وقعنا فريسة لكثير من المواقف المحرجة

في أحد الدروس بادرتني طالبة يابانية بعد مرور عدة أيام على وصولها إلى حلب لدراسة اللغة العربية بسؤال تخفي نبرته شعور استياء وحرج قائلة: ألا تشترون موزة واحدة في بلدكم؟ هل يبدو هذا غريباً؟ أجبتها بأننا عادة لا نشتري أقل من كيلو من أي نوع من الخضار أو الفاكهة وأنه من الغريب في مجتمعنا شراء موزة واحدة، فسألتها عما يكمن وراء سؤالها واستنكارها، فأخبرتني بأنها ذهبت لتشتري موزة واحدة من أحد الباعة المتجولين، ولكنه استغرب وضحك وقال لها تفضلي هذه ضيافة، فنحن لا نبيع موزة واحدة مما أشعرها بالحرج، وجعلها تنصرف والأفكار تأخذها يمنة ويسرة ظناً منها أن البائع يتصدق عليها.

لقد كان هذا الموقف هو الخبرة الأولى للطالبة اليابانية في التعامل الحقيقي مع أبناء اللغة التي تتعلمها، ولاشك بأنه ترك في نفسها أثراً كبيراً، فقد بدت عليها ملامح القلق من القدرة على التواصل مع مجتمع ليست لديها بعد فكرة واضحة عن ثقافته وكيفية التعامل معه. ولا يخفى على المتخصصين في تعليم العربية للناطقين بغيرها ما لهذا الموقف على بساطته من أثر كبير في زيادة دافعية المتعلم لدراسة اللغة أو إحجامه عنها.

إن هذا الموقف يجعل جملة من الأسئلة تتبادر إلى أذهاننا ... ماذا نعلم الطالب الأجنبي من اللغة العربية؟ هل نعلمه مجرد قوالب لغوية لا حياة فيها؟ هل استطعنا حقاً أن نبني لديه لغة حية تعكس ثقافة أبنائها وحياتهم؟ هل استطعنا أن نوصله إلى المرحلة التي تشعره بالثقة والاطمئنان لدى احتكاكه مع العرب؟ لا ريب أن متعلم أية لغة من اللغات يطمح إلى أن تكون لديه القدرة على التواصل باللغة التي يتعلمها تحدثاً واستماعاً، وأن يكتسب الثقة من المعرفة الجيدة بثقافة اللغة التي يتعلمها، لتزداد دافعيته لتعلم اللغة.

إن ما دعا الطالبة اليابانية إلى الاستغراب من عدم بيع موزة واحدة لها هو أن ثقافة الشراء في اليابان مختلفة عما هي عليه في البلاد العربية. فما بدا لها طبيعياً وشائعاً في بلدها، يعد غريباً لدى العرب، وإن عدم معرفة الطالبة بثقافة الشراء العربية وطبيعتها أوقعها في هذا الموقف الذي كان محرجاً لها. وهذا ما يدعونا إلى النظر باهتمام إلى المحتوى اللغوي والثقافي الذي نقدمه لمتعلمي العربية من غير الناطقين بها. فمواقف بسيطة من هذا النوع قد تصرف المتعلم عن الاهتمام باللغة التي يتعلمها ولاسيما المتعلم الياباني الذي يتسم بالخجل والحساسية، ولذا فمن المهم أن نراعي بدقة المعايير الثقافية لدى اختيار المواد والأنشطة التعليمية، إذا كنا نطمح إلى جعل المتعلم يشعر بالارتياح والثقة في التواصل مع المجتمع العربي.

فلو أننا علّمنا موقفاً لغوياً كموقف التحية والرد عليه وما يمكن أن نستخدم فيه من مفردات وتعبيرات، دون أن نعلّم الطالب آداب تقديم التحية وطريقتها لدى العرب لوجدنا أن الطالب كالآلة يردد مفردات وعبارات بدون أن يعرف الكيفية الحقيقية لتقديمها وأدائها، فاليابانيون مثلاً لديهم ثقافة خاصة وأصول وآداب لتقديم التحية مختلفة عما هي عليه لدى العرب، فطريقة التحية في الثقافة اليابانية تختلف بعباراتها وبلغة الجسد المستخدمة بحسب طبيعة الموقف والشخص المخاطب، وهناك حساسية كبيرة في المجتمع الياباني تجاه مواقف من هذا النوع، وأي خطأ في استخدام اللغة والتعبيرات الجسدية المصاحبة يعد عيباً كبيراً في مجتمع لديه أصول لأسلوب تقديم الخطاب المهذب. ولذا فمن الضروري تقديم اللغة في القالب الثقافي الخاص بها.

إننا عندما نعلم الطالب مفردات اللغة وتعبيراتها دونَ أن نشرح له متى وكيف يمكن استخدامها، فإننا قد نوقعه في العديد من المواقف

ماذا نعلم الطالب الأجنبي من اللغة العربية؟ هل نعلمه مجرد قوالب لغوية لا حياة فيها؟ هل استطعنا حقاً أن نبني لديه لغة حية تعكس ثقافة أبنائها وحياتهم؟

المحرجة، فبعض المفردات قد يحمل عدة معان وقد يكون لأحد معانيها مدلول سيء، ولذا فإنه علينا أن نهتم بهذا الجانب، لنسهل على المتعلم عملية التواصل، ولنجنبه الوقوع في الحرج الناتج عن استخدام بعض المفردات أو العبارات في سياقات غير مقبولة اجتماعياً وثقافياً، ولنكسبه الجرأة والثقة بالنفس في استخدام اللغة العربية. فتعليم اللغة العربية بدون سياقها الثقافي الطبيعي، ما هو إلا شكل اللغة الذي يحتاج إلى مضمون يبرز السياقات الثقافية والمعرفية والفكرية الخاصة بالعرب. فلن تكون اللغة جسراً حقيقياً للتواصل والتفاهم بين الشعوب بدون أن نعلمها بجميع مكوناتها.

أعود لأتابع ما كنت قد بدأت به، لأنقل الجانب الآخر من التجربة الذي ينقل خبرة تعليم العربية في غير بيئتها، وهي خبرة مهمة لمن يرغب في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها. فبعد أن بدأت بتدريس اللغة العربية في اليابان، اختلفت تجربتي إلى حدّ كبير، فقد كنت أعلم اللغة العربية من نقطة مركزية محددة وفي إطار اللغة وقالبها الحقيقي، في قالب لم يكن يأخذ بالاعتبار بشكل جيد زاوية المتعلم الذي يأتيني بنسيج ومكونات معرفية وثقافية مختلفة جداً ليست لدي معرفة واضحة وعميقة حولها رغم أني كنت أظن أن لدي معرفة لا بأس بها بالثقافة اليابانية، ولكن هناك فرق كبير بين أن تعلم اللغة في بيئتها، وبين أن تعلمها في بيئة المتعلم، وفي الحالتين لا يعد الأمر سهلاً لكثير من الاعتبارات التي

لن أتوقف عندها هنا. لقد تغيرت طريقة فهمي للمتعلم بشكل كبير، وبدأت أعرف بشكل أفضل ماذا أعلمه وكيف أعلمه اللغة العربية من منطق الخبرة والتجربة ومن منطق المعرفة العلمية بهذا المجال. لقد أصبح كل سلوك وكل سؤال يصدر عن المتعلم موضوع بحث يتطلب مني التوقف عنده وفهمه لأبني عليه نتائج تساعدني على تحسين جانب في تعليم العربية للناطقين بغيرها، وقررت حينها ألا يمر موقف مهم بدون تفسير تبنى عليه نتائج علمية فأصبحت قاعدتي: واسألهم (أيها المعلم) كيف يفكرون!!!، ولا أعني بما سبق أن تعليم العربية في بيئة المتعلم ومجتمعه أفضل من تعليمها في بيئتها، وإنما أقصد بذلك أن فهم المعلم لطبيعة المتعلم وثقافته يؤثر إلى حد كبير على تعليم اللغة، وتحسين مخرجاتها.

أعود للقاعدة الجديدة التي كنت قد بدأت بتطبيقها منذ سنوات، وهي سؤال المتعلم عن سبب اتجاهه للبحث عن فكرة أو موقف أو موضوع معين، وقد كنت أعلم العربية لطلاب يكتبون أبحاث التخرج أو أبحاث الماجستير أو الدكتوراه حول العالم العربي والإسلام وغير ذلك، لأكتشف حينها أثر الكلمة وأثر الموقف وأن الكلمة عندما تنساب على ألسنتنا وتجد مستقرها في عقول لم تألف المعاني التي تلقتها، تكتب لها ولادة ودورة حياة جديدة، فتكون محط بحث وتدقيق وتمحيص ومقارنة، فإما أن تحدث إيقاعاً عذباً محبّباً إلى النفس، وتحيا حياة طويلة وتستمر في اكتناه عالم جديد بحب وفضول معرفي قوي، وإما أن تحدث نفوراً ولَفظاً تتوقف معه دورتها الحياتية وتخمد بدون أثر. فللكلمة إيقاعها وللمعنى سحره وللموقف قوته وقدرته على تحريك نفوس قد استقرّت طبيعتها وتحددت معالمها.

إن كلمة بسيطة أو موقفاً قد يكون عادياً وطبيعياً بالنسبة لنا ربما يكون له أثر كبير لدى الآخرين وبخاصة ممن هم من لا ينتمون إلى نفس ثقافتنا ولم يعرفوا طبيعتنا. فمن الجميل أن نُعمِل مداركنا العقلية والوجدانية عندما نرغب في أن نرسل رسالة أو أن نحدث أثراً، ومن الجميل أيضاً أن نطلق نفوسنا على سجيتها، فنفكر ونتصرف كما اعتدنا،كي يتعرف علينا الآخرون بشكل طبيعي.

قد يكون كل ما نقوله أو نقوم به أو كل تفصيل صغير من خصوصياتنا الثقافية محطّ ملاحظة وتساؤل واستغراب، ولكن إذا أردنا حقيقة أن نعرف كيف يفهمنا الآخرون من أبناء الثقافات الأخرى وماذا يحبون أن يعرفوا، فعلينا أن نحاول أن نضع أنفسنا مكانهم لنعرف كيف يفكرون وكيف يستقبلون ما نقول وما نفعل، وأن نساعدهم ونروي فضولهم المعرفي بالشرح والإيضاح للجوانب التي قد تكون موضع تساؤلهم واستغرابهم، فإن الكلام والتوضيح يجلو ما في الفكر ويخرج ما استقر في الذهن من أفكار متضاربة أو غامضة أو غير منتظمة. فلنلق نظرة على ما تجلوه قاعدة واسألهم كيف يفكرون من معانٍ من خلال بعض المواقف التي لفتت انتباهي مع بعض الطلاب اليابانيين.

واسألهم كيف يفكرون!!! سؤال تهادى إلى ذهني مرات كثيرة عندما تقافزت على لسان رحاب (الاسم العربي لهذه لطالبة اليابانية) تساؤلات كثيرة حول معنى مفهوم العبادة لدى المسلمين، فكنا كلما جلونا فكرة وأوضحنا معنى تراءت لنا أسئلة أخرى، إذ إن رحاب أخذت تبحث وتقرأ في مدى صلة هذا المفهوم بحياة المسلم اليومية وكيف يؤثر فيها، كما أخذت تقارن بين طبيعة الحياة اليابانية وحياة المسلمين.

إن الكلمة عندما تنساب على ألسنتنا وتجد مستقرها في عقول لم تألف المعاني التي تلقتها، تكتب لها ولادة ودورة حياة جديدة

واسألهم كيف يفكرون!!! سؤال تهادى إلى ذهني عندما رأيت وجه إسراء مراراً (الاسم العربي لهذه لطالبة اليابانية) تعلوه ملامح الدهشة حول أن القرآن الكريم أجمل كلام عربي، فانبرت منذ أن عرفت ذلك تبحث وتستكشف سر جمال القرآن الكريم، وإن ذلك قادها إلى ولوج علم البلاغة للبحث عن أسباب جمال القرآن الكريم.

واسألهم كيف يفكرون!!! سؤال تهادى إلى ذهني مرات كثيرة حينما كانت ترتسم دائماً على وجه هَنا (الاسم العربي لهذه لطالبة اليابانية) الابتسامة عندما أخاطبها وأخاطب الطالبات الأخريات (صباح الخير/ صباح الورد أيتها الجميلة .. يا حلوات ونحو ذلك من العبارات التي تحمل معنى اللطف والتودّد التي نستخدمها باستمرار في حياتنا اليومية)، وعندما سألتها عن سبب ابتسامتها لدى سماعها لذلك، أجابت بأنها تحب المخاطبة بهذه العبارات كثيراً، وأنهم للأسف(حسب تعبيرها) لا يستخدمونها أو لا يستخدمون عبارات مماثلة باللغة اليابانية، كما أن عبارات اللطف والتودد التي من هذا القبيل والتي تستخدم ضمن العائلة من الأبوين للأولاد أو من الأبوين لبعضهما غير موجودة في ثقافتهم، وهي تتمنى أن تستخدمها مع عائلتها و أصدقائها.

إن كثيراً من الطلاب الذين يدرسون العربية يكون لديهم شغف كبير بالتعرف على الثقافة العربية، وهم لا يألون جهداً بتتبع الكلمة والموقف من المعلم أو الناطق الأصلي باللغة، ولكننا حقيقة قد لا نستطيع أن نخمّن كيف يستقبل ذلك الطالب أقوالنا وأفعالنا، فهو أمر مرتبط بخلفيته المعرفية وبثقافته وحياته بشكل عام، وكل ما يمكننا أن نقوم به أن نبقى يقظين، وأن نعمل دائماً على الولوج إلى العالم الصغير الذي يكوّنه ذلك الطالب عن لغتنا وحياتنا وثقافتنا من خلال الحوار معه، وأن نساعده على تكوين الفكرة الصحيحة وفهم الموقف.

إننا كثيراً ما نطلق سجيتنا ونحن نخاطب أشخاصاً من ثقافات أخرى، فنرسل كلماتنا بعفوية حول أمور قد نعدّها من البدهيات، غير مفكرين في الكيفية التي تستقر بها تلك الكلمات في خاطر المتعلم المختلف عنا ثقافة وخلفية معرفية وفكرية. ولذا يصبح لزامًا علينا -ونحن نعلّم اللغة- أن نتأمل دائماً في وقع الكلمة وأثرها، لا في شكلها فقط.

إن روح اللغة لا تُكتسب بمجرد حفظ مفرداتها ولا تُفهم بمجرد تعلّم قواعدها، بل تُبنى بناءً متدرجاً متسلسلاً كما تُبنى الجملة في السياق، إلى أن يبلغ المتعلم تلك اللحظة التي يمتلك فيها إحساساً جميلاً باللغة وما تعبر عنه من ثقافة. إن هذا الوعي هو ما يحوّل تعليم العربية للناطقين بغيرها من عملية لغوية بحتة إلى رحلة ثقافية-إنسانية، تفتح أمام المتعلم آفاقاً جديدة وتبني له جسوراً إنسانية عابرة للغات والحدود، وتفتح أمام المعلّم بدوره باباً لفهم المتعلم بشكل أعمق.

جهود الإيسيسكو في خدمة اللغة العربية في إفريقيا

د. محمد خليفة

أستاذ مشارك
جامعة إفريقيا العالمية

السودان

تعمل الإيسيسكو لتمكين اللغة العربية محيطها الإقليمي والدولي الصعيد

ويرى الدكتور سالم بن محمد المالك المدير العام للإيسيسكو ن تمكين أ

بين

وينبغي ن ينهض كل الغيورين أ عليها بمسؤولياتهم التاريخية

من موقعه وحسب طاقته ومؤهلاته، وعلى

الجهد جل تمكين هذه اللغة

، واستعمالها وسع نطاق، أ

هذا العالم المتحول الذي نعيشه[1]

يناقش هذا

واشتر

هذا

مجال تعزيز الاهتمام باللغة لغير الناطقين بها من العربية تأسيس مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها، وما يقوم به من

القارة السمراء، وإنشاء المراكز والأقطاب

للمعلمين، و ،

، وبرامج مشكاة للتأهيل والتدريب المستمر، و

، وغيرها من المشاريع التي تنفذها الإيسيسكو منذ

مع

، كمجمع الملك سلمان حمدان بن راشد آل مكتوم للعلوم ، وغيرها،

آفاق

قارة إفريقيا

1 http://www.isesco.org.ma/ar/what-we-do/areas-of-expertise/arabic-center

ساهمت الإيسيسكو في دعم الكثير من المشروعات ذات الصلة بالتعليم الإسلامي واللغة العربية في إفريقيا وخارجها، وقدمت أشكالا مختلفة من جوانب الدعم العلمي والمعنوي، بجانب الدعم المادي سواء على الصعيد النقدي أو تأمين المستلزمات الضرورية في جوانب التربية والتعليم ونشر اللغة العربية.

فعلى مستوى الايسيسكو العام عقدت المنظمة عددا كبيرا من المنتديات والفعاليات حول اللغة العربية منها منتدى «اللغة العربية وصناعة المحتوى الهادف» الذي أوصى بضرورة رقمنة المحتوى العربي في مختلف المجالات الحيوية لتعزيز الإسهام العربي في مجتمع المعرفة، وصناعة محتوى عربي هادف يحظى بمصداقية، وتطويره بما يتناسب مع عراقة وأهمية اللغة العربية، والاستثمار في المحتوى المرئي لتقوية المكانة الدولية للغة العربية. (1)

وفي مطلع عام 2020 أطلقت الإيسيسكو مبادرة: «لغات إفريقيا، جسور الثقافة والتاريخ»، بهدف استخدام الحرف العربي في كتابة لغات المجتمعات المسلمة في إفريقيا، وتعزيز الأدوار الثقافية والاجتماعية والتربوية للّغات الإفريقية المحلية، ووصْل الشعوب الإفريقية بتراثها المكتوب بالحرف العربي، وتوفير منابر إعلامية باللغات المحلية في إفريقيا، وتحقيق مواكبة هذه اللغات للتكنولوجيا المعلوماتية، وإبراز متانة الروابط التاريخية بين اللّغة العربية واللّغات الإفريقية جنوبيّ الصحراء. (2)

ومن أبرز أشكال الدعم المادي الذي قدّمته الإيسيسكو في مجال تعليم اللغة العربية في إفريقيا : (3)

- أولا : إنشاء وتمويل المعاهد والمراكز المتخصصة.
- ثانيا: تقديم الدعم الفني والتقني للدول الأعضاء.
- ثالثا: دعم المشاريع الرائدة.
- رابعا: تقديم المنح الدراسية للطلاب.
- خامسا: إيفاد المعلمين المتخصصين.
- سادسا: دعم الموهوبين والمبدعين.
- سابعا: تمويل البحوث العلمية المتميزة.

في جانب إعداد وتطوير مناهج اللغة العربية؛ اعتنت الإيسيسكو عناية فائقة بالمناهج التعليمية إعدادًا وتطويرًا، واهتمت بإعداد مناهج اللغة العربية سواء على مستوى الدراسات والبحوث، أو على مستوى الأدلة التوجيهية للمعلمين، أو الوسائل التعليمية والتدرب عليها، أو على مستوى تأهيل خبراء المناهج، من أجل تنفيذ الخطة التعليمية المرسومة، لاسيما في المجتمعات غير الناطقة بالعربية، أو الجاليات المسلمة في بلاد الأقليات المسلمة، ومن أمثلة ذلك كتاب « الميسّر في تعليم اللغة العربية لأبناء الجاليات الإسلامية في المهجر»، من منشورات الإيسيسكو وتأليف: الدكتور عزيز الحسيني، والدكتور عبد الله بناني. (4)

أما في مجال تكوين المدرّسين في المراكز والأقسام المتخصصة، وإدراكا من الإيسيسكو لأهمية البرامج التكوينية المستمرة وحاجة المدرّسين من خارج الدول العربية إلى تكوين مطوّل بدل الاقتصار على تنظيم دورات تدريبية أو إيفاد خبراء لفترات قصيرة، افتتحت المنظمة عددًا من المراكز التربوية، والأقطاب التدريبية، والكراسي الجامعية المتخصصة في مجال اللغة العربية والثقافة الإسلامية، من أبرزها:

إن تمكين اللغة العربية مسؤولية مشتركة بين الجميع، وينبغي أن ينهض كل الغيورين عليها بمسؤولياتهم التاريخية تجاهها

مركز الإيسيسكو التربوي في تشاد:

هو مركز تم إنشاؤه بموجب اتفاق بين الإيسيسكو وحكومة جمهورية تشاد سنة 1996، لمساعدة تشاد على بناء قدراتها الوطنية في مجال التعليم العربي تفعيلا لسياسة الثنائية اللغوية (عربية فرنسية) التي تبنتها تشاد في منظوماتها الإدارية والسياسية والتربوية وغيرها. وقد انطلق النشاط الفعلي لهذا المركز في سبتمبر 1998، ويتم فيه سنويًا تنفيذ ثلاثة برامج، أولها برنامج إعداد معلمي التعليم العربي لمرحلة الأساس، وثانيها برنامج الارتقاء بالمستوى العلمي والتربوي للمعلمين المعرّبين من حملة الشهادة الإعدادية، وثالثها برنامج تعليم اللغة العربية للقيادات الإدارية الناطقة بالفرنسية في تشاد. (5)

مندوبية الإيسيسكو بجمهورية القمر المتحدة :

نفذت هذه المندوبية الكثير من الأنشطة التربوية في مجال نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في جزر القمر، منها :

- عقد دورات تكوينية استفاد منها مسؤولون وإداريون كثر في جزر القمر؛
- عقد ندوات ومحاضرات في ضمن مشاريع ثقافية واجتماعية متنوعة؛
- الإشراف على برنامج تعليمي باللغة العربية في إذاعة جزر القمر، وعلى برنامج آخر باسم (مسامع قمرية).

وحرصا من الإيسيسكو على تفعيل الدور التربوي لمندوبيتها في جزر القمر، وخاصة في ما يتعلق بتأهيل مدرسي اللغة العربية

1 حساب الإيسيسكو على منصة إكس، الرابط: https://x.com/ICESCO_Ar/status/1953501398978396161 .

2 اللجنة الوطنية: الإيسيسكو تطلق مبادرة «لغات إفريقيا، جسور الثقافة والتاريخ»، اللجنة الوطنية الفلسطينية للتربية والثقافة والعلوم، 2020/4/21م، الرابط: https://www.pncecs.plo.ps/?p=7554 .

3 ماجد سالم السناني، جهود منظمة الإيسيسكو في تعليم اللغة العربية، أبحاث ودراسات الندوة العاشرة: الحرف العربي، الرياض: مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية ومعهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بالجامعة الاسلامية، 2014م، ص 214 .

4 ماجد سالم السناني، جهود منظمة الإيسيسكو في تعليم اللغة العربية، مرجع سابق، ص 215 .

5 المرجع السابق، ص 224، 225 .

في الجزر الثلاث (القمر الكبرى وأنجوان وموهيلي) تقوم المنظمة بشكل منتظم بإيفاد خبراء خارجيين إلى مقر المندوبية يشرفون على تدريب مجموعات من مدرسي اللغة العربية في البلاد. (6)

قطب الإيسيسكو في بنين:

تم إنشاء هذا القطب التدريبي للتميز بمجال اللغة العربية بالشراكة مع مؤسسة حمدان بن راشد آل مكتوم للعلوم الطبية والتربوية في سبتمبر 2022، وذلك في رحاب المعهد الجامعي ابن بطوطة الإفريقي في مدينة بورتو نوفو بجمهورية بنين، حيث تسعى الإيسيسكو من خلال هذا القطب إلى مساعدة جمهورية بنين على بناء قدراتها الوطنية في مجال التعليم العربي، والتأهيل المعرفي والتربوي لمدرسي اللغة العربية والأطر التعليمية فيها.

سعيًا نحو الانتقال إلى منظومات الأتمتة والرقمنة أنشأت الإيسيسكو منظومة «مشكاة» للتدريب في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها

وقد قام القطب منذ إنشائه بأنشطة وبرامج متنوعة مثل تكوين المكوّنين والمشرفين التربويين، وعقد عدد من الندوات والمحاضرات واللقاءات الثقافية حول اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية، والعلاقات الثقافية بين بنين والدول العربية، وبرامج تدريبية دوريّة لتأهيل المدرّسين العاملين في مختلف مراحل التعليم سواء الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية أو الجامعية، والاحتفاء السنوي باليوم العالمي للغة العربية وما يصاحبه من فعاليات متنوعة7.

قطب الإيسيسكو في نيجيريا:

أنشأت الإيسيسكو هذا القطب للتميز في أكتوبر 2022، وذلك في إطار توجّهات الإيسيسكو الاستراتيجية الداعية إلى تعزيز الاهتمام بالبرامج التربوية الكبرى التي من شأنها تلبية حاجات الدول الأعضاء والإسهام في تحقيق أهداف المنظمة، وذلك بالشراكة مع مؤسسة حمدان بن راشد آل مكتوم للعلوم الطبية والتربوية، واحتضنته مؤسسة قرية اللغة العربية انغالا بجمهورية نيجيريا الاتحادية.

ويسهر القطب على تنفيذ برامج تدريبية وتأهيلية شاملة ومستديمة في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها تستفيد

منها القيادات التربوية الوطنية والمدرّسون والطلاب، فضلا عن عقد الندوات والمحاضرات، والاحتفاء باليوم العالمي للغة العربية، وغيرها وهو ما من شأنه أن يسهم في الارتقاء بمكانة اللغة العربية ويعزّز أدوارها التربوية والثقافية في جمهورية نيجيريا الاتحادية8.

كرسي البحث والتجديد البيداغوجي لتطوير التعليم العربي في غينيا:

قامت الإيسيسكو عام 2022 وبالشراكة مع مؤسسة حمدان بن راشد آل مكتوم للعلوم الطبية والتربوية بإنشاء كرسي البحث والتجديد البيداغوجي لتطوير التعليم العربي في غينيا في رحاب جامعة الجنرال لانسانا كونتي في غينيا كوناكري، إسهامًا في تطوير برامج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في غينيا، وتشجيعًا للبحث العلمي التخصصيّ خارج أوطان العربية من المنظور اللسانيّ العلميّ، والمنظور التربويّ التعليميّ، والمنظور الثقافيّ الاجتماعيّ.

أهداف الكرسي:

- تعميق البحث العلمي والتربوي في قضايا اللغة العربية للناطقين بغيرها في جامعة الجنرال لانسانا كونتي وفي غيرها من الجامعات الغينية؛
- تطوير المقاربات والمناهج والوسائل لتعليم اللغة العربية في إطار الخصوصيات الغينية؛
- إغناء الدراسات اللغوية التقابلية بين اللغة العربية واللغات الوطنية والمحلية في غينيا؛
- تعزيز مكانة اللغة العربية بين اللغات الأجنبية المدروسة في الجامعات الغينية؛
- التعريف بالتراث الأدبي والعلمي والثقافي المدوّن باللغات المحلية المكتوبة بالحرف العربي؛

6 نفسه، ص 227 .

7 مركز اللغة العربية للناطقين بغيرها، موقع الإيسيسكو، تاريخ الدخول: 2025/10/2م، الرابط: https://icesco.org/ar/what-we-do/areas-of-expertise/arabic-center/ .

8 المرجع السابق.

• تشجيع الحوار عبر اللغة العربية بين الثقافات وأتباع مختلف الديانات في غينيا؛

• التعريف بأعلام الحضارة العربية الإسلامية ماضيًا وحاضرًا؛

• التعريف بوسطية الإسلام وعطاءاته الحضارية وقيمه الإنسانية السمحة؛

• دعم البحث العلمي باللغة العربية في الأوساط الجامعية الغينية 9.

منظومة مشكاة وبرامجها في المنطقة الإفريقية:

تشهد تقانة المعلومات والاتصالات تطورات مستمرّة بنسق سريع مذهل، وانتشارًا متزايدًا لاستعمالها في مختلف المجالات، ومن أبرز منتجاتها تقنية الاتصال المرئي التي تَمكَّنَ من خلالها ملايين البشر من المشاركة في آلاف الاجتماعات عن بُعْدٍ، والاستفادة من مضامينها في شتى الموضوعات والمجالات، وكذا تمكَّنت البشرية حكوماتٍ ومؤسساتٍ ومجتمعاتٍ، من تأمين الاستمرارية اللازمة لكثير من النشاطات ذات الطابع الجماعيّ التشاركيّ، من مثل النشاطات التربوية والتعليمية والتكوينية والتدريبية. وسعيًا نحو الانتقال إلى منظومات الأتمتة والرقمنة والنشاطات ذات الطابع التكاملي بين الحضوري والافتراضي، أنشأت الإيسيسكو عام 2022 منظومة «مشكاة» للتدريب في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها، وذلك بهدف تمكين العاملين في هذا المجال من تحقيق استفادة أشمل من البرامج التدريبية والتأهيلية التي هم في أمسّ الحاجة إليها، والتي صارت تتيحها ميسّرة تقانة المعلومات والاتصالات عبر تقنية الاتصال المرئي، وغيرها من التقنيات الرقمية والوسائل السمعية البصرية.

افتتحت المنظمة عددًا من المراكز التربوية، والأقطاب التدريبية، والكراسي الجامعية المتخصصة في تشاد، وجزر القمر، وبنين ونيجيريا، وغينيا

أهداف المنظومة:

• تحقيق استفادة منتظمة لأعداد كبيرة من أطر تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من الآليات الحديثة للتدريب والتأهيل التربويين؛

• تنمية الكفايات التعليمية ومهارات التكنولوجيا التربوية لدى مدرّسي اللغة العربية للناطقين بغيرها؛

• إغناء البرامج التربوية الوطنية في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها بمناهج تعليمية ذات طابع دولي؛

• بناء علاقات تعاون وتنسيق وتكامل بين المؤسسات العاملة في مجال التدريب التربوي لمدرّسي اللغة العربية للناطقين بغيرها؛

• توسعة آفاق الشراكة الأكاديمية مع مجموعة متميزة من مؤسّسات التدريب التربوي المتخصّصة في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها.

• الجهات المستفيدة:

• مراكز الإيسيسكو التربوية وأقطابها التدريبية وكراسيها الجامعية في مجال اللغة العربية؛

• مؤسسات التعليم العربي في الدول الأعضاء الناطقة بلغات أخرى (من خلال اللجان الوطنية ووزارات الاختصاص فيها)؛

• مؤسسات تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في الدول غير الأعضاء.

• واستفاد من برامج مشكاة مئات الأطر التربوية والتدريسية من دول إفريقية مختلفة في مجال تعليمية اللغة العربية للناطقين بغيرها 10.

مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها:

تأسس هذا المركز عام 2020 وفق رؤية الإيسيسكو الجديدة؛ كي يكون مركزًا للريادة الدولية في التأهيل التربوي وبناء القدرات الوطنية والمؤسسات والأفراد في مجال تعليم اللغة العربية وتعلمها للناطقين بغيرها، وتعزيزها ودعم نشرها وتعزيز مكانتها وحضورها عالميًّا، وبهدف تمكين اللغة العربية في محيطها الإسلامي وعلى الصعيد الدولي، وتوفير المشورة والخدمات التربوية والعلمية لفائدة المؤسسات والأفراد، ومواكبة المستجدات التربوية والتقانية واستثمارها في تطوير برامج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

تمكن المركز من تحقيق العديد من المخرجات والمكاسب منها: تحقيق انتشار أوسع للغة العربية على الصعيد الدولي، وتطوير العرض التعليمي الموجَّه إلى الطلاب الناطقين بغير العربية وتنوعه، واستخدام أشمل وأنجع للتقانة التعليمية في برامج تعليم العربية للناطقين بغيرها، بما يحفز الطلبة لتعلمها، ويوسع حضورها عالميا، ويعمل لإنشاء مراكز تربوية وطنية وإقليمية متخصصة في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها في الدول الأعضاء والمجتمعات المسلمة خارج العالم الإسلامي، ودعم المراكز المتخصصة التي أنشأتها الإيسيسكو من أجل توطين القدرات التربوية في المجال، كما نشط المركز في الدراسات التخصصية في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وتطوير البحوث والنشر، وتوفير برامج تدريب للمعلمين، وغيرها.

ويواصل مركز اللغة العربية للناطقين بغيرها في الإيسيسكو إصدار سلسلة دراسات أكاديمية في مجال تعليم اللغة العربية

9 المرجع السابق.

10 المرجع السابق.

للناطقين بغيرها، في إطار مشروع «الدراسات التخصصية»، الذي يشرف عليه المركز، ويهدف المشروع إلى تعزيز حضور منظمة الإيسيسكو في مجال البحث العلمي والنشر، وتعميق البحث العلمي والتربوي، ومواكبة المستجدات التربوية والمعرفية في مناهج تعليم اللغة العربية ومقرراته ووسائله التعليمية، وتوثيق علاقة المركز بالباحثين المتخصصين في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من داخل الدول الأعضاء وخارجها، كما قام المركز بإصدار مجلته التخصصية المحكّمة للغة العربية وأصدر منها أربعة أعداد إلى اليوم.

شراكات الإيسيسكو لخدمة اللغة العربية:

من أبرز شراكات الإيسيسكو في خدمة اللغة العربية في إفريقيا وخارجها شراكته مع مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، الذي يعمل على دعم اللغة العربية في المنظمات الدولية من خلال مشروعات وبرامج وأنشطة متنوعة في منظمات كالأمم المتحدة واليونسكو والإيسيسكو والألكسو، ويبذل جهودا ترمي إلى دعم تعليم اللغة العربية، وتعزيز حضورها عالميًّا، والمساهمة في تطوير استراتيجيَّات تعليمها وفق أفضل الممارسات التعليمية الدولية؛ انسجامًا مع رؤية المجمع في تمكين اللغة العربية عالميًّا وتعزيز البحث والتطوير في مجالاتها المختلفة.

وقد أنتجت هذه الشراكة للإيسيسكو مع مجمع الملك سلمان العديد من المشاريع الكبرى مثل مشروع تقرير «حالة تعليم اللغة العربية في العالم»، وهو التقرير الأول من نوعه في دراسة واقع تعليم العربية في الدول الناطقة بغيرها، وكان له أثره الكبير في تطوير السياسات والاستراتيجيات التي تسهم في تحسين جودة التعليم، وتحليل الوضع الراهن لمراكز تعليم اللغة العربية وتعزيز انتشارها، والتغلب على التحديات التي تواجهها.

عرض التقرير تحليلًا شاملًا لأكثر من (300) مؤسسة تعليميّة في (30) دولة، بالاعتماد على مناهج علميّة ومعايير دقيقة لضمان دقة النتائج وموثوقيتها، وتضمَّن التقرير بيانات تفصيلية عن هذه المؤسسات التعليمية تشمل عدد أعضاء هيئة التدريس، وأعداد المتعلّمين، والمناهج الدراسية، وآليات التدريس، والتقنيات المستخدمة، وطرق التقييم، فضلا عن تحليل القيمة المهنيّة للخرّيجين، كما رصد التقرير أبرز التحديات التي تواجه تعليم اللغة العربية، واقترح حلولًا عمليّة لتطوير السياسات التعليميّة وتعزيز التنسيق بين الجهات المعنيّة. (11)

الإيسيسكو ومشروع كتابة اللغات الإفريقية بالحرف العربي:

أبرز أهداف هذا المشروع تنميط الحرف العربي وتكييفه صوتيًا وتقنيًا لكتابة لغات الشعوب المسلمة المتعددة، والمحافظة على تراثها الحضاري، وتنمية لغاتها وثقافاتها وتمكينها من مسايرة الثورة العلمية والتقانية، ومحاربة الأمية وفق المنظور الثقافي المتسق مع عناصر الهوية وبالحفاظ على التنوّع الثقافي، وكان من ثمار هذا الجهد وضع الأبجدية العربية الإفريقية التي أثبتت صلاحيتها، عبر الدورات التدريبية، لكتابة نحو (30) لغة إفريقية وآسيوية، قابلة للزيادة، وشهد البرنامج تطورًا ملموسًا تمثّل في حوسبة هذه الأبجدية واستحداث البرامج الطباعية الحاسوبية، وبرامج تحويل النصوص من الأبجدية اللاتينية إلى الأبجدية العربية الإفريقية، واتسع المشروع ليتم في إطاره استحداث دبلومين علميين، وسيط وعال، يؤهلان الدارسين للحصول على شهادتي الماجستير والدكتوراه، إلى جانب استحداث كراسي علمية للحرف القرآني في عدد من الجامعات الإفريقية والآسيوية. (12)

> **تأسس مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها وفق رؤية المنظمة الجديدة؛ كي يكون مركزًا للريادة الدولية في التأهيل التربوي وبناء القدرات الوطنية**

ساهمت جهود الإيسيسكو عبر هذا المشروع في المحافظة على التراث الحضاري لكثير من الشعوب الإفريقية التي كانت تستعمل الحرف العربي في كتابة أبجديتها، وتنمية لغاتها وثقافاتها وتمكينها من مسايرة الثورة العلمية والتقانية، ومحاربة الأمية وفق المنظور الثقافي المتسق مع عناصر الهوية وبالحفاظ على التنوّع الثقافي، وقد شاركت الإيسيسكو في مشروعاتها للحرف العربي العديد من المؤسسات مثل مركز البروفسور يوسف الخليفة بجامعة إفريقيا العالمية بالسودان، والبنك الإسلامي للتنمية بجدة، ومنظمة الدعوة الإسلامية، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية وغيرها، ومكّنت هذه الشراكة من وضع الأبجدية العربية الإفريقية التي أثبتت صلاحيتها، عبر الدورات

11 مجمع الملك سلمان العالمي للُّغة العربيَّة يُصدر تقرير (حالة تعليم اللُّغة العربيَّة في العالم) بالتعاون مع (الإيسيسكو)، موقع مجمع الملك سلمان للغة العربية، 1446/8/30.. الرابط: https://shorturl.at/sBPvd

12 محمد خليفة صديق، الحرف العربي .. بين المُهددات والفُرص، صحيفة اللغة العربية، شوهد: 2025/10/6م، الرابط: https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=11556 .

ساهم مشروع الإيسيسكو لكتابة اللغات الإفريقية بالحرف العربي في المحافظة على التراث الحضاري لكثير من الشعوب الإفريقية

التدريبية، لكتابة عشرات اللغات الإفريقية، وشهد البرنامج تطورًا ملموسًا تمثّل في حوسبة هذه الأبجدية واستحداث البرامج الطباعية الحاسوبية وبرامج تحويل النصوص من الأبجدية اللاتينية إلى الأبجدية العربية الإفريقية.

استشراف جهود الإيسيسكو في خدمة اللغة العربية:

استشراف جهود الإيسيسكو في خدمة اللغة العربية يكون بأن تركز المنظمة على استثمار التقنيات الحديثة والذكاء الاصطناعي في تطوير نماذج تعليمية وبرمجيات وتطبيقات حاسوبية لخدمة اللغة العربية وتسهيل تعلمها، وأن تسعى لمواكبة المستجدات التربوية والتقنية لتعزيز دور اللغة العربية، والاهتمام بالتدريب والتأهيل بتعزيز الصلات مع الجامعات لتأهيل أطر قادرة على حمل أمانة خدمة اللغة العربية، كما تبرز الحاجة لتعزيز التفكير الاستشرافي في خدمة اللغة العربية بتشجيع الإيسيسكو على تصور السيناريوهات المحتملة لمستقبل اللغة العربية والتخطيط لها بشكل استباقي، من خلال ورش عمل وتمارين متخصصة، يعقدها مركز الاستشراف التابع للإيسيسكو.

ولا يمكن الحديث عن مستقبل مشرق للغة العربية في إفريقيا والعالم دون الحديث عن ضرورة تبنّي صيغ متطورة لرعاية مؤسسات تعليم اللغة العربية في إفريقيا، وإعانتها بالدعم العلمي والفني والمادي الذي يمكّنها من مواكبة التطور الكبير الذي يحدث دائما في ميدان تعليم اللغات، ودعوة الدول العربية إلى بذل جهود دبلوماسية لتوطيد أواصر العلاقات مع الأقطار الإفريقية، وتوقيع الاتفاقيات العلمية والفنية التي تيسّر نشر العربية وتعليمها وتعلّمها في هذه الأقطار، وزيادة عدد مؤسسات تعليم اللغة العربية في إفريقيا؛ حتى يتمكن كل راغب في تعلّم العربية من الحصول على تعلّم فعّال وكافٍ، وضرورة تكوين هيئات فنية وإدارية تشرف على مؤسسات تعليم اللغة العربية، وبخاصة تلك التي تعاني مشكلات ضعف الإشراف الفني والإداري أو عدم وجوده أصلا.

تحتاج جهود الإيسيسكو لخدمة اللغة العربية في إفريقيا لاستكمال ما بدأته باستقطاب الدعم من الدول والمنظمات العاملة في مجال التعليم، بهدف تهيئة البيئة التعليمية للمدارس العاملة في خدمة اللغة العربية، ومدّها بوسائل التدريس الحديثة، وتحفيز معلمي اللغة العربية لأداء دورهم بكفاية عالية. كما تحتاج جهود الاهتمام بالحرف العربي في

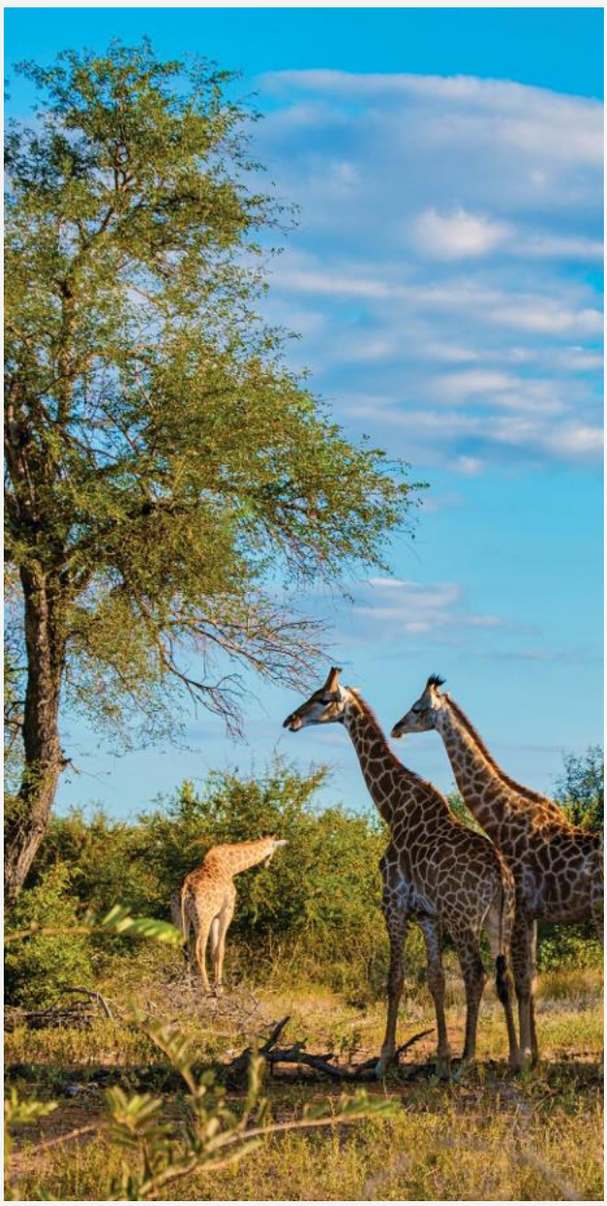

إفريقيا للاجتهاد في مراجعة ما تُقدِمه كل أنواع الحواسيب من أنواع وأشكال الخطوط العربية، والضغط لإعادة تصميمها من قبل اختصاصيين وخطّاطين عرب لضمان احترافيتها، في الدول المنتجة والمصدّرة للحواسيب والهواتف والأجهزة اللوحية بضغط من المؤسسات والشركات العربية التي تستورد هذه الحواسيب والهواتف والأجهزة. (13)

كما ينبغي الحرص على أن تكون كتب تعليم العربية أو مناهجها لتعليم العربية للناطقين بغيرها، تراعي في تصميمها التعليميّ الظروف البيئية المحلية بكل دولة أو إقليم معيّن؛ لتسهيل وصول المعلومة لذهن الطالب، فضلا عن تدريب معلمي اللغة العربية في معاهد متخصصة في إعداد معلمي اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى.

13 المرجع السابق.

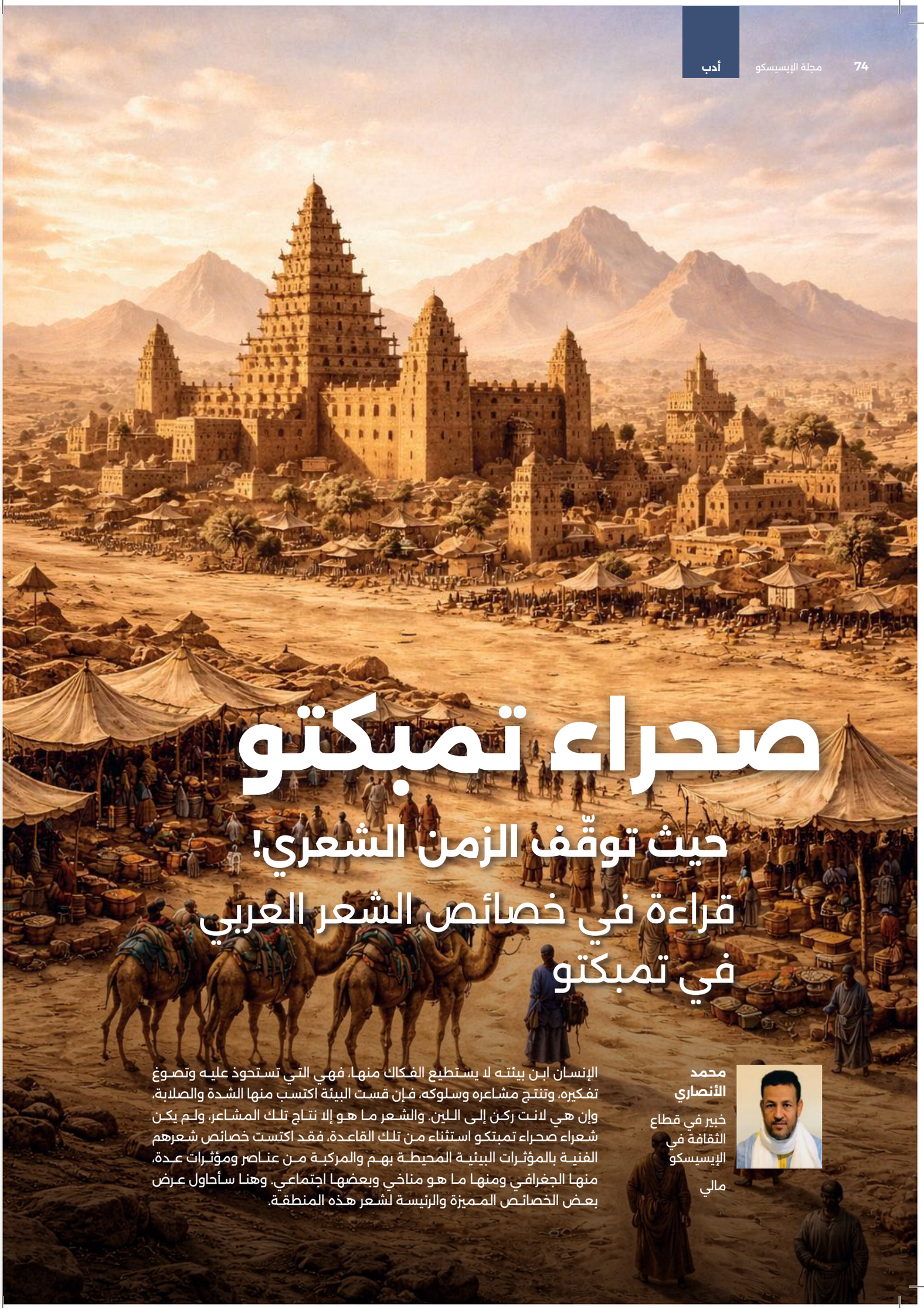

صحراء تمبكتو

حيث توقّف الزمن الشعري!

قراءة في خصائص الشعر العربي في تمبكتو

محمد الأنصاري
خبير في قطاع الثقافة في الإيسيسكو
مالي

الإنسان ابن بيئته لا يستطيع الفكاك منها. فهي التي تستحوذ عليه وتصوغ تفكيره، وتنتج مشاعره وسلوكه. فإن قست البيئة اكتسب منها الشدة والصلابة، وإن هي لانت ركن إلى اللين. والشعر ما هو إلا نتاج تلك المشاعر، ولم يكن شعراء صحراء تمبكتو استثناء من تلك القاعدة، فقد اكتست خصائص شعرهم الفنية بالمؤثرات البيئية المحيطة بهم والمركبة من عناصر ومؤثرات عدة، منها الجغرافي ومنها ما هو مناخي وبعضها اجتماعي. وهنا سأحاول عرض بعض الخصائص المميزة والرئيسة لشعر هذه المنطقة.

المناخ الصحراوي وقسوته

كثيرا ما عرفت مدينة تمبتكو بجوهرة الصحراء أو جوهرة الرمال التي تكاد تبتلعها لولا صراع سكانها، إذ تقع المدينة على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، وإذا كان هذا هو حال المدينة الممتلئة بالعمران والأشجار والتي تقع على بعد كيلو مترات من النهر فما عساه يكون حال بواديها مع هذه الرمال، حيث لا يستر سكانها منها سوى خيامهم. وليست الرمال فقط هي الوجه القاسي من أوجه الصحراء، وإنما طقسها الحار صيفًا والبارد الجاف شتاء. كل هذه الظروف القاسية تتطلب جلدا وصبرا من السكان للتكيف معها. وقد انعكس ذلك على شعرهم، فاكتسب من صلابة إرادتهم بعض الخصائص الفنية مثل الجزالة والقوة، ومن الأمثلة على ذلك قول الشيخ والشاعر المحمود بن حماد في المدح[1]:

فإن وفدت إلى محمود ملتجئًا — فنعم ملجأ من ضاقت مقاصده

يكسو الأرامل ديباجًا وشائنه — بُردًا من الدم حد السيف سارده[2].

ويقول الشيخ والشاعر محمد المختار بن حوّد الأنصاري في مدح وجيه من وجهاء المنطقة اسمه التائي[3]:

فلما وصلنا صوب ميم وجدتها — بها التائي هش ذو فخار ونائل

فتى لم يدنّس عرضه بؤس دهره — فتى كمُلت أخلاقه غير خامل

أبى الله إلا أن يكون سميدعًا — سبوقًا إلى فرع العلا المتطاول[4].

كما أدت هذه البيئة إلى طرق عدد من الأغراض الشعرية التي تكاد تندثر في العصور الحديثة، مثل وصف المهامه والفيافي، يقول الشاعر عثمان الأنصاري في وصف فلاة في قصيدة طويلة[5]:

> **ليست الرمال فقط هي الوجه القاسي من أوجه الصحراء، وإنما طقسها الحار صيفًا والبارد الجاف شتاء. كل هذه الظروف القاسية تتطلب جلدا وصبرا من السكان للتكيف معها**

كم من فلاة مهيل ظهرها غشيت — وجهي بأهوال عصف الجوّ والشبم[6]

فلا تَرى العين إلا ما يخوّفها — كالتّرس في شبهٍ والبحرِ في طمم

لكن ترى الوحشَ في بحر الفلاة رعت — وجُدْجدا بدل الحيتان والبلم[7]

أمسيت فيها أمجّ البقل من عطشٍ — إبّان قيظ مكان الماء والرّخم[8]

وكذلك وصف الإبل، فهذا هو الشاعر محمد المختار بن حوّد الأنصاري يبدأ مقطوعته في مدح الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حين لقيه في مكة، بوصف الناقة[9]:

ألا من لي بعنس جلمزيز — تساعدني بنص أو هزيز[10]

هَمَلّعةٍ مضمّرة جزول — برجليها إذا ملعتْ نهوز[11]

فتبلغني إلى ملك كريمٍ — رفيع المنتمى عبد العزيز

ويقول وهو يصف جملًا[12]:

فلما رأيت الشوق لا بد قاتلي — نهضت إلى أقتاد أعوج بازل[13]

هبل كأن الرحل فوق سراته — على قارح من ماء كروس ناهل[14]

البداوة وحياة الترحال

يعيش غالبية سكان صحراء تمبتكو في البوادي ينتجعون الغيث في موسمه، ويقتفون أثر الكلأ، ويقصدون موارد الماء. وفي فصليْ الربيع والصيف يحتمي بعضهم بحوض نهر النيجر

1 السوقي، أحمد محمد الإدريسي، المدارس الأدبية في صحراء الطوارق، ص: 196

2 البدرات جمع بَدْر وبَدْرة ويُجمعُ أيضا على بُدور ويدَر وهو كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 444. واللجين: الفضة. المرجع السابق، ص: 1587

3 د. القشاط، محمد سعيد، نماذج من الشعر العربي في الصحراء، ص: 29

4 السميدع: السيد الكريم الشريف السخي الموطأ الأكناف، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 942

5 الدالي، الهادي المبروك، من روائع أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء، ص: 18

6 الشبم: الماء البارد.

7 الجدجد: نوع من الجراد أو الأرض الصلبة، والبلم صغار السمك.

8 الرخم: اللبن الغليظ القوام.

9 السوقي، أحمد محمد الإدريسي، المدارس الأدبية في صحراء الطوارق، ص: 152

10 العنس: الناقة القوية، والجلمزيز: الصلبة الغليظة، والنّص: نوع من السير وهو السير الرفيع، والهزيز: سير الناقة بحركة وخفة. الأنصاري، أحمد بن عبد الله، الأنصاري، صديق عبد الباقي، الشعر الأنصاري وتاريخه في مراحله الثلاث، ص:397

11 الهملّعة: الناقة السريعة، والمضمرة: الهضيمة البطن، والجزول: الجميلة التامة الخلق، ملعت: مرت مسرعة، والنهوز: السريعة النهوض. الصفحة والمرجع السابقين.

12 المرجع السابق، ص:393

13 الأقتاد: جمع قَتَد وهو الرحل، والبازل من الإبل: ما خرج سِنّها التاسع وهو الأخير. المرجع السابق.

14 الهبل: من الإبل الضخم المسن منها. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 1382.
والسراة: الظهر، المرجع السابق، ص: 1670.
والقارح: الناقة في أول حملها، والجمع قوارح وقرح. الأنصاري ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب (2/ 559).
وكروس: ماء في منطقة تنبتكو.

وجزره من لهيب الصحراء، ولقد كان لحياة الترحال تلك أثر كبير على خصائص الشعر في المنطقة وأغراضه. ومن ذلك ظاهرة الوقوف على الأطلال ووصفها والبكاء عليها كما هو الحال في الشعر الجاهلي. ولا شك أن تلك الظاهرة قد اندثرت في الشعر العربي منذ زمن بعيد إلا أنها لا تزال حيّة عند شعراء صحراء تمبتكو، يقول الشاعر الشيخ محمد بن الطاهر بن محمد بن أحمد بن قطب الأنصاري[15]:

لاحت لريًّا بسفح الطود أطلال كأنها من برود الوشي أسمالُ[16]

دار تكنّفها من كل ناحية مع الحماية أمواهٌ وأجبال[17]

وقال الشيخ أحمد البكاي الكنتي[18]:

يا صاح عج بالجمال على الربوع البوالي

ديار سلمى قديما من الليالي الخوالي

غيداء جيداء رؤد كالشمس عند الزوال.[19]

وقال الشاعر عبد الله (حمّاتا) بن محمد المختار (حمتّال) [20]:

لمن الطلول على شفير المنهل كدريس بزة عائل متبذل[21]

أرختْ عليها كل مزن ردنها وألح عنها كل جون حومل

ومن هذه الخصائص التي فرضتها حياة البداوة والتنقّل ذكرُ أماكن سكنى المحبوبة. يقول الشاعر محمد بن يوسف يعدد مواضع مضارب محبوبته[22]:

يا دار هند بذات الطلح مهدومة مجت أفاوقها من فوقها ديمة

فذي (الأراني) إلى أعلام (ميم) إلى (غرام) فالرس من أنكور مرهومة[23]

الصراعات القبلية (شعر الحماسة)

تكاد منطقة تمبتكو تخلو من أي سلطة مركزية لقرون، وإنما كانت تضم سلطنات ذات طابع قبلي وعرقي، تتحالف فيها قبائل عدة أحيانا لتنشئ إمارة أو سلطنة تدير مصالح جماعتها، وأحيانًا أخرى تتولى قبيلة واحدة تنظيم أمر كهذا إن هي وجدت في نفسها القدرة والعدد الكافي. عيش هذه الإمارات في منطقة واحدة أو مناطق متقاربة ينتج عنه تنافس وحزازات تصل إلى المواجهة والقتال. ولقد أضافت هذه المواجهات غرضًا آخر لشعر صحراء تمبتكو لم يكن مألوفاً في العصر الحديث ألا وهو شعر الحماسة والفخر الذي غذته الحروب القبلية التي ابتعدت عن روح الإسلام وأضحت لونًا من ألوان الجاهلية.

15 الأنصاري، أحمد بن عبد الله، الأنصاري، صديق عبد الباقي، الشعر الأنصاري وتاريخه في مراحله الثلاث، ص:363.

16 الطود: الجبل العظيم أو المشرف من الرمل. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 378. والبرود: جمع بُرد وهو الثوب المخطط. المرجع السابق، ص: 341. والوشي: نقش الثوب، المرجع السابق، ص: 1730. والأسمال: جمع سمل وهو الثوب الخلق البالي. المرجع السابق، ص: 1313.

17 تكنفها: أحاط بها. المرجع السابق، ص: 1099.

18 د. القشاط، محمد سعيد، نماذج من الشعر العربي في الصحراء، ص: 55

19 الغيداء: المتثنية لينًا. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 389. والجيداء: الطويلة العنق. المرجع السابق، ص: 351. والرؤد: الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء. الأنصاري ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب (3/ 169).

20 د. القشاط، محمد سعيد، نماذج من الشعر العربي في الصحراء، ص: 14، وقد نسب القشاط هذه الأبيات إلى محمد المبارك بن محمد المختار، وهو خطأ وإنما هي لأخيه عبد الله الملقب بـ (حمّاتا) كما أثبتنا هنا.

21 الدريس: هو الثوب الخَلق. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 701.

22 السوقي، أحمد محمد الإدريسي، المدارس الأدبية في صحراء الطوارق، ص: 185.

23 أسماء مواطن المحبوبة وأماكن سكناها.

ومن الأمثلة على شعر الحماسة والفخر ووصف المعارك قول الشاعر أحمد سالم بن السالك مفتخرا بشجاعته وممجّدا قبيلته بني الحاج وواصفًا معاركها[24]:

وعصابةٍ تغشى الخنا عنّفتـــها وزجرتها عن غيّها وضلالهـــا

وكتائبٍ شعثٍ عوابسَ بُسّـــلٍ ألبستُها بكتائبٍ أمثالـــــها[25]

ولكم صددت الخيل عن أهوائها ودماؤهن تفور من أكفالهـا[26]

وطعنت فارسها المدجّج طعنةً صاحت حلائله لوسع مجالها

وتركت آخر بعده متجـــــــدلا تمكو فرائصُه لهتك وصالها[27]

الغزل بالأسلوب الجاهلي:

يمكننا القول إن أهم خصيصة من خصائص الشعر في صحراء تمبكتو هي التأثر بالشعر الجاهلي بشدة، بل النقل الحرفي منه أحيانًا[28]. وربما حال ذلك دون استقلالية شعر المنطقة، وكأنَّ الشعراء أرادوا بهذا التأكد من الامتثال للنموذج العتيق للقصيدة العربية، وقد كان من نتائج ذلك ابتعادهم عن الأنواع الجديدة من الشعر مثل شعر التفعيلة والقصيدة النثرية، فكأنهم أقرب إلى نهج الإحيائيين أمثال البارودي وشوقي في الحفاظ على بنية القصيدة القديمة مع التشدد أكثر في الالتزام بمعجمها وأغراضها وتقاليدها الفنية عمومًا. وربما يرجع الفرق بين الإحيائيين وشعراء تمبكتو إلى جهة التأثر ومصدره، فمعلوم أنَّ الإحيائيين تأثروا بالقصيدة العباسية عند أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري، وأمَّا شعراء تمبكتو فقد تأثروا بالقصيدة الجاهلية .وهذا التأثر

24 الدالي، الهادي المبروك، من روائع أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء، ص: 27

25 الكتائب جمع كتيبة وهو تنظيم عسكري أو فصيل عسكري. وشعث: جمع أشعث: المغبر الرأس، والذي يظهر عليه عناء السفر. والعوابس: جمع عابس وهو القطوب الجبين. المرجع السابق، ص: 27

26 تفور في أكفالها: تجري في أعجازها، وهو تعبير عن شدة المعركة. المرجع السابق، ص: 27

27 متجدلا: ساقطًا، صريعًا، من الضربة. وتمكو: بمعنى تصفرّ. والفريصة: ما بين الكتف والضلوع. الصفحة والمرجع السابقين.

28 السوقي، أحمد محمد الإدريسي، المدارس الأدبية في صحراء الطوارق، ص: 182

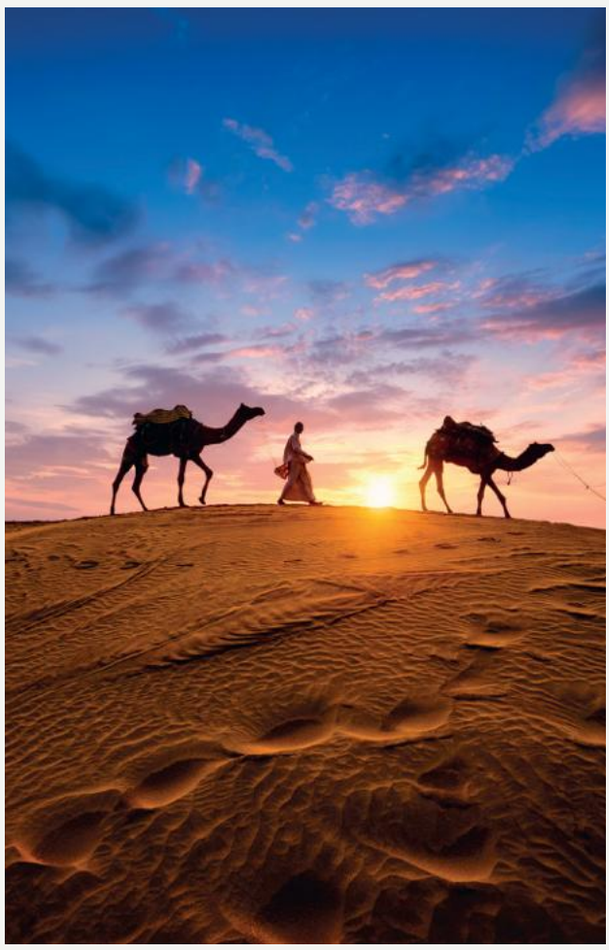

مردُّه البيئة، كما ذكرنا، وأهمُّ من ذلك ربما مناهج الدراسة الأدبية في الصحراء التي تركز على الشعر الجاهلي وعيونه كالمعلقات ونحوها.

ولأن المناخ يفرض نفسه على كل مناحي الحياة كما أسلفنا، فقد تشابه سكان صحراء تمبتكو مع أسلافهم في الجزيرة العربية إبّان العصر الجاهلي في عدد من الأمور، لذا كان مقياس جمال المرأة عندهم لا يختلف عن مقياس جمالها لدى شعراء الجاهلية وصدر الإسلام[29]، يقول أحمد البكاي الكنتي في قصيدة له[30]:

طرقت نفيسة والدجى لم ينجـــل وسنان من طول السرى في الهوجل[31]

تغشى الضحى من وجهها اليلين منْ فرعٍ لها أحْـوى أحـــــمَّ مُرجّـــــلِ

وَحْـفٍ أثيثٍ وارِدٍ مُعْلَنْـــكِسٍ جَثْلٍ جُفَـــالٍ فاحِمٍ مُتَرسِّـــــل[32]

29 الأنصاري، أحمد بن عبد الله، الأنصاري، صديق عبد الباقي، الشعر الأنصاري وتاريخه في مراحله الثلاث، ص:192

30 د. القشاط، محمد سعيد، من نقائض الشعراء العرب في الصحراء، ص: 23

31 السنة: النعاس من غير نوم. الأنصاري ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب: (13/ 449).
والهوجل: المفازة الذاهبة في سيرها. والهوجل: المفازة البعيدة التي ليست بها أعلام والأرض التي لا معالم بها، المرجع السابق: (11/ 690).

32 الوحف الشعر الأسود، المرجع السابق: (9/ 352). والأثيث: الشعر الغزير الطويل، المرجع السابق: (2/ 110). الوارد من الشَّعَر: الطويلُ المُسْتَرْسِلُ، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 415.
أعلنكس: اجتمع. واعلنكس الشعر: اشتد سواده، وشعر معلنكس ومعلنكك: الكثيف المجتمع الأسود. الأنصاري ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب: (6/ 147).
الجثل: الشعر الكثير الملتف، وقيل: هو من الشعر ما غلظ وقصر، وقيل: ما كثف واسود، وقيل: هو الضخم الكثيف من كل شيء. المرجع السابق: (11/ 100). والجفال من الشعر: المجتمع الكثير، المرجع السابق: (11/ 115).

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من التأثر بالشعر الجاهلي وبخاصة معلقة امرئ القيس، وهاك مثالًا آخر، إذ يقول الشيخ محمد الفقي الشنهاري[33]:

طرقت نفيسة بعد نوم الهجع — في دجن ليل ذي كرى لم ينجع
غيداء جيدا من حسان خرد — بل من مها ربع الروابي الرتع[34]
أحسن برمية مقلة ترمي بها — عن قوس نون لم تخط بأصبع
وبأشنب أحوى أحم مفلج — عذب المذاقة كالحليب المنقع[35]
وغدائر سود أقل عقاصها — قدنهيدلا كقنوأينع[36]

ويقول الشيخ والشاعر محمد المختار الأنصاري[37]:

ربع لغانية سهدت لذكرها — فاغرورقت عيني بدمع مسبل
درماء عبْهرة شموع طفلة — تنفي الكروب على ضمير هبركل[38]
خمصانة قبّاء خود بضة — رقراقة مرمارة من مجول[39]
ممكورة بهنانة عطبولة — عجزاء هنّاف أناة عيطل[40].

وهذه أوصاف لم يعهدها شعراء العصر الحديث وإنما الأوصاف التي اعتاد شعراء الجاهلية وصدر الإسلام إطلاقها على معشوقاتهم.

هذه تقريباً أبرز خصائص شعر صحراء تمبتكو وباديتها المترامية الأطراف. والحق أن هذا الجزء من العالم الإسلامي ذو باع طويل في ميدان الأدب والشعر المتماهي مع الشعر العربي القديم وخاصة منه شعر العصر الجاهلي، حتى لكأنّ شعرهم لا ينتمي إلى زمانه، والناظر المتفحص له ليجزم أنه شعر جاهلي أو أمويٌّ في أحسن أحواله.

لقد كان لحياة الترحال أثر كبير على خصائص الشعر في المنطقة وأغراضه. ومن ذلك ظاهرة الوقوف على الأطلال

وأخيرًا لعل من المناسب الإشارة إلى أن من أهم ما يميز شعر المنطقة أن شعراءها غالبًا ما يكونون من العلماء والأدباء المتحكمين في ناصية اللغة العربية وعلومها، ولهم قدم راسخة في علوم الفقه وأصوله والتفسير والتصوف وغيرها، وكان لذلك أثره الذي لا يخفى عن كل من تتبع شعرهم.

33 السوقي، أحمد محمد الإدريسي، المدارس الأدبية في صحراء الطوارق، ص: 233.

34 الخرد: جمع خريدة وهي البكر، وقيل: هي الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة المتسترة، الأنصاري ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب: (3/ 162).

35 الشنب مُحَرَّكَةً: ماءٌ، ورِقَّةٌ، وبَرْدٌ، وعُذُوبَةٌ في الأَسْنانِ، أو نُقَطٌ بيضٌ فيها، أو حِدَّةُ الأَنْيابِ تَراها كالمِنْشارِ، القاموس المحيط، ص: 132.

36 العقاص عقيصة، والعقص: أن تلوي الخصلة من الشعر، ثم تعقدها ثم ترسلها. لسان العرب (7/ 56)

37 الأنصاري، أحمد بن عبد الله، الأنصاري، صديق عبد الباقي، الشعر الأنصاري وتاريخه في مراحله الثلاث، ص:391.

38 الدرماء: التي غطى اللحم عظم مرفقها وكعبها. والعبهرة: الممتلئة الجسم الرقيقة البشرة الناعمة. والشموع: الجارية الآنسة الضحوك. والطفلة: الناعمة. والهبركل: القوي. الصفحة والمرجع السابقين.

39 خمصانة: ضامرة البطن. والرقراقة: الممتلئة أو الناعمة. مرمارة: ترتجّ عند القيام. والمجول: ثوب صغير للفتيات الصغيرات. الصفحة والمرجع السابقين.

40 ممكورة: ممتلئة الساقين مستديرتهما. البهنانة: الطيبة الرائحة الحسنة الخلق. العطبولة: الطويلة العنق. والإهناف: ضحك فيه فتور و. والعيطل: الطويلة مع حسن الجسم. الصفحة والمرجع السابقين.

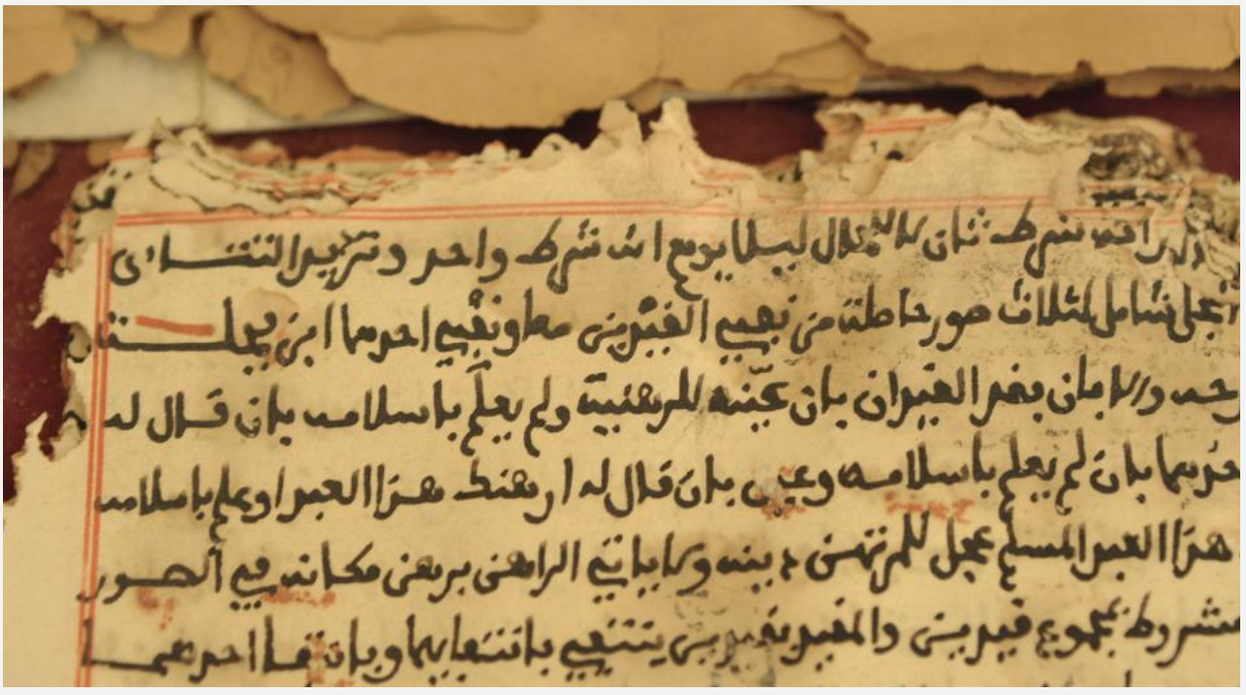

رِبَاطُ الْفَتْحْ

د. أنس حسام النعيمي

خبير في مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها

العراق

«رِبَـــاْطَ الْفَتْحِ» يَـــــا خَيْرَ الْبِـــــلَادِ ... وَيَـــاْ حَسْنَـــاءُ قَدْ مَلَكَـتْ فُـــؤَادِي

فَمِـــنْ غَرْبٍ سَمِعْـتُ لَهَـا هَدِيْـــلاً ... بِشَرْقِ الأَرْضِ أَنْغَـــــامًا تُنَـــادِي

فَهَـامَ الْقَلْـبُ حُبًّـــا فِي هَـــوَاهَا ... «رِبَـــاْطٌ»، تِلْـكَ لِلْعُشَّـــاقِ حَـــادِي

تَزَلْـــتُ بِهَـــا بِـــلا أَهـــلٍ غَرِيْـبًـــا ... فَصَـــارَ الْكُلُّ أَهْلِـــيْ بِالْـــوِدَادِ

ذَوُو كَـــرَمٍ، وأَخْـــلَاقٍ، وَدِيْـــنٍ ... ذَوُو شَرَفٍ، وَأَمْجَـــادٍ تَـــلَادِ

هُنَا عَبَـقُ الحَضَـارَةِ لَيْـسَ يَفْـنَى ... هُنَـا التَّارِيْـخُ فِي سَهْـلٍ وَوَادِي

فَعَـاصِمَـــةُ الثَّقَافَـــةِ لا تُبَـارَى ... وَفِيْهَا العِلْـمُ مُنْطَلِـقُ الجَـــوادِ

هُنَـا سُرِجَـتْ خُيُـوْلُ الْفَـتْحِ فَجْـرًا ... لِتَصْنَـــعَ عِزَّنَـا فِي كُلِّ نَـــادِي

هُنَا «مُوْسَى» وَ«طَـارِقُ» سَطَّـرَاهَا ... «بِأَنْدَلُـــسٍ» مَلَاحِـــمَ لِلعِبَـــادِ

«رِبَـــاطَ الفَتْحِ»، عَاجِـــزَةٌ حُرُوفِـــي ... لِوَصْـفِ جَمَـالِ حَيِّـكِ والجَمَـادِ

«أبو رَقْـــرَاقَ» يَزْوِي كُـــلَّ صَـــادٍ ... وَمَـــوْجُ البَحْرِ يُقْبِـلُ فِي تَهَـــادِي

وأَحْيَـــاءٌ تَعُـــجُّ بِكُـــلِّ حَـــيٍّ ... وَأَسْـــوَاقٌ، وأَصْـــوَاتُ المَـــزَادِ

«رِيَـــاضٌ» ثم «أَكْـــدَالٌ»، «سُوَيْسِـــي» ... و«حَسَّـــانٌ» و «قَصْبَـــاءُ بِـــوَادِي»

حَبَاهَـــا اللهُ خَيْـــرَاتٍ حِسَانًـــا ... كِثَـارًا، لَيْـسَ تُحْصِيْهَـا الأيَـادِي

نَظَرْتُ لَهَـا وَفِـي عَيْـنَيَّ قَـوْلٌ ... أَذِيْعِـي السِّـرَ أَرَّقَـنِي سُهَـادِي

أَجَابَتْنِـي، وَقَالَـــتْ فِي حَيَـــاءٍ ... أُخَبِّرُكَ الحَقِيْقَـــةَ مَـنْ سِنَـــادِي؟

عَلِمْـتَ بأَنَّ لِـي عِشْرِيْـنَ أُخْـــتًا ... عَـدَا بَغْـدَادَ، يَسْكُـنَّ فُـــؤَادِي؟

«فَعَمَّـانٌ» و«خُرْطُـومٌ»، «دِمَشْـقٌ» ... «نُوَكْشُـوْطٌ»، «رِيَـاْضٌ» تِلْـكَ زَادِي

«طَرَابُلْـسٌ»، «كُوَيْـتٌ» و«الجَـزَائِرْ» ... «أبو ظَـبْيٍ» و«قَـاهِرةُ» الأَعَـادِي

«مَقَادِيْشُـوْ»،«وَجِيْبُـوْتِي»، «مُرُوْنِـي» ... «وَتُوْنُـسُ»، ثُمَّ «مَسْقَـطُ» لِلرَّشَـادِ

و«بَـيْرُوْتٌ»، وَ«صَنْعَـــا» لِلرِّجَـــالِ ... وَ«دَوْحَـةٌ» غَرَّدَتْ فِيْـهَا الشَّـوَادِي

«مَنَـامَةٌ»، ثُمَّ «قُـدْسٌ»، تِلْكَ فَـخْرٌ ... أُقَـبِّـلُ رأسَـهَـا، أُمُّ الـشِّـدَادِ

وَعَائِلَـتِي الكَبِيْـرَةَ لَسْـتُ أَنْسَـى ... ثَلاثِيْنَـا، وزِدْ خَمْسًـا، عِمَـادِي

قَـدْ امْتَـازَتْ بِعِـرقٍ أو لِسَـانٍ ... حَوَاضِـرُ نَـوَّرَتْ شَـتَّى البِـلَادِ

هُـوَ الإِسْـلَامُ ظَلَّلَنَـا بِشَـرْعٍ ... وقُـرآنٍ، ومَـنْ لِلْخَـلْقِ هَـادِي

فَأَعْجَبَـنِي مَقَـالٌ زَانَ حُسْـنًا ... فَغَازَلَـتُ الحَبِـيْـبَـةَ بِازْدِيَـادِ

عَرُوْسٌ، مَـنْ يُضَـاهِيْـهَا جَمَـالًا ... سِوَى بَغْـدادَ مِنْ أَرضِ السَّـوَادِ؟!!

النقاء العرقي.. حقيقةٌ أم وهم؟

عبد الله بن محمد الوابلي

كاتب رأي

السعودية

كم هي المفاهيم والأوهام الخاطئة التي توارثها البشر عبر آلاف السنين. ومن تلك الأوهام فكرة النقاء العرقي التي تأسست على اعتقاد خاطئ مفاده أن الشعوب والقبائل تنحدر من أسلاف مستقلة لكل منها. إلا أن هذا الادعاء، انهار تمامًا أمام حقائق علم الوراثة الحديث المدعومة بالأدلة الدامغة. فقد كانت البشرية في حالة حركة وهجرة واختلاط دائم، مما جعل فكرة وجود عرق نقي لكل شعب ولكل قبيلة أمرًا مستحيلًا من الناحية البيولوجية، والبحث عن ذلك يعتبر من قبيل الترف الفكري. فالشعوب والقبائل في جوهرها هي تكوينات اجتماعية وثقافية، تطورت وتغيرت عبر الزمن، وليست وحدات بيولوجية ثابتة ومتجانسة كما يتوهم البعض. وإن إقحام النصوص الدينية في غير سياقها لتبرير طروحات عرقية أو إثبات نقاء سلالة ما، هو إساءة فهم لمقاصد تلك النصوص السامية وتوظيفها في غير سياقها الصحيح. وكان أحد أبرز منظري هذه الخرافة في القرن التاسع عشر، هو الطبيب الأمريكي «صامويل جورج مورتون 1799 - 1851م» الذي يعد «الأب الروحي للعنصرية العلمية» من خلال جهده في جمع الجماجم وقياس أحجامها، حيث قام بتصنيف البشر إلى خمسة أعراق، واضعاً العرق «القوقازي» على قمة هرم الذكاء والحضارة، بينما وضع ذوي البشرة السمراء في أدنى مرتبة [1] و [2].لم تكن هذه التصنيفات بريئة أو موضوعية، بل كانت انعكاساً للتحيزات العرقية السائدة في مجتمعه، وتم استثمارها بشكل منحرف لتبرير العبودية والتمييز العنصري في الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية. وهكذا تم توظيف العلم بشكل انتقائي ومغلوط لخدمة أجندات سياسية واجتماعية قائمة على الظلم. استمر هذا الإرث المسموم لعقود، وتطور في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلى ما يعرف بحركة «تحسين النسل Eugenics» والتي روجت لفكرة أن الصفات البشرية المرغوبة يمكن تحقيقها من خلال التكاثر الانتقائي، بينما يجب منع «غير المرغوب فيهم» من التكاثر. وقد أدت هذه الأفكار إلى قوانين

تعقيم قسري في العديد من الدول الغربية [3]، واستهدفت الأقليات العرقية والفقراء وذوي الإعاقة. وبلغت هذه الحركة ذروتها المأساوية في محارق النازية في ألمانيا (1941 – 1945م) [4]، وفي حملة الإبادة الجماعية في رواندا (1994م) [5].. إنها مذابح أدت في واحدة من أحلك فصول التاريخ الإنساني إلى إبادة كل من اعتبروا أعراقاً دنيا أو «ملوثة» للنقاء المزعوم. إن تفكيك هذه المفاهيم الخاطئة هو الخطوة الأولى نحو فهم الحقيقة العلمية التي تؤكد أن البشرية عائلة واحدة متنوعة، وأن محاولات تقسيمها إلى أعراق «نقية» وأخرى «هجينة» لا تعدو كونها أسطورة متهافتة لا أساس لها من الصحة، بل هي أداة خطيرة للفرقة والصراع.

لفهم لماذا عُدُّوا النقاء العرقي خرافة؟ يجب أن نعود إلى قصة البشرية منذ بدايتها، حيث يؤكد علم الوراثة السكانية أن أصل جميع البشر المعاصرين (Homo sapiens) يعود إلى قارة أفريقيا، حيث ظهر الإنسان الحديث قبل حوالي (300.000) عام [6] و [7]. وإذا كانت البشرية قد خرجت من أفريقيا وتفرعت إلى سلالات جينية (Haplogroups) مختلفة انتشرت في أنحاء المعمورة، فكيف تشكلت الشعوب التي نعرفها اليوم؟ وهل كل شعب ينتمي إلى عرق جيني واحد؟ الإجابة القاطعة هي: لا. فالشعوب ليست كيانات بيولوجية نقية، بل هي «تجمعات سكانية» تشكلت عبر التاريخ نتيجة عوامل متعددة. في البداية، كانت المجموعات البشرية صغيرة وتعتمد على الصيد، وكانت في حالة ترحال دائم. ومع بداية تطور الزراعة قبل حوالي (10.000) عام، [8]، بدأ البشر في الاستقرار وتكوين مستوطنات بشرية. فالشعب العربي – مثلًا - هو في الأساس تعريف لغوي وثقافي، وليس عرقياً، أما مقولة أن أصل العرب من اليمن، أو تقسيم العرب إلى قحطانيين وعدنانيين فهو تصنيف اجتماعي وتاريخاني، لكنه لا يعكس بدقة التعقيد الجيني والتاريخ السكاني لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا الذي يكشفه علم الوراثة الحديث، الذي أبان أن الأصول الجينية للعرب أكثر تنوعًا وتشابكًا من هذا التقسيم الثنائي.

إن تفكيك هذه المفاهيم الخاطئة هو الخطوة الأولى نحو فهم الحقيقة العلمية التي تؤكد أن البشرية عائلة واحدة متنوعة

فالشعوب العربية اليوم هي خليط متنوع جينيًا بشكل كبير. ولا يوجد «جين عربي « أو» جين كردي» أو «جين فارسي» أو «جين تركي» أو «جين قبطي» أو جين أمازيغي» نقي، بل هناك تحورات مختلفة لسلالات جينية ذكورية مشتركة. وتشترك الشعوب العربية والقبطية والإيرانية والكردية والتركية في السلالات الجينية (J) وعمرها (42.900) عام [9]، والسلالة و(E) وعمرها (65.200 – 73.000) عام [10].، والسلالة ((T وعمرها (30.000 -40.000) عام، والسلالة (R) وعمرها (-27.000 35.000) عام. وهنا يأتي علم الوراثة ليفند وهم النقاء الجيني للعرق اليهودي، حيث كشفت التحاليل الجينية أن اليهود ينحدرون من عدة سلالات جينية منفصلة عن بعضها، منها (J1 و J2 و E1b1b و R1a و R1b و I1] (G] و[12] هذا من جهة الشعوب،

أما من جهة القبائل فإن الفكرة السائدة التي ترى أن كل قبيلة تنحدر من صلب جدٍ واحدٍ مشترك هي فكرة تبسيطية للغاية إن لم تكن ساذجة، وغالباً ما تنطلق من موروث شعبي أكثر منها حقيقة بيولوجية. فالقبائل، مثلها مثل الشعوب، هي في الأساس «تحالفات» سياسية واجتماعية تكونت عبر التاريخ لضرورات أمنية ومعيشية مُبَرّرَةٍ في وقتها. حيث تبدأ القبيلة بنواة عائلية صغيرة،

تتهاوى أسطورة النقاء العرقي أمام الأدلة الدامغة لعلم الوراثة الحديث والتاريخ والأنثروبولوجيا

ولكنها سرعان ما تنمو وتتوسع من خلال انضمام مجموعات أخرى إليها عن طريق الحلف، أو المصاهرة، أو الولاء، وهذا يعني أن القبيلة الواحدة الكبيرة اليوم هي في الحقيقة فسيفساء من عشائر وبطون من أصول جينية مختلفة، توحدت تحت اسم واحد لظروف تاريخية معينة. حيث تؤكد فحوصات الحمض النووي (DNA) هذه الحقيقة بشكل قاطع. ففي العديد من القبائل الكبرى في جميع القوميات، التي يُعتقد أنها من صلب مشترك، وُجد تنوع كبير في السلالات الجينية بين أفرادها. على سبيل المثال: قبيلة قريش (العربية) على الرغم من ارتباطها تاريخياً بالسلالة J1 (التي تُعَدّ السلالة «العربية» الرئيسية)، إلا أن الفحوصات أظهرت وجود سلالات أخرى بين العائلات التي تنتسب إلى هذه القبيلة، مما يعكس دخول أحلاف وأفراد من أصول مختلفة في القبيلة عبر تاريخها الطويل الممتد لأكثر من (1500) عام. وقبائل أخرى لا يتسع المقال لذكرها، ينطبق عليها المبدأ نفسه. فكل قبيلة من هذه القبائل الكبرى تظهر «تكتلاً جينياً» سائداً (مثل J1)، ولكنه لا يسود بنسبة (100%) فدائماً ما نجد أفراداً وعائلات ينتسبون إلى هذه القبيلة تنحدر من سلالات أخرى (مثل E, G, R, T, Q)، وهم جزء معترف به من نسيج القبيلة وتاريخها [13]. وهذا التنوع دليل على أن مفهوم «الجد الجامع» للقبيلة هو في كثير من الأحيان رمز اجتماعي وثقافي يجمع تحت مظلته مجموعات متنوعة، أكثر منه عرقًا بيولوجيًا شاملًا لكل أفرادها [14]. لهذا فإن وهم النقاء القبلي لا يقل التباسًا عن وهم النقاء الشعوبي، فكلاهما لم يأخذ في عين الاعتبار الطبيعة الديناميكية للمجتمعات البشرية وتاريخها المليء بالتحالفات والهجرات. [15] وللإحاطة فإن الحمض النووي قد فرق بين السلالات الذكورية التي تنحدر من (Y- Chromosomal Adam) والسلالات الأنثوية التي تعود إلى «حواء الميتوكندرية (mt DNA Haplogroups) بمعنى أن الذكور يتبعون السلالة الجينية لآبائهم، بينما البنات يتبعن السلالة الجينية لأمهاتهن. وتبعًا لكل هذا تتهاوى أسطورة النقاء العرقي أمام الأدلة الدامغة لعلم الوراثة الحديث والتاريخ والأنثروبولوجيا، وإن الشعوب والقبائل التي نراها اليوم هي عبارة عن تكوينات اجتماعية وثقافية غنية بتنوعها، وليست سلالات بيولوجية نقية ومنعزلة. وهنا تبرز الأهمية الحقيقية لأبحاث الحمض النووي (DNA). التي يجب أن توجه نحو أهدافها العلمية البحتة لتخدم البشرية جمعاء.

إن أهمية بحوث الحمض النووي لا تكمن في رسم حدود جينية بين البشر فحسب، بل في فهم التاريخ المشترك بينهم، والأهم من ذلك، في حماية مستقبلهم الصحي. فتطبيقاته الطبية الواسعة والمتزايدة تَعِد بالكثير من الحلول لمشاكل صحية عويصة.

ختامًا، يجدر التوضيح أن هذا المقال ليس بحثًا علميًا حسب المفاهيم المهنية الدقيقة، وإنما قراءة استشرافية من منظورٍ أنثروبولوجي-اجتماعي عام.

المراجع

- [1] ميتشل، ب. (2018). الملاحظات المفقودة لحالة التحيز في علم عرق الجمجمة لصموئيل جورج مورتون.
- PLOS ، 16 (10): e2007008. https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC6171794/
- [2] جولد، س. (1978). ترتيب مورتون للأجناس حسب قدرة الجمجمة..
- https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/347573/
- [3] رايلي، بي آر (2015). تحسين النسل والتعقيم اللاإرادي:
- https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/26322647/
- [4] متحف الولايات المتحدة التذكاري للهولوكوست. مقدمة عن الهولوكوست. موسوعة الهولوكوست.
- https://encyclopedia.ushmm.org/content/en/article/introduction-to-the-holocaust
- [5] الأمم المتحدة. الإبادة الجماعية ضد التوتسي عام 1994 في رواندا.
- https://www.un.org/en/preventgenocide/rwanda/historical-background.shtml
- [6] متحف سميثسونيان الوطني للتاريخ الطبيعي. الإنسان العاقل. الأصول البشرية.
- https://humanorigins.si.edu/evidence/human-fossils/species/homo-sapiens
- [7] تمبلتون ، أ. (2002). الخروج من إفريقيا مرارا وتكرارا.
- https://www.nature.com/articles/416045a
- [8] ناشيونال جيوغرافيك. تنمية الزراعة.
- https://education.nationalgeographic.org/resource/development-agriculture/
- [9] ويكيبيديا. هابلوجروب جي (Y-DNA). https://en.wikipedia.org/wiki/Haplogroup_J_(Y-DNA)
- [10] ويكيبيديا. هابلوجروب E-M96. https://en.wikipedia.org/wiki/Haplogroup_E-M96
- [11] بيهار ، دي إم ، وآخرون (2003). أصول متعددة للويين الأشكناز: دليل الكروموسوم Y. PMC.
- https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC1180600/
- [12] فالك، ر. (2015). لا يمكن للعلامات الجينية تحديد النسب اليهودي. PMC.
- https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC4301023/
- [13] خالد أبو عمرو.، وآخرون (2009). تنوع الكروموسوم Y في المملكة العربية السعودية وعلاقته بسكان شبه الجزيرة
- العربية. علم الجينوم. BMC. https://bmcgenomdata.biomedcentral.com/articles/10.1186/1471-21
- [14] هارفارد جازيت. (2019). عالم الوراثة بجامعة هارفارد: لا يوجد حمض نووي نقي للسكان.
- https://news.harvard.edu/gazette/story/2019/02/harvard-geneticist-no-populations-dna-is-pure/
- [15] لوجان، إتش إل (2024). سوء فهم العرق كبيولوجيا له تأثير سلبي عميق على مرضانا وعلمنا. PMC.
- https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC11291859/

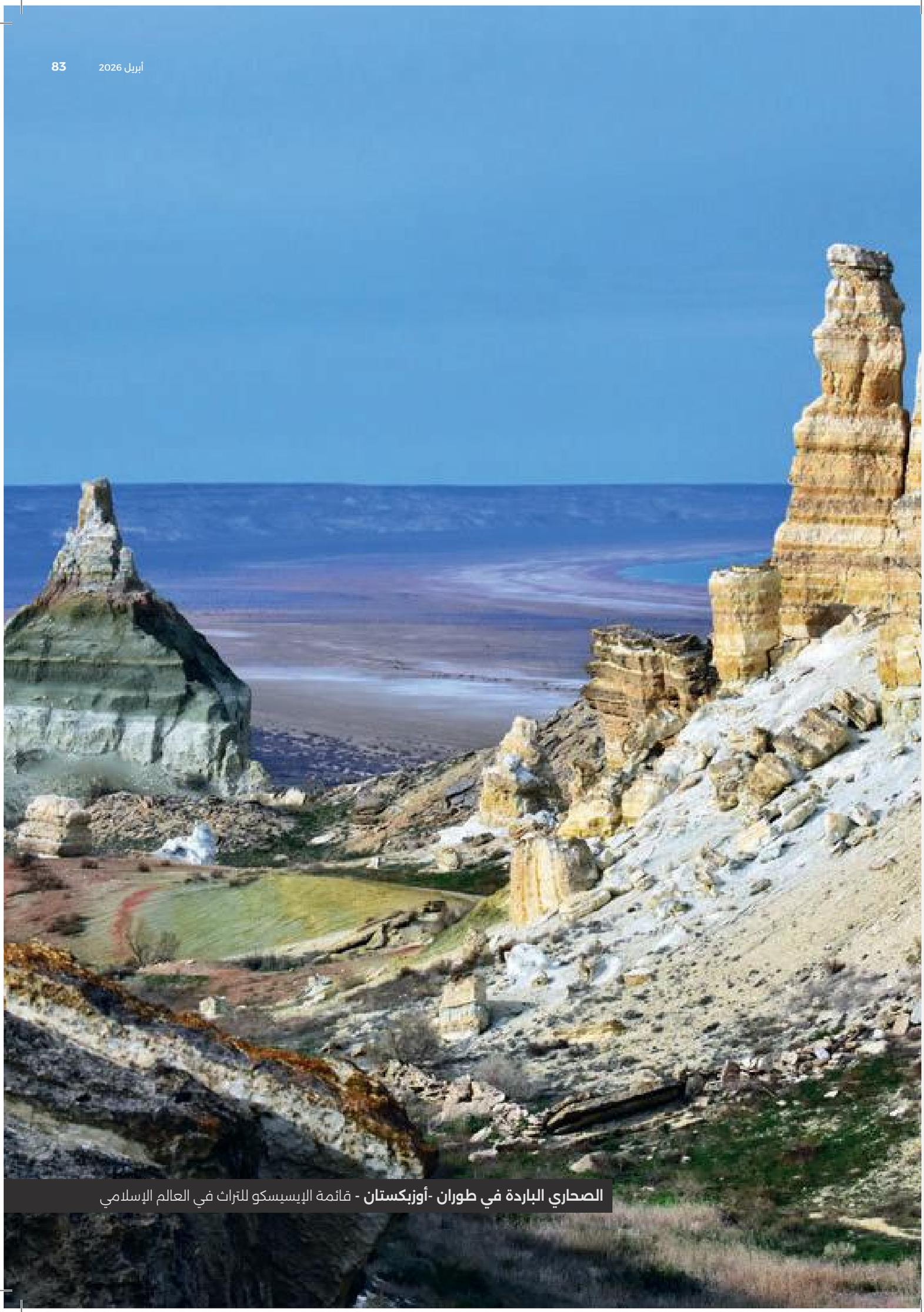

الصحاري الباردة في طوران -أوزبكستان - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

مـــصر
التي في خاطر الجـــــواهري

د. عبد الحسين شعبان
أكاديمي ومفكر
العراق

في الأصبوحة التي نظمتها مكتبة الإسكندرية العريقة احتفاء بصدور كتابي «جواهر الجواهري» دار سعاد الصباح، الكويت (2024)، توقفت في محاضرتي الموسومة «إبحار في أرخبيلات الجواهري، عند مصر التي في خاطر الجواهري.

تعود علاقة الجواهري بمصر إلى أكثر من 60 عامًا، ويمكنني هنا استحضار بعض محطاتها المهمة، فهو خلال حواراتي معه كان دائما ما يقول إن مصر هي مصر وهي أم الدنيا بالفعل، وصانعة المجد وصاحبة التاريخ العريق، ولو قدر لها أن تتوافق مع العراق أو أن يتوافق العراق معها، لكان قد تغير وضع الأمة العربية، لكن «أبو ناجي» لا يريد أي تقارب بين البلدان العربية، وخصوصا بين مصر والعراق. ويقصد الجواهري بأبو ناجي» «بريطانيا» التي كان العراقيون خلال الحرب العالمية الثانية يتندرون بهذه الكنية.

وبغض النظر عن السياسات واختلاف المواقف وبعض الحساسيات، فقد كانت مصر في خاطر الجواهري كما يُقال، وقد كتب من النجف قصيدة مهداة إلى الشاعرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في العام 1925، يقول فيها :

شوقي وحافظ « لا يَجُسُّ سواكما ... نَبْضَ القريض وما له من واق «

وفي العام 1932 كتب قصيدة إلى الشاعر حافظ إبراهيم مؤلفة من 53 بيتا من البحر البسيط، يقول في مطلعها :

نعوا إلى الشعر حُراً كان يرعاه ... ومَنْ يَشُقُّ على الأحرار منعاه

إلى أن يقول :

إنَّا فقدناه فقد العين مقلتها ... أو فقد ساع إلى الهيجاء يمناه

وكانت قصيدته إلى أحمد شوقي، الذي أطلق عليه لقب شكسبير العرب»، توثيقا في سجل الجواهري المصري، وقد ألقاها في الحفل التأبيني الذي أقامته الدائرة العربية في المدرسة الأمريكية في بغداد يوم الجمعة 11 تشرين الثاني / نوفمبر 1932. ونشرت في الكراس الذي أصدرته المدرسة المذكورة، والذي ضم ما ألقي في ذلك الحفل. وتتألف في الأصل من 87 بيتا من البحر المتقارب.

ويقول في مطلعها :

طوى الموت رب القوافي الغرز ... وأصبح «شوقي» رهينَ الحُفَرْ

إلى أن يقول:

شَكِسْبِيرٌ أُمَّتِهِ لَمْ يُصِبْ ... لَهُ بِالعِيِّ دَاءٌ ولا بالحَصَـــرْ

كان عيون القوافي الحسا ... ن من قبل كانت له تُدَّخَرْ

وإن أصدُقَنَّ فشوقي له ... عيون مِنَ الشِّعرِ فيها حَوَرْ

الجواهري وطه حسين والمعري

أما عن علاقة الجواهري (1900) - 1997) بطه حسين (1889 - 1973)، فكان المشترك بينهما أبا العلاء المعري، وهي تعود إلى العام 1944، وكان قد عرف عن طه حسين دراسته النقدية المعمقة والمستفيضة للتراث العربي، ومنها أطروحته للدكتوراه تجديد ذكرى أبو العلاء» وكتابه مع أبو العلاء في سجنه، وهو الذي شبهه بالرياضي والفيزيائي والفيلسوف الفرنسي بليز باسكال، الذي أسهم في إيجاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته الرسائل الريفية، مقاربة بينه وبين المعرّي في رياضة الفكر والفلسفة والابداع.

تاج القصائد

شاءت الصدف الجميلة أن يلتقي الكبيران طه حسين والجواهري في فعالية ثقافية عن المعري ثالثهم الكبير، وذلك في مهرجان أبي العلاء المعري الذي نظمه المجمع العلمي في سوريا في 25 أيلول / سبتمبر 1944 ، ولم يكن الجواهري يعرف عن المهرجان، إلا بعد وصوله إلى الشام، وبالطبع لم يكن يعرف بدعوته إليه أيضًا، حيث كان متوجها من بغداد إلى الشام بصحبة صديقيه ناظم الزهاوي وحسن الطالباني.

وكانت الدعوة قد وجهت إلى الجواهري وكل من طه الراوي ومحمد مهدي البصير لتمثيل العراق. حاول الجواهري أن ينظم قصيدة لكنها لم تعجبه فتركها، على الرغم من أنها مؤلفة من 70 بيتا، وعشية المهرجان اصطحبه الشاعر عمر أبو ريشة إلى زحلة، وهناك تفتقت شاعرية الجواهري، وهبطت عليه القصيدة في اللحظة الشعرية، وهكذا توهجت الحروف وأضيئت الكلمات بعد ريح خفيفة، تلك التي تسبق المطر أو تعقبه أحيانًا، فبدأ الجواهري يقرأ بعض أبيات قصيدته وكأنها كانت مكتوبة أمامه، واكتملت القصيدة ليلة المهرجان، وحين سألته أين تضع يا أبا فرات قصيدة المعري من بين شعرك : قال عنها إنها تاج القصائد»، ونشرت في جريدة الرأي العام العدد 1121 في 5 تشرين الأول / أكتوبر 1944 عدد الأبيات في الأصل 91 ، وهي من البحر البسيط، ويقول في مطلعها :

علاقة الجواهري بطه حسين تعود إلى 25 أيلول / سبتمبر 1944 حيث التقيا في مهرجان أبو العلاء المعري الذي نظّمه المجمع العلمي في سوريا

قف بالمعرة وامسح خَدَّها التربـا

واستوح مَنْ طَوَّقَ الدُّنيا بما وَهَبا

واستوح مَنْ طَبَّب الدُّنيا بِحِكْمَتِـهِ

ومَنْ على جرحها من روحه سكبـا

فما كان من عميد الأدب العربي إلا أن وقف طالبا من الجواهري إعادة هذا البيت، فأعاده الجواهري مرة واثنتين، فطلب منه طه حسين، إضافة ألف أخرى ليصبح البيت على هذه الصورة :

لثورة الفكـــر تأريـــخ يحدثنـــــا

بأن ألف ألف مسيح دونها صلبا

وعاد الجواهري لقراءة البيت مجددًا وسط تصفيق حاد، مجريا عليه تعديلات ليصبح كالآتي:

لثورة الفكر تاريخ يـــــذكرنـــــا

كم ألف ألف مسيح دونها صلبا

هذا بقية شعر العرب

بعد انتهاء الجواهري من إلقاء قصيدته، نهض طه حسين من مكانه، والتقى الجواهري بين المنصة والكرسيين اللذين يجلسان عليهما متجاورين، فخاطبه هذا بقية شعر العرب، بل إنه استمرارية وديمومة للشعر العباسي، ومعروف أن طه حسين كان قد آثار زوبعة من الجدل حول قراءته للشعر قبل الإسلام، أو ما

يسمى بالشعر الجاهلي، وقد صدر له كتاب بعنوان في الشعر الجاهلي في العام 1926 ، شكك فيه بالشعر الجاهلي وقال إنه تم انتحاله بعد انتصار الدعوة المحمدية لأسباب دينية وسياسية وقبلية، وفي الواقع فإنه قدم أسلوبا نقديا جديدًا للغة العربية وآدابها، يخالف ما هو متوارث منها، وقاد شيوخ الأزهر حملة ضده ، وقد اتهم في إيمانه، وفصل من الجامعة، حيث كان عميدًا لكلية الآداب (1932).

وبالعودة إلى اللقاء التاريخي، استمر طه حسين بمخاطبة الجواهري وهو يضع يده على كتفه قائلا: «أنت أشعر العرب، ويبدو أن عبارة شاعر العرب الأكبر أخذت تتردد وتوضع تعريفا للجواهري تأكيدًا على ريادته للشعر العربي الكلاسيكي، والجواهري كما يقول صلاح عبد الصبور: يمثل المرحلة الذهبية الأخيرة في الشعر العمودي الكلاسيكي، وقد سبق لسعدي يوسف أن قال: إنه الحلقة الذهبية في سلسلة الشعر العمودي، وهو الرأي الذي قال به عبد الوهاب البياتي أيضاً، وهكذا أصبحت عبارة شاعر العرب الأكبر مرادفة لاسم الجواهري منذ ذلك الوقت، وأخذت تترسخ بالتدرج.

يجتمع طه حسين مع الجواهري في التحدي والتناقض، فقد بدأ طه أزهريا كما بدأ الجواهري حوزويا، لكن كلاهما تأثر بالثقافة الغربية وتمرّد على الموروث

وفي لقاء خاص مع الجواهري في ثمانينيات القرن الماضي في دمشق (10) كاسيتات) نشرت بعضا منها في كتابي «الجواهري: جدل الشعر والحياة كما جرت الإشارة إليه، روى الجواهري لي كيف استقبل كلمات طه حسين الذي كان شديد الإعجاب به، وقال: نظرت إليه فوجدت الكثير من عناصر الشبه بينه وبين المعري رهين المحبسين» في البصر والبصيرة والذكاء والأدب والحكمة والإبداع، فملت عليه وهمست بأذنه قائلا: «أنت معري زماننا، والشيء بالشيء يذكر كما يقال، فقد أطلق الشاعر معروف الرصافي على المعري عبارة «شاعر البشر».

وفي وقت لاحق، كتب الجواهري قصيدة إلى طه حسين مؤلفة من 24 بيتا (نشرت في جريدة الرأي العام في 13 تشرين الثاني / نوفمبر (1944)، قال فيها :

أُحَيِّيكَ « طه « لا أطيل بك الشجعـــــــا

كفى الشجع فخراً محض إسمك إذ تدعى

وكان الجواهري قد ألقى هذه القصيدة بحضور نخبة فكرية وثقافية وأدبية من الوفود العربية المشاركة في مهرجان المعري في دمشق اجتمعت على مأدبة الدكتور طه حسين، دعاه فيها إلى زيارة العراق للمكانة التي يحتلها في نفوس مثقفيه. وبعد إلقاء هذه القصيدة، ألقى طه حسين كلمة مؤثرة جاء فيها: إن من البيان لسحرا، وإن الشعر لحكمة. لقد أفحمني الأستاذ الجواهري بهذا البيان الساحر الذي هو بقية البقية من التراث العربي الأدبي الصحيح، وبدعوته الكريمة إياي لزيارة العراق الذي أكن له في قلبي الحب والشوق، وإن كان قد قرنني بالمعري الذي لست ببالغ شأوه....

ثم زار الجواهري مصر مرة أخرى بدعوة من طه حسين كذلك، الذي كان وقتئذ وزيرا للمعارف، وكتب قصيدة إلى الشعب المصري» (شباط / فبراير (1951) ونشرت في جريدة «الأوقات البغدادية»، العدد 1، في 22 شباط 1951. وعدد الأبيات في الأصل 169، وهي من البحر الكامل، وكانت العلاقة قد ترسخت بين العملاقين، وحين ألقى الجواهري قصيدته اهتزت القاعة ودوت بالتصفيق :

يا مصر تستبق الدهور وتعـثر

والنيل يزخر والمسلة تزهـــــر

وبنوك والتاريخ في قصبيهما

يتسابقان فيصهرون ويُصـــهر

وإذا كان المعرّي، وهو صاحب اللزوميات»، شاعر الفلسفة وفيلسوف الشعراء، فإن كلا من الجواهري وطه حسين امتلك ناصية اللغة، وحفر فيها عميقا، فاللغة بمثابة وطن، بل إنها المفتاح للهوية، واللغة هي نسق من الرموز والإشارات تستخدم للتواصل ونقل الأفكار والمشاعر والانفعالات. وهي وسيلة إنسانية للتعبير وأداة معرفية واجتماعية ونفسية للتفاهم بين الأفراد والجماعات والشعوب بتفاعل الحضارات.

وقد كتب طه حسين والجواهري بشفافية جارحة، فالجواهري قاد سفينته في أرخبيلات الشعر غير عابئ بما حوله، وظل مخلصًا لروح الشعر في شاعرية متفردة بتناقضاته وتحدياته، رابطا كل ذلك الجمال بخيط من حرير بالغ الرقة والتماسك. أما طه حسين، الذي يجتمع مع الجواهري بالتحدي والتناقض، فقد بدأ أزهريا كما بدأ الجواهري حوزويا، لكن كلاهما تأثر بالثقافة الغربية وتمرد على الموروث، وكان طه حسين قد كتب في العشرينيات من القرن الماضي ثلاثة مؤلفات عن الشعر والفكر والنظام الأثيني، أما كتابه الأكثر شهرة فهو في الشعر الجاهلي الذي أشرنا إليه،

وهو يمثل رؤية جديدة متمردة على ما هو سائد، حيث لقي هجوما لاذعا ، واتخذت بحقه عقوبات إدارية من جانب التيار التقليدي المحافظ.

الجواهري وإن درس في مدرسة النجف الدينية، إلا أنه تمرد عليها، واستخدم الشعر سلاحا ماضيًا يواجه فيه القوى التقليدية، التي تريد حجب التنوير والتغيير باتجاه المدنية والحداثة، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر قصيدة «الرجعيون»، احتجاجا على معارضة بعض رجال الدين افتتاح مدرسة للبنات في النجف، والتي كتبها في العام 1929، نشرت في جريدة «العراق»، العدد 2851، في 26 آب/ أغسطس 1929 ، وعدد أبياتها في الأصل 40 وهي من البحر الطويل)، يقول في مطلعها :

ستَبقى طويلاً هذه الأزمـــاتُ

إذا لم تُقصِّرْ عُمرَها الصدَّمَاتُ

تحكَّمَ باسمِ الدّينِ كلُّ مذَمَّـمٍ

ومُرتكِبٍ حفَّتْ به الشُبُهـــاتُ

وما الدينُ إلا آلةٌ يَشهَرونـــها

إلى غرضٍ يقضُوـــنه، وأداة

هكذا اجتمع الجواهري وطه حسين والمعري تحت راية واحدة أساسها الحرية في نقد السائد من الأفكار، وإن تحملوا تبعات ذلك، فالمعري قضى 40 عاما رهين المحبسين رهين البصر والمكان، لكنه كان يتمتع ببصيرة استشرافية وقادة، كما كان طه حسين سابقا عصره على الرغم من إجباره على حذف 4 فصول من كتابه في الشعر الجاهلي»، وتحمله تبعات التشهير والعزل، وأمضى الجواهري عقودًا من الزمن في المنفى والغربة التي يطول فيها الزمهرير، على حد تعبير الشاعر مظفر النواب، بعد مقارعته لنزهات مجتمعه.

وكان الجواهري قد زار الإسكندرية في العام 1950 في مؤتمر المثقفين العرب، وحينها أعلن طه حسين أن الجواهري هو ضيف مصر، وكان يعرف ما يجري في العراق حينها.

لاسيما بعد مقتل شقيقه جعفر في العام 1948 في التظاهرة ضد معاهدة بورتسموث (جبر بيفن)، والتي هي على غرار صدقي - بيفن)، وكلاهما أسقطا بتحرك شعبي رافض للتبعية البريطانية، وهكذا أقام الجواهري نحو عام في القاهرة، ثم عاد بعدها إلى العراق.

كانت آخر زيارة للجواهري إلى مصر في العام 1992 بمناسبة مرور 100 عام على صدور مجلة الهلال. وكم ظل يردد : كنت أتمنى أن أعيش في مصر

وكان قد نظم الجواهري قصيدة بعنوان الدم الغالي» تحية إلى مقاومة الشعب المصري في السويس والاسماعيلية للاحتلال البريطاني المتمثل بالقواعد العسكرية (1951)، يقول فيها :

خل الدم الغالي يسيل ... إن المسيل هو القتيـــــل

هذا الدم المطلول يخ تصر الطريق به الطويـــــل

وقبل ذلك نظم قصيدة تحية لنجاح حكومة الوفد بإلغاء المعاهدة البريطانية - المصرية المبرمة في العام 1936 (1950)، وتتألف القصيدة من 162 بيتا، يقول في مطلعها :

سر في جهادك يحتضنك لواء ... نثرت عليه قلوبها الشهداء

وإبان العدوان الثلاثي الإنكلو - فرنسي الإسرائيلي كتب الجواهري قصيدة تضامنا مع مقاومة بور سعيد وضد العدوان، مؤلفة من 52 بيتا وقد نظمها في دمشق عام 1956، يقول فيها :

يا مَعدِنَ الخسة من تقاتل ... وفوق من تساقط القنابل؟

كنانة الله..» اسلمي إن المنى ... دونك لغو .. والحياة باطـل

وعشية العدوان الإسرائيلي في 5 حزيران / يونيو 1967 كتب الجواهري من مغتربه في براغ قصيدة عصماء فجر فيها غضبه وهي بعنوان «الخطوب الخلاقة، تتألف من 80 بيتا من البحر البسيط، يقول في مطلعها :

دع الطوارق كالأتُونِ تَحتَدِمُ ... وخَلِّها كَحَبِيكِ النَّسْجِ تَلتَحِـــــمُ

وخد مكانك منها غير مكترث ... أهوى بك الموجُ أَوْ عَلَّتْ بِكَ القِممُ

الجواهري وعبد الناصر

أما عن الجواهري وعبد الناصر، فقد كتب له بعد وفاته قصيدة بعنوان «ذكرى عبد الناصر، وكان الشاعر قد تلقى وهو في براغ دعوة من لجنة الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة جمال عبد الناصر، فنظم هذه القصيدة وألقاها في الاحتفال بالقاهرة سنة 1971، ونشرتها جريدة «الأهرام» في عددها الخاص. وتتألف القصيدة من 132 بيتا وهي من البحر الكامل.

جدير بالذكر أن ثمة قصيدة ميمية نشرها الجواهري إثر انقلاب شباط / فبراير 1963 موجهة إلى صديقه أمين الأعور، رئيس تحرير صحيفة المحرّر، الذي كان قد كتب مقالة مفادها سلمت يا عراق بسلامة دجلة والفرات والجواهري النهر الثالث، فما كان من الجواهري إلا أن أجابه بقصيدة غاضبة بعنوان «أمين» لا تغضب»

نشرتها في كتابي الموسوم «جواهر الجواهري، جوابًا على مقالته التضامنية، ونشرت في جريدة «النور» اللبنانية. وهي مؤلفة من 68 بيتاً من البحر السريع.

أمين خل الدم ينزف دما ... ودع ضرامًا ينبثق عن ضرام

وقصيدة «أمين لا تغضب لم تتضمنها الدواوين التي أصدرها الجواهري، وربما ندم عليها، حيث كان حينها يعيش في وضع نفسي سيء وحالة زعل أو عتب أو نقد بسبب الانقلاب الدموي في 8 شباط / فبراير 1963 في العراق، وربما وجد الفرصة المناسبة لمعالجة الموقف في قصيدته الشهيرة، والتي جاءت بعد عام على وفاة عبد الناصر، خصوصًا وأن الظروف قد تغيرت وأن إسرائيل استهدفت مصر وقيادة عبد الناصر في عدوان الخامس من حزيران / يونيو 1967 ، فكتب لعبد الناصر ثناء خالصًا ومنزها من الغرض، حيث يقول فيها :

أثني عليك، وما الثناء عبادة ... كم أفسد المتعبدون ثناء

وكنت قد سألته لو لم تقل هذه القصيدة بحق عبد الناصر، فمن يستحقها؟ قال لي: كنت أتمنى أن يقولها أحد الشعراء الكبار بحقي نعم أتمنى ذلك، وكم كان متأثرا وهو يروي لي ما حصل!!

وفي هذه القصيدة قام الجواهري وكأنه عالم نفس كبير وعالم اجتماع سياسي أيضا، بتحليل شخصية عبد الناصر بما فيها من عناصر قوة وشجاعة ودفاع عن الحق في ظل صراع دولي محتدم، دون أن ينسى الكوابح التي وقفت أمامه والأخطاء التي ارتكبها، حيث يقول فيها :

لا يعصِمُ المجد الرجال، وإنما ... كان العظيم المجد والأخطاء

وإذا النفوس ترفعت لم تفتكر ... لا الانتقاص بها ولا الاطراء

لا يأبه البحر الخضم روافداً ... يلقى، ولا زبداً يطير غثاء

لم يخل غاب لم يحاسب عنده ... أسد، بما يأتي صباح مساء

تحصى عليه العاثرات، وحسبه ما فات من وثباته الإحصاء

لعل ذلك التقييم الموضوعي للبشر في رؤية ما لهم وما عليهم، هو حكمة الزمن، حيث لم يقصر الجواهري في نقد نفسه وتجريحها أحيانًا، فعبد الناصر الزعيم المخلد لمصر وللحركة التحررية العربية، والذي حقق منجزات كبرى، لم يكن بلا أخطاء، ولا يوجد بشر بلا أخطاء ومن لا يعمل لا يخطأ، وقد كشفت نكسة 5 حزيران / يونيو 1967 حجم الأخطاء الفادحة والعيوب والمثالب التي أدت إليها، ولاسيما الانفراد بالسلطة وعدم إشاعة الحريات، والموقف السلبي من التعددية والتنوع، فالتركيز على الديمقراطية الاجتماعية لا ينبغي أن يكون بديلا عن اعتماد الديمقراطية السياسية، ومثل تلك الأخطاء وقعت فيها الحركة الثورية العالمية والعربية برمتها، إذ لا يمكن مقايضة المنجزات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالمنجزات المدنية والسياسية، التي من دونها لا يمكن الحفاظ على المنجزات الأولى، وهو ما

> **نظرت إلى طه حسين فوجدت الكثير من عناصر الشبه بينه وبين المعري «رهين المحبسين» في البصر والبصيرة والذكاء والأدب والحكمة والإبداع، فملت عليه وهمست بأذنه قائلا: «أنت معري زماننا»**

أثبتته التجربة الاشتراكية العالمية وتجارب التحرر الوطني.

لقد كان عبد الناصر حالمًا كبيرًا، وعاش لأحلامه وضحى من أجلها، على الرغم من التحديات التي واجهها لإقامة مجتمع الكفاية والعدل، وهو ما خاطبه الجواهري بقوله:

أسفا عليك، فلا الفقير كفيته ... بوسًا، ولا قُلتَ الغَنِيَّ كِفَاءَ

وكانت آخر زيارة للجواهري إلى مصر في العام 1992 بمناسبة مرور 100 عام على صدور مجلة الهلال. وكم ظل يردد : كنت أتمنى أن أعيش في مصر . وقد نظم قصيدة بعنوان يا هلال الفكر، ألقاها في دار الأوبرا المصرية بالقاهرة خلال الندوة التي أقيمت له ضمن فعاليات الاحتفال بمئوية الهلال، وتتألف من 58 بيتا من البحر الرمل، حيث يقول فيها :

يا «هلال الفكر» في العيد السعيد هكذا ظل وضيئاً ألف عيد

غواية المضمار

الشاعرة جمانة الطراونة

الأردن

عَـنْ آدمَ المحبـوسِ في الفخّـارِ ... والمـاءُ أوّلُ معجـزاتِ النـارِ

لم ابتكـرْ مطـرَ الحقيقـةِ قدْرَ مـا ... ألهمـتُ روحَ الجـمرِ للجُمّـارِ

وعلى السمـاءِ بكـلِّ تفصيلاتِهـا ... علّقـتُ ما يكفي مِنَ الأقمـارِ

والشمسُ لَمْ تعتدْ على جريانِهـا ... بعدُ اكْتشفـتُ غوايةَ المضمارِ

ما قبلَ فلسفتي سكوتٌ مطلقٌ ... وتأمّـلٌ بتقلُّـبِ الأقـدارِ

فالحكمـةُ الأولـى تقـولُ حياتُنـا ... (سِـركٌ) يليـقُ بأعظـمِ الأدوارِ

لـمْ أختـبرْ صـبري ولكنّـي علـى ... نفسـي قـرأتُ حكـايةَ الصبّـارِ

وفتحـتُ للدّنيـا علـى علّاتِهـا ... قـبري وقمـتُ لخدمـةِ الـزّوارِ

هزليّـةٌ هـذي الحيـاةُ ولـم أجـدْ ... مِنْ حـائطٍ يقوى على المسمارِ

فجُحا الوحيـدُ أدارَ آخـرَ مشهـدٍ ... ومضـى بـلا ذنـبٍ ولا أوزارِ

متخفّفـاً إلّا مِـنَ الضحـكِ الـذي ... منـحَ القلـوبَ طهـارةَ الأبـرارِ

فالنّـاسُ لولا أنْ تبسّمَ بعضُهـم ... واللهِ مـا اختلفـوا عن الأحجارِ

وطـنٌ بلا أهـلٍ كبيـتٍ فـارغٍ ... مترقّـبٍ للبيـعِ والإيجـارِ

فالموطـنُ المنفى مجرّدُ سلعةٍ ... مثـلَ العقارِ بمكتبِ السمسارِ

والشعـرُ أكبرُ مِنْ بكـاءِ مفـارقٍ ... سفـحَ الدموعَ بلحظـةِ استذكـارِ

مـا وقفـةُ الأطـلالِ غيرُ خيـانةٍ ... للـذاتِ قبـلَ خيانـةِ الأفكـارِ

لا يُسـألُ الشهـداءُ عن أعمـارِهم ... إنّ الشهـادةَ منحـةُ الأحـرارِ

ويعلّـقُ الشعـراءُ في كلمـاتِهم ... باسمِ الخلـودِ تميمـةَ الأعمـارِ

سأقـدّمُ الكلمـاتِ حسْبَ هويّـتي ... وهوايتـي وقضيّتـي ومسـاري

فلـذا أفضّلُهـا حجابـاً تـارةً ... أو تـارةً سأخيطُهـا كخمـاري

حقُّ القصيـدةِ أن تصيرَ مسلسلاً ... لا أنْ تجـيءَ كنـشرةِ الأخبـارِ

فالمشهراتُ مِنَ الحروفِ مسدّساً ... يخترنَ كـأسَ الموتِ دونَ العـارِ

ومع التشبـثِ بالبقـاء توصّلـتْ ... روحي إلى المخبوءِ مِنْ أسراري

للـ : مَنْ أكونُ ؟! وما وراء تعلقـي ... بالمستحيلِ وهيبتي ووقاري ؟!

فإذا بلغـتُ إلى اختيـارِ طريقـتي ... للعيشِ واحترمَ الجميعُ قـراري

سأكـونُ نخلـةَ مسجـدٍ أو أرزةً ... إذْ ليس لي شبهٌ سوى الأشجارِ

خذني إلى شهدِ القصيـدةِ نحلـةً ... واتـركْ علـيَّ تخـيُّرَ الأزهـارِ

لـن يصحـو النارنـجُ من أحلامـهِ ... حتّـى يعيـشَ مـرارةَ النـوّارِ

فلفـرطِ تأنيـبِ الضميـرِ أقودُنـي ... للإنتحـارِ إذا أخـذتُ بثـاري

وأمـوتُ بَعْـدَ اللسـعِ موتـاً هادئـاً ... فالموتُ كان طريقةَ استغفاري

أستحلفُ الغيمـاتِ حِينَ تسوقُها ... ريحُ الشمـالِ بطيبـةِ الأمـطارِ

أنْ لا تمـرَّ على ديـارِ أحبّتـي ... إلّا وتهطـلُ فـوقَ كـلِّ جـدارِ

وأقـولُ للمستغربـينَ براءتـي ... الواقفـينَ علـى شَفـا إيثـاري

كـلُّ الحَمَـامِ علـى الفضيلةِ إنّما ... وحدي الّتي فرّخـتُ بابَ الغـارِ!

الفلاحة والعمران

في التراث العربي الإسلامي

د. خالد عزب

باحث في التراث

مصر

قدر العرب الفلاحة والفلاحين، ووضعوها في مكانة سامية، حتى عرفها ابن عبدون كما يلي: «فالفلاحة هي العمران ومنها العيش كله، والصلاح جله، وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام»[1].

وهو ما أكده أيضًا ابن فضل الله العمري: «وأجل الصنائع الفلاحة.. وهي قوام المعايش ومادة الرزق وسبب العمارة وحفظ بقاء النوع».

لذا صارت الفلاحة عند العرب والمسلمين ليست ممارسة فقط من قبل الفلاحين، بل علما أيضًا التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون عرفها بأنها : علم تتعرف منه كيفية تدبير النبات، من بدء كونه إلى تمام نشوئه، وهذا التدبير إنما هو بإصلاح الأرض بالماء وبما يخلخلها ويحييها، كالسماد والرماد ونحوه، مع مراعاة الأهوية باختلاف الأماكن[2].

1 ابن عبدون، أحمد بن عبدالله، رسالة في الفضاء والحسبة ، ص 5، نشرها ليفي بروفنسال، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1955م.

2 التهانوي الحنفي، محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، المجلد الأول، ص 60، دار الكتب العلمية، بيروت.

تطور علم الفلاحة مع ازدياد خبراتهم في التعامل مع مشكلاتها أو في البحث عن زيادة إنتاجية الأرض أو استنباط أصناف جديدة من النباتات حتى أقاموا للتربة علمًا، يقول ابن حجاج: «أول مراتب علم الفلاحة هو معرفة الأرض وميزها وعلم جيدها من دينها، ومن لم يعلم ذلك فقد أضاع الأصل واستحق في هذه الصناعة اسم الجهل». ثم نرى ابن بصال يصنف لنا التربة على النحو التالي: «اعلم أن الأرض التي للغراسة والزراعة تنقسم على عشرة أنواع يوصف كل منها بصفة وهي: اللينة، والغليظة، والجبلية، والرملية، والسوداء المدمنة المحترقة الوجه، والأرض البيضاء، والأرض الصفراء، والأرض الحمرة، والأرض الحوشاء المضرسة، والأرض المكدنة المايلة إلى الحمراء، ولكل نوع من هذه الأرضين نبات يجود فيها وعمل وتدبير»[3].

لكن هل خبروا فعلًا طبيعة كل نوع من هذه وعرفوا كيفية التعامل معها، لنذهب إلى ابن حجاج في كتابه « المقنع في الفلاحة» لنراه يقول عن الأرض البيضاء: «الغالب على طبعها البرد واليبس وبردها أكثر من يبسها، ويدخل في الغالب من خللها بقية من العشب لأجل البرد واليبس الغالبين عليها، لأن العشب لا يكون إلا في الأرض الكريمة. ولا يطول الأمر بسبب المواد التي تكون في الأرض، فعلى قدر المادة يكون عظم العشب وكثرته، ويصلح في هذه الأرض ما كان من شجر التين والزيتون واللوز والكروم وما جانسها، فأما شجر التين فينتفع فيها وتتمكن عروقه وتسري فيها، ولا يخاف على شجرها احتراق لقوة البرودة المتمكنة فيها، ويأتي ثمرها طيبًا لذيذًا في وقته لا تجاوز له، ويحتاج النبات الذي يزرع في هذه الأرض إلى الزبل الكثير ويكون قويًا في الحرارة والرطوبة، ولا تحتمل هذه الأرض الماء الكثير لرطوبتها، وهي محتاجة إلى كثرة الخدمة»[4]. إذا كانوا على هذه الدربة من أصناف الأرض وطرق التعامل معها فماذا عن النباتات، لقد أقاموا للنبات علمًا بلغ أوجه في القرن 10هـ/ 16م، على يد القاسم بن إبراهيم الغساني الشهير بالوزير، المولود 960هـ/ 1533م في فاس، في كتابه (حديقة الأزهار، في شرح ماهية العشب) قدم لنا أول محاولة علمية دقيقة لتصنيف النباتات، فيقسمها تقسيمًا ابتدائيًا يسميه الجنس ويفرعه ثانويًا يسميه النوع وأحيانًا تقسيمًا ثالثًا هو الصنف.

> **وأجل الصنائع الفلاحة.. وهي قوام المعايش ومادة الرزق وسبب العمارة وحفظ بقاء النوع**
> **ابن فضل الله العمري**

فيعتبر حسب التقسيم الأول جنس الشجر وجنس التنماس ويعرفه بأنه ليس من الشجر ولا من البقل، بل يلحق الشجر الصغير كالياسمين والنسرين ثم ينتقل لجنس البقل فيقول: «إنه يتولد من جنته» ويعرفه بأنه «المستأنف كل سنة»، ثم يفصل الغساني الصفات العرضية التابعة للساق والأوراق والأثمار، فبالنسبة إلى الساق يميز جنس اليقطين «وهو نبت يفترش الأرض ولا ساق له، وجنس اللبلاب المعرش وجنس القصب ثم الدبس والعليق والكلوخ، وبالنسبة إلى الورق يميز جنس الهدبات «وهو ما له أوراق مستطيلة قليلة العرض» وجنس المترسات «ذات الأوراق المستديرة» ثم الألسن كلسان الحمل ولسان الثور، والكفوف كالخروع والسيوف كسيف الذئب. وبالنسبة إلى الثمار يميز بين جنس الحبوب والقطاني.. الخ، ومن الاستعمالات الطريفة في لغة العلم ما استعمله الغساني من صيغة الجموع في تصنيفه للنبات، كالشيحات والكلوخ والسعاتر والأقاحي، وتلك خطوة أولى نحو فكرة الفصيلة التي يجمع فيها ما تشابهت صفاته من النباتات[5]». الاهتمام بالنباتات ظل موجودا

3 عبد اللطيف عبيد، المدرسة الفلاحية في الأندلس، ص 413، بحث ضمن أعمال الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، الكويت 1983م.

4 محمد سويسي، أنماط العمران البشري في أفريقية وجزيرة المغرب في العهد الحفصي، ص 75، مركز النشر الجامعي، تونس 2011م.

5 محمد سويسي، أنماط العمران، ص 67.

منذ القرن 1هـ/ 7م وتنامى مع الزمن حتى صار لها علمًا، فها هو رشيد الدين الصوري (ت 693هـ- 1241م) صاحب كتاب الأدوية، يدرس النباتات في منابتها، بل يصطحب معه إلى بلاد الشام مصورًا يحمل أصباغًا مختلفة متنوعة، فإذا شاهد النباتات في منابتها حققها وأطلع المصور عليها لينقلها بألوانها ومقادير ورقها وأغصانها وأصولها، ويصورها بنسبها كما تبدو في الواقع، بل كان يتتبع تطور النبات ويريه للمصور في حال نبته وطراوته، ثم في حال اكتماله وظهور بذره ثم في حال أفوله ويبسه... ويصوره في كل حالاته كما يبدو في منابته من الأرض، فيما يروي عنه مؤرخو علم النبات[6].

> **الفلاحة هي العمران ومنها العيش كله، والصلاح جله، وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام**
>
> **ابن عبدون**

ماذا إذًا عن الماء الذي تروى به النباتات، عمر بن محمد بن حجاج الأشبيلي الذي ألف «المقنع» سنة 466هـ/ 1073م، استهل كتابه بذكر المياه وأصنافها وطبائعها وتأثيرها ومعرفة ما يوافق كل ضرب من النباتات من أصنافها، وهي أربعة أصناف: ماء المطر، وماء الأنهار الجارية، وماء العيون، وماء الآبار، ثم يميز من بينها ما هو عذب أو مالح زعاق أمر قابض أو عفص،أي إنه يعتمد على طعمها أو على أثرها على البدن، حسب ما يسمى اليوم بخواصها الكيميائية، ويذكر ما يستعمل من الطرق للتعرف على الأمكنة التي توجد بها المياه وكثرتها وعذوبتها، ويفصل تفصيلًا ما يحصل به من هذه التفصيلات من تقنيات، فيما يستدل به على بعد الماء وقربه وكثرته أن ينظر إلى الموضع فإن كان ينبت فيه العليق والسعد والحماض والعوسج الصغير ولسان الثور وكزبرة البئر والبابونج وإكليل الملوك فإنه حيثما كان هذا الحشيش كله أو بعضه دائمًا نباته قويًا غضبًا كثيرًا ورقه خصبًا ملبقًا، فهو دليل على كثرة الماء في باطن الأرض، وعلى قدر غضارته وتنعمه يكون قرب الماء ذلك الموضع»[7].

إذا فقد بنيت الفلاحة على العلم والخبرة المتوارثة لدى الفلاحين الكادحين، ولنذهب مع ابن العوام في كتابه الفلاحة ليعرفنا عنها الكثير: «ومعنى فلاحة الأرض هو إصلاحها، وغراسة الأشجار فيها، وتركيب ما يصلحه التركيب منها، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها، وإصلاح ذلك، وإمداده بما ينفعه ويجوده، وعلاج ذلك بما يدفع ذلك بمشيئة الله الآفات عنه، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس في كل نوع من الشجر والحبوب والخضر، واختيار النوع الجيد من ذلك، ومعرفة الوقت المخصص بزراعة كل صنف منها والهواء الموافق لذلك، وغراسة ما يغرس فيها فكيفية العمل في الزراعة والغراسة أيضًا، ومعرفة أنواع المياه التي تصلح للسقي لكل منها وقدره، ومعرفة الذبول وأصلاحها وما يصلح منها بكل نوع من أنواع الأشجار والخضر والزرع والأرض، وكيفية العمل في عمارة الأرض قبل زراعتها وبعد غراستها وتزبيلها وتعديلها لجرى الماء عليها بعد سقيها، وتقدير ما يحتمل من الأرض من أنواع البذر، وصفة العمل في التذكير، وعلاج الخضر والأشجار من الآفات اللاحقة لها وتدبير ذلك كله والقيام عليه بما يصلحه حتى يدرك فائدة ويكثر بمشيئة الله عائده، وكيفية العمل في اختزان الحبوب وفواكه الأشجار وفوائد الأثمار وشبه هذا مما يلحق به إن شاء الله[8]».

6 التهانوي الحنفي، محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، المجلد الأول، ص 60، دار الكتب العلمية، بيروت.

7 عبد اللطيف عبيد، المدرسة الفلاحية في الأندلس، ص 413، بحث ضمن أعمال الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، الكويت 1983م.

8 عبد اللطيف عبيد، المدرسة الفلاحية بالأندلس، ص 413، 414.

القصر العباسي في بغداد -العراق - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

يواقيت من قوافي الأقطار

ذ. المصطفى المعطاوي

كاتب ولغوي

المغرب

يواقيت شعرا بالمدينة تحتفي لسانا وأنغاما تواريخَ تقتفي

وإني لما هيَّ اقتفته لأقتفي قصائد ياقوت بهن سأحتفي

قصائد «يواقيت مراكشية» عقد منظوم، يطوق عنق مراكش بجمال الأخيلة والصور والإيقاعات؛ مصرية يمنية موريتانية سورية عراقية مغربية سودانية تونسية إماراتية أردنية.. ترفل في ثياب العربية باسطة عليها بذخها الدلالي والنغمي، تقرؤها وكأن كل عبقر قد حضر، وأن الوادي جف واندثر.

أربعون قصيدة/ياقوتة، سافرت بنا في بساتين النظم الأصيل، وحدائق الصور المزهرة، ومروج الدلالات المزهوة، لم تترك من مراكش مبتدأ ولا خبرا إلا أعربته بالإيقاع والنغمات؛ قوافيَ اختارت من الأبجدية فخمها ورقيقها، حين تزهو وحين تلين.

لقد اقتفينا آثار هذه القصائد، فوجدنا بهاء نورها مسلطا على مراكش من جهاتها الأربع: النسب والجمال والتاريخ والثقافة؛ فمراكش ياقوتة الأمازيغ والعرب ماضيا وحاضرا، وهي جمال طبيعة وأصالة فن، وهي التاريخ العريق، وأم العلماء والصلحاء والشعراء.

ومثلما احتفى الشعراء الأربعون بمدينة مراكش، ارتأينا أن نحتفيَ بهذا العقد الذي نظمهم، فجاء هذا المقال يحمد صنيعه وصنيعهم؛ فكم يواقيت عربية باهتٌ بهاؤها فقط لأنها لا تنتظم في عقد.

بعد أن شكلنا الصورة العامة للموضوعات التي كانت مقام التغني، وجدنا السبيل إلى هذا الاحتفاء: أبياتا من كل قصيدة تضيء هذه الجهة أو تلك. ولأن المقام احتفاءٌ ارتأينا أن يخبو صوتُنا ليعلو صوت الشعراء إلا ناسجين خيطا حريريا تنتظم فيه حبات العقد.

أولا: تقديم وخاتمة:

في افتتاحية ديوان يواقيت مراكشية للدكتور سالم بن محمد المالك تحضر المدينة حضنا للفاتحين وللصلحاء، يشكلون حصنها المادي والروحي، فبعد أن استهل

الشاعر هائيته (البسيط) باستفهام فني ينقل الدلالة من السؤال إلى التأكيد:

أتيت أسأل عن أمجاد ماضيها؟ أم أن حاضرها يزهو بما فيها

جاء في البيت السادس ليعلن أن:

أبوابها العشرة السمراء باقية تدني الكتائب في صمت وتؤويها

وسبعة من رجال الخير تحضنهم كانوا حماة لها من شر عاديها[1]

وفي ختام الديوان، يستحضر الشاعر نفسه في قصيدة أخرى كل ما جادت به أخيلة الشعراء، يبوح معبرا عن صورة عامة للمدينة تجمع بين العراقة والمجد من جهة، والروعة والجمال من جهة أخرى، مستعيرا غنائية الموشحات الأندلسية ورقتها وعمقها في التعبير عن الدلالة:

جادك الغيث مراكش وهمى وعلا بالأفق خيرا أعظما

أنت عز المغرب الزاهي سنّا أنت للأمجاد صرت المغنما

كل ما فيك أراه رائعا فأراك نجمة بل أنجما

ثانيا: مراكش ياقوتة الأمازيغ والعرب ماضيا وحاضرا

كما استحضرت قصائد الشعراء الأصل الأمازيغي لمدينة مراكش، مع ربط هذا الأصل بالانتماء إلى الإسلام، فهذا الشاعر المصري محمد محمد ياقوت عبد الجليل الشاكري يقول من هائية شامخة (الطويل) شموخ الأهرامات التي أنجبته؛ إن الذين بنوا مدينة مراكش:

أمازيغ في الأصل العتيق الذي دعا مرابطهم في عزة فبناها

بنوها على الإسلام والعلم والتقى فأضحت ينابيع التقى وحماها

بنوها على القرآن واليمن واليمنى فصارت مصابيح الهدى ومناها[2]

ويبدو أن الشاعر السوري مفيد فهد نبزو أخبرته «جنيته» بما سيذكر ياقوت، فهيأ في همزية (البسيط) مستلهمة من «عروس الصحراء» ما به قصيدة ياقوت تحط رحالها؛ حين أفصح بأن مراكش ارتبطت بقبيلة لمثونة الأمازيغية تحديدا، يقول:

فالقائد الشهم لمثوني سيرته ليث أبي ونفس الحر سمحاء

أبطالها الصيد أبطال غطارفة يوم الوغى ولهم بالحق ما شاؤوا

بسبعة من نجوم الفكر قد بزغت عدلا وعلما فلا ظِلْم ولا ظلماء[3]

ولمثونة هذه تعرفها صاحبة ديوان «تكبيرة الماء»، وإلا من أين لبنت قرطاج الشاعرة سمية اليعقوبي أن تربط القبيلة بالمرابطي؟ ففي ميميتها التي زها بها بحر الكامل زهو يواقيت خضرٍ وحمرٍ؛ تصف الشاعرة مراكش بأنها:

ياقوتة نقشت بعين مرابط من فرط نور بان منه، تلثما

عن أمنا السمراء أوقد سيرة ليحث ثغر النار كي يتبسما[4]

يطل علينا من الجيزة المصونة بحكمته صاحب «آخر بسماته»، ليبسّط مسألة «الانتماء الأصغر»، فمهما كان منشأ المؤسسين أو البناة، فهم كانوا يبنون عاصمة المغرب؛ بوغازه يلطف لظى صحرائه، وصحراؤه تدفئ مقرور بوغازه، الجنوب ناضل نضالا وثقه التاريخ القديم، وحاضره مثله وثقه التاريخ المعاصر، هذي مراكش:

هذي (مراكش) تزدهي بحضارة جلست على كتف الزمان طويلا

ونضالها لم ينسه التأريخ في (أسد لريف) قد علا ليصولا

هو ذا الخطابي الذي بنضاله صاغ الملاحم للبلاد وصولا

في وجه محتل تأبت تعتلي وتحررت لتحقق المأمولا[5]

أما الشاعرة الإماراتية عائشة الشامسي، فـ«أغفاءتها على صدر القصيدة» منحتها يقظة أكبر، فقد كتبت ما رأته من أعلى «البرج»؛ رأت قمم الأطلس «تصلي صلاتها الكونية» على رمال الشرق العربي؛ فإن كانت مراكش ومؤسسوها من بلاد الأمازيغ، فهذا يزيد من عروبتها، ذلك أن المدينة إسلامية، والإسلام جاء مع الفاتحين الأول، وهم عرب، امتزجت الدماء والأنساب، لذا فالمدينة تزهو:

وتعبق رائحة الكبرياء لشعب به العزم لم ينضب

وتسرد ذاكرة في الهواء لقاء الأمازيغ والعرب

وتحكي شوارعك الدافئات همس التوابل للذهب[6]

« فكيف يطير الكلام» إلى العروبة إذًا؟ يعرف جواب ذلك الشاعرُ محمد حامد عبد الله العياف، هذا الأردني الذي سحرته غزلان «وادي الريان» الهائمةُ، فرأى ظباء مراكش أردنية شامية عربية، حُسنَ طرف وشموخَ هامة، يقول في قافية من البسيط:

ظبي الأمازيغ في مرعاك ذكرني ظبي الشآم بحسن الطرف والعنق

والطيبون ذووك الصيدُ أغلفة لما تواتر من تاريخنا العذق

أكلت من سلة الأوطان أطيبها كأنني قبل هذا الحسن لم أذق

قد ضقت ذرعا بألفاظي وأخيلتي لولا اتساعك في الإدهاش لم أضق[7]

وإن «قست قصائد» الشاعر أبي زيد إسماعيل علام إسماعيل، فقصيدته التي شارك بها في هذا الديوان كانت أشبه بـ«زخات حلم»، حلم كل عربي أن ترفل يوما القدس في عروبتها، عروبة تمتد من أطلس مراكش حتى كنيسة المهد؛ ثغرا عربيا مقدس التاريخ والمكان والانتماء، فها هي مراكش تفتح له اليوم أبوابها الثمانية حبا، مثلما فتحت له قديما أبوابها انتصارا:

تمد للقدس قلبا عاشقا ودما وتمطر الأرض من أمجادها ودقا

منارة الله فيما كان من ظلم وبابها في سبيل الله ما غلقا

تلقاك فاتحة حبا ثمانية وكل باب لها قد طاول الأفقا[8]

ومن المحيط إلى الخليج، ذهابا حبًّا وإيابا بوحًا دون تذاكر عبور، لا تحتاج الأندلس هي الأخرى تذكرة، وإنما تحتاج إلى تذكير، فعروبة

1 سالم بن محمد المالك، مراكش الأمجاد. ص: 5.
2 محمد محمد ياقوت عبد الجليل الشاكري. مراكش جنة المنى. ص: 137.
3 مفيد فهد نبزو. مراكش حورية الأطلسي. ص: 148.
4 سمية اليعقوبي. مراكش الفرهاء. ص: 51.
5 محمد فاروق محمد عثمان. مراكش. ص: 127.
6 عائشة الشامسي. المدينة الحمراء. صص:-61 62.
7 محمد حامد عبد الله العياف (العموش)، فيوض لمدينة الأولياء. ص: 113.
8 أبو زيد إسماعيل علام إسماعيل. لها ثمانية أبواب. ص: 10.

مراكش حاضرا هي أندلسيتها ماضيا، علاقتها بـ»الفردوس الخالد» علاقة فاتحين جدد بفاتحين أوّل، وكلهم سلالة طارق بن زياد، إنها ضفاف انتماء، كـ»ضفاف البوح» الذي يجمع فيه الشاعر علي عبد الحميد مصطفى أحمد الهتار عيون القصائد العربية بلمسة ملكية قادمة من عبق التاريخ اليمني المجيد، إذ يقول في رائيته (الكامل):

وإذا خبا بعث الزمان أسوده — قوما على الدين الحنيف غيارى
هم جددوا المجد القديم — لطارق وتجمعوا عند البحار بحارا
وقفوا وما انشق المحيط — ليعبروا يا للمحيط يخبئ الأمصارا
لكنهم عبروا المضيق — ووسعوا ساحاتهم وتمددوا أقطارا[9]

هؤلاء الفاتحون الجدد الذين انطلقوا من مراكش نحو الأندلس لتثبيت عروبتها وإسلاميتها، قبل أمازيغيتها ولمثونيتها، لا بد من تخليد ذكراهم دون المرور عليهم عبورا كريما، وهذا ما تفطن إليه صاحب «عتبات»: الشاعر المغربي يونس لشهب وليد مدينة تطوان، حيث أجداده شهود على العبور، سمع حكاياتهم من الجدات قبل الكراسات، يظهر ذلك جليا في قافية مفتوحة على العدوة الشمالية بنغمة البسيط، يقول إن هؤلاء الفاتحين:

راق الزمان لهم، ألقى مودته — وقلد الوارثين العز أطواقا
مدوا ظلال الندى في كل خافقة — فاسأل بأندلس تنبيك إحقاقا
من صان عهدا لرب الناس يصدقه — والقوم أصدق من يُؤتون ميثاقا[10]

وأختم هذا الحوار الذي اختلقناه -طالبا الاعتذار من زملائي الشعراء على «النميمة» الفنية- بشاعر خبر أطلسية الأندلس وأندلسية الأطلس، تأليفا نقديا وبوحا شعريا، وهو الشاعر الموريتاني أدي ولد آدب الذي لا زال راحلا بين الحاء والباء، باصما روحه بين الوجوه والخرائط، باحثا عن وطنه المرجى، مقيما بين مثلث الشعر والحسن والحب، يرى في سين الأندلس امتدادا لسين الأطلس حقيقةَ مجازٍ، سألناه لماذا جاء فأجاب من الكامل:

قد جئت أرسم جنة الصحراء عا — صمة المغارب بالحروف وبالقسي
لتكون سيدة المآذن كلها — ما بين أندلس لأقصى الأطلسي
يستقطب الدول العظيمة سرها — درس الزمان وسرّها لم يدرس
يتعشق الأمراء والعلماء والشـ — ـعراء فيها مستراد الأنفس[11]

ثالثا: مراكش؛ جمال طبيعة وأصالة فن

احتفت قصائد يواقيت مراكشية بطبيعة مراكش، فتغنت بأطلسها وحوزها ووديانها، أما عن جبال الأطلس فكثير من شعراء الديوان رأوا فيها مولود «طماح الذؤابة»، ومنهم الشاعر اليمني أحمد طه عبد الحميد مصطفى الهتار الذي حمل أطياف شموخ «المنار» و»بعدان»، في ميمية من الكامل تشْده لها النفوس وتهيم من صورها الأخيلة، جمال الأطالس عنده مصدر إلهام تستسلم له النفوس والأهواء، يقول:

وجبال أطلس في المدى مشدوهة — متمايل في كنهها الإلهام
رأت الجمال كما تريد فأدركت — أن الإرادة ها هنا استسلام[12]

والأطلس هذا ليس مجرد رمز للشموخ والجمال وإنما «وثيقة» توثق تاريخ المدينة العريق، تماما كما يوثق «البركل» عراقة السودان وتاريخها وحضارتها، نجد هذا التمازج بين العَلَمين في قصيدة الشاعر السوداني زكريا مصطفى أحمد الحسن الذي تناغم الجبل والإنسان في مخيلته مفرزا بائية بديعة من المتقارب يقول في أحد مقاطعها:

جلست وكان فراش الموسيقى — يحط على القلب والقلب صب
كأن الجبال صدور حسان — تمكن منها هوى تشرئب
أنا أتأمل تاريخ نبض — عليه الكريات شرق وغرب[13]

وهذا التاريخ المجيد الذي تحتويه عيون الأطلس، تسمع في سفوحه صهيل خيل الفاتحين يتردد صداه في الأعالي، صورة من صور الفروسية التي تمثل جزءا من الهوية المغربية، تحضر في ذهن الشاعر المراكشي عبد اللطيف خوسي، وقد رقصت رائيته رقص أهداب العاديات في سهول الحوز البديعة، تحرسها السفوح، وترويها الوديان، يقول:

وعيون أطلس تحتويك بسفحه — لترى ملامحك البهية تنفر
جيشا تصاهل في السماء خيوله — يحكيه فخرا في المنارة منبر[14]

9 علي عبد الحميد مصطفى أحمد الهتار. مراكش. ص: 87.
10 يونس لشهب. من ذاكرة الرقيم. ص: 170.
11 أدي ولد آدب. مراكش سيدة المآذن. ص: 24.
12 أحمد طه عبد الحميد مصطفى الهتار. هطول على التأريخ. ص: 13.
13 زكريا مصطفى أحمد الحسين. ظلال لمدينة النخيل. ص: 48.
14 عبد اللطيف خوسي. احتضان أحمر. ص: 70.

هكذا ماضي مراكش الطارف أبدع حاضرَها منها التليدُ، و«بلارج» هذا الطائر «الودود» شاهد على هذه المسيرة الباذخة، يرى فيه الشاعر الموريتاني الصفي بن أحمدو سالم الخليل رسولا بين الماضي والحاضر، ينثر عليه في نونية عريقة من البسيط لغةً شنقيطية الأهواء، يدعوه فيها إلى التحليق تحليقَ «أولياء الله»، قائلا:

فطر «بلارج» زهوا في السماء وقل ... أنا الرسول من الماضي إلى الحين

هنا -يدَ الظلم- سيف الفاتحين.. ... هنا يا غيهب الجهل أنوار الدواوين

من ذا يفاخرها إلا وتغلبه ... أمرا من الله بين الكاف والنون[15]

وإذا كان الأطلس رمزا للتاريخ المجيد، فهو اليوم رمز للحاضر الخصب الجميل، صورة يقتطفها الشاعر مصطفى الششتاوي من غلال الأهرام، هذا الإبداع الحضاري الذي غدا مهوى كل قلب وكل عين، بعد أن كان آسرا للعلماء والمنقبين، يقول في داليته من البسيط:

وبالمطاف وقار الشيب في قمم ... تطل من علوها بالري والرغد

فيستحيل نخيلا زان بردتها ... ويورث العز والنعماء للولد[16]

والحديث عن الجبل لا يكتمل دون الحديث عن السهل والوادي، حيث الحقول الحوزية حديقة طبيعية تنشرح لها النفس، هنا تتكلم سينية الشاعر اليمني محمد علي علي المهدّي، بشمعته التي تضيء العدم، وفاصلته التي تؤاخي بين جهات الرمل ونواحي الوادي والسهل، فـ:

(وادي نفيس) يشرح الأنفاس إذ ... تدعوك كل حقوله: استرحِ اجلسِ

(ووادي أوريكا) كم يريك مسرة ... محفوفة بسحابها المتلجس

من ألف عام والجمال (حديقة ... سرية) أسرارها في الأنفس[17]

وسهل مراكش وجبلها والوادي ليست مزارا للعين والقلب والخيال؛ وإنما لذة عيش واشتهاء نفس، فهذا التنوع المجالي يخزن خيرات وقف عندها شعراء اليواقيت، ومنهم الشاعر المغربي مصطفى ملح، بحيث يدق «أجراس» اللذة، لذة الزيتون واللوز والتمر، يقول في قافية ممدودة إلى السماء مبسوطة على إيقاعات الحدائق:

حدائق لم تزل في الحي شاهدة ... على مروج الشذا مزروعة عبقا

نخل يحف به طير يداعبه ... وفي الجوار أريج حاضن حبقا

كأن زيتونها النامي بمرتفع ... كتيبة من صقور غطت الأفقا

خمائل اللوز ترعى المقلتان بها ... والقلب من ظمإ في النور قد غرقا[18]

يحاوره الشاعر السوري هشام أحمد جنيد مضيفا إلى الغلات تلك الرمانَ والتينَ، وكأن الشاعر يرصد بعين هندسية حاسوبية «دقائق الخيرات»، يرصد منافسة الرمانِ والتينِ للزيتون والنخلِ، هذا الأخير وإن كان يفيء على أهل المدينة ومن حولها:

ينافسه الرمان والتين إذ غدا ... لهم في ثنايا الأرض ما طاب أو صفا

ويا خضرة الزيتون تبدين مبسما ... وكم زيته الميمون يرجى ويصطفى[19]

نخل وزيتون ورمان وتين، فأين البرتقال والصبار وألوان من الأشجار؟ لم تكن «خارج حلم» الشاعر اليمني وضاح علي علي حاسر، ولا كانت «في مهب الغياب»، يعطف الشاعر هذه على تلك استكمالا للأثر البهيج، يتغنى بها في هائية مطلعها صبح ضاحك في سوار المدينة وليل مشنوق إلى أسوارها:

فالبرتقال المشتهى والتين وال ... زيتون والرمان من أشجارها

والخيزران يضم برديها كما ... يحنو صنوبرها على صبارها

(مراكش الحمراء) (عاصمة النخيل) ... تذوق التاريخ ينع ثمارها[20]

هذا التنوع الجغرافي والتاريخي والحضاري ألبس مراكش صورة الفرادة في الزينة والفن والحرف. فرادة وقّعها «قدسائيل» على «بريد النخل»، ينوب عنه ابن شط العرب حسن سامي العبد الله، رأى هناك نقوشا ودَقّة وقفطانا، يناديها ببائية طويلة، يا مراكش:

ويا نقشة «القفطان» يا زينة النسا ... لكم قلت للولهان «أهلا ومرحبا»

وجدت في «نامسكار» نفسي طليقة ... إلى «دقة» السمار تصغي لتطربا

بمراكش الفيحاء ألفيت خاطري ... مع الطوب والطابوق فيها تقولبا[21]

رابعا: مراكش تاريخ عريق

إن أردت أن تستجليَ تاريخَ مدينة وعراقتَها فانظر معالمَها، إنها الشاهد الذي لا يقدر عليه الباطل، ولمراكش منها نصيب كبير، والقصائد التي بين أيدينا تكاد لا تخلو واحدة منها من ذكر معلمة مراكشية. والقارئ ليحار -حقا- في إيجاد سبيل لجمع يواقيتها في عقد منظوم بدقة متناهية، وقد نثرنا عقدها نستمتع بفرائدها ومنها فريدة الشاعر اليمني أحمد الجهمي، نونية بسيطية تتغنى بجامع الفنا، يحضر فيها نون «سليمان» وإن «لا هدهد اليوم». يقول:

مراكش الخير فاطرق بابها الآنا ... وقف على مشهد الأمجاد نشوانا

واسكب جوانحك الخضراء ... في يدها شعرا به تطرب الآفاق ألحانا

حيث «الفناء» منار الزائرين على ... بساطه تلمح التأريخ مزدانا[22]

15 الصفي بن أحمدو سالم الخليل. السلطانة الحسناء. ص: 55.
16 مصطفى الششتاوي. مراكش. ص: 139.
17 محمد علي علي المهدّي. معلقة الجنة. مراكش. ص: 121
18 مصطفى ملح. مراكش. 141.
19 هشام أحمد جنيد. نسيم أرض الله. ص: 152.
20 وضاح علي علي حاسر. أغنية الحضارة والجمال. ص: 161.
21 حسن سامي العبد الله. أرض الله. ص: 41.
22 أحمد عبده علي الجهمي. لعيون حمراء المدائن. ص: 17.

يضفي الشاعر السوري أنس فريد الأسود على ساحة الجامع طابعا صوفيا مستمدا من الجوامع والأضرحة الدمشقية، حيث الصلاة في هذا (الفنا) كالصلاة في (البديع) وفي (الكتبية)، هي صلاة حب وجمال ورؤى، يوظف الشاعر بحر الكامل ودال الهداية والعبادة لرسم الصورة التي يتجمل فيها المكان بجلال المقدس، يقول:

صليت فرض الحب شعرا في (الفنا) والشعر أبلغ ما يكون إذا اهتدى

فأطال في كنف (البديع) سجوده وبسورة الحسن المجاز تعبدا

في ساحة (الكتبية) افترش الرؤى متزملا دفء السكينة والهدى[23]

ويتمم الشاعر المغربي عثمان الهيشو قرابشي ما كان يجب أن يتمه، من أن الجامع وساحته سليلا قصر الباهية، هنا ترى الشاعر يعرج بالمكان كما «يعرج الدم» في العروق، تعرج الأبواب والشرفات، ويعرج الجمال والتاريخ، تُسمعك لام الروي صدى أسطوريا قادما من «مغارة هرقل»، ويشطح في دواخلك البسيط، رقص الدراويش لا رتابة.. لا ملل، يقول:

وقصر باهية آيات معجزة من شدة الحسن صارت للقرى مثلا

ما زلت من شرفة في الروح أبصرها معنى تسامى وتاريخا قد اكتملا

وباب حلم إلى اللا أين يأخذني تهيم رجلي وقلبي يعرف السبلا[24]

ولا زالت أخوات الجامع تطلب ود الشعراء حتى أتاها الشاعر التونسي محمد علي بن عمر بن الهاشمي سعيد، يخيط برنسا لغويا وجبة إيقاعية تحميل ترانيم «القيروان»، فيضيف السقاية ودكالة وأغمات، يجول بين المواسين كما تجول الباء بين باهية وحب ومحراب:

أتسور المحراب طفلا باحثا عن آية تتلى ولحن يعذب

عن حلم «باهية» عن «مواسين» الألى شهدوا لعبد الله وهو الأغلب

ولقد نثرت الحب في دكالة ووددت في أغمات قلبي أنشب[25]

وللمدينة أبواب، مفاتيحها رائية كاملية قادمة من أصالة «الصعيد»، يمسك بإيقاع رناتها شاعر مصري اسمه فكري عبد السميع كامل، هنا تتآخى الأبواب ومخيالا شكلته «زويلة» و«الفتوح» و«النصر»، لا شرقيا ولا غربيا، أهراميا أطلسيا؛ شموخ مكان وشهامة إنسان. هنا مراكش:

(أبوابها السبع) العتيقة معلم يحكي الشهامة والبطولة أدهرا

وهي التي في الغرب لم تغرب ولم تعرف سوى الإشراق يوما معبرا

لا شيء يشبهها فكل خصالها سحر وفي دمها التواضع قد سرى[26]

وأبواب مراكش؛ سبعة كانت أو ثمانية أو عشرة، أبواب أميرية تفتحك على ساحات وقصور وجنات وطيور، فاسأل المصري عبد الناصر عبد المولى أحمد عبد المولى يحدثك عن باب أغمات، تجول بك رائيته الرائعة بين الأزقة الضيقة المعتمة، وأنت تسمع كأنك ترى، يقول:

من باب أغمات إلى باب الشري عة جنة ترتادها الأطيار

يا ساحة باسم الفنا فنيت بها في مبتغى أوصافها الأشعار

قصر البديع من العجائب سمْتُه كم من بدائع في رباك تزار[27]

ولأن مراكش من المدن التاريخية العريقة، فأبوابها وقصورها وساحاتها ومساجدها وحدائقها تحرسها أسوارها الشامخة التي تشهد على براعة بناتها، هذه الصورة المتشاكلة المبنى المتكاملة المعنى، الشيقة «المغنى» هي للشاعر السوري أسد تركي الخضر، يلعب باللغة والإيقاعات كما تلعب الحملان أرجاء «حوران»، تطربها وهي راتعة همزةُ ماء:

يروون عن هذه الأسوار شامخة كيف استطالت ويحكي عنك بناء

بكل قصر سما عصر يؤرخه وفكرة تذهب الألباب شماء[28]

خامسا: مراكش رحم العلماء والصلحاء والشعراء

احتفت يواقيت مراكشية بإنسان مراكش أيما احتفاء. فمجدت المؤسسين والصلحاء والعلماء والشعراء، وترددت في القصائد أسماء قرأ عنها العالم، وعنها كتب. في هذه الفقرة سنتناول مقاطع من الديوان كان لرجال مراكش فيها نصيب من الذكر، ومن هؤلاء الرجالُ السبعة[29] . يناديهم الشاعر اليمني من ممرات لا «تنهر العابرين»، في قافية البسيط، حيث لا «تيه» ولا «دمعة»، ولا «انحدارات»؛ فقط تسبيحة لمن أحصى كل شيء عددا، يذكر الشاعر من هؤلاء الرجال «سبتيهم» بعد أن ناداهم نداء المخبت الثمل:

يا سبعة كلما أحصيتهم كثروا سبحان من أبدع الإنسان ما خلقا

دنيا الأساطير لو قلبت سيرتها قالت: مراكش نجم يحرس الأفقا

تغيب شمس ويمضي إثرها قمر قد ألفناك ضوءا يسحق الغسقا[30]

أما الشاعر السوداني عمار حسن سعد الدين الفكي محمد فتستجمع مخيلته من «على شفة الحلم» صحارى الشمال، وغابات الجنوب، وشيئا من نسيم أحمرَ يتلاعب على ضفاف النيل؛ ليرسم لنا صورة بهية؛ فيها يضفي على النسيم صفة الإنسان المتصوف، يستمد روحه من روح رجل آخر من رجالات مراكش، وهو «التباع»:

العين أنت وبعد كل مدينة مرت على مر الزمان المقفل

متصوف فيك النسيم كأنه من جبة التباع فاز بمغزل

حراسك السبع النجوم منيعة عن كل ما نال البلاد بمقتل[31]

لمراكش سبعة علما، ورجال «كُمّلا»، متصوفة قضاة «صُلحَا»، ولهم أيضا «إشراقات شعرية»، هو ذاك «الجمع بصيغة المفرد» اجتمع في ابن عباد، يحيي ذكراه صاحب «الشك أفصح ما لديك»؛ الشاعر المغربي مبارك العباني الذي يرى في الأسير ملهما ومرجعا، وقد اختار له رائيةً من البسيط نغميةً شجية، تضوع شوقا وحنينا، يقول:

23 أنس فريد الأسود. بنت الأطلس. ص: 32

24 عثمان الهيشو قرابشي. شرفة في جنوب الروح. ص: 76.

25 محمد علي بن عمر الهاشمي سعيد. مراكش ابتسمي. ص: 118.

26 فكري عبد السميع كامل. الياقوتة الحمراء. ص: 98.

27 بد الناصر عبد المولى أحمد عبد المولى. مراكش الأنوار. ص: 73.

28 أسد تركي الخضر. مراكش أيقونة الزمن. ص: 28.

29 الرجال السبعة هم: يوسف بن علي الصنهاجي، والقاضي عياض، وأبو القاسم السهيلي وأبو العباس السبتي، ومحمد بن سليمان الجزولي، وسيدي عبد العزيز التباع، وسيدي عبد الله الغزواني.

30 عليّ أحمد حسن الحسامي. مراكش. ص: 81.

31 عمار حسن سعد الدين الفكي محمد. زخرفة على جدار الحمراء. ص: 93-94.

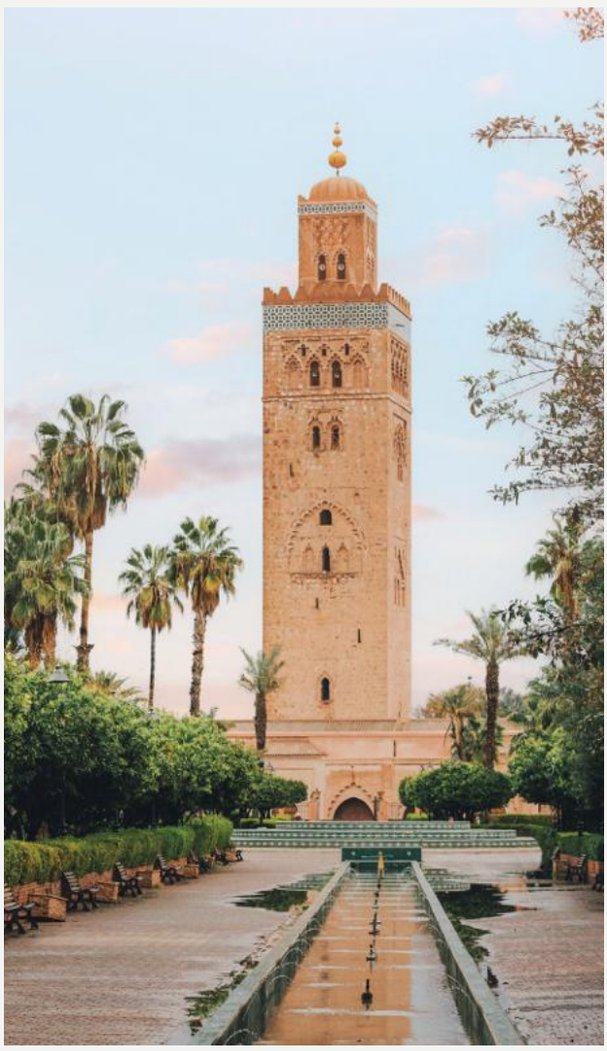

لي في ابن عبادك المأسور في خلدي — من ساطع الشعر ما لليل من قمر
يدير عن قلبه جمر الحنين فإنْ — سال الحنين عن خديه لم يُدِر
يا أنت وارتدت الأوصاف عن إربي — من كل منتظم منها ومنتثر[32]

ويؤازر العباني مواطنُه ابن جبل «تيلدات» المبتسم لمدينة شيشاوة، الشاعر حمزة الخازوم، محيلا على ابنَ عباد رمزا بقصيدته الشهيرة التي كتبها في سجنه بأغمات يرثي فيها نفسه. ولتعميق نوستالجيا حاملة المحنة على صهوة التغني اختار صاحب «قاب وحيين» همزية من البسيط جرّ فيها الأنا الفرد إلى أنا الجمع في استهلال فكك بنيته القديمة وأعاد ترتيب العمود، هو الآن أمام «القبر الغريب» يقول:

أرنو إلى القبر في (أغمات) أقرؤه — «قبر الغريب» وأبكي كل «أشلائي»
أرنو إلى القصر إذ أرنو.. فأبصره — يكاد يخطف بالأنوار أضوائي
وساحة الفنا آثرت مسجدها — كان ابترادي وفيه اليوم إذكائي[33]

(تلك أمة قد خلت)، نهلت منها أمة مراكش اليوم جوهرها، الطيبة والوداد والخير والفكاهة دون ابتذال. يصف الشاعر المصري عادل حماد سليم روح المراكشي وكأن صاحب «شاهد ومشهود» ابن الدار. هو -وإن كان يرى «للشمس صهيلا» و«للرحلة حريقا»- فقد تمدد في أيك الغناء، ينصت إلى طيور الحب تقرأ كف المراكشي ودماءه، يقول من البسيط:

سكانها الطيبون الحب شرعتهم — إن أسفر الصبح فيها أو سرى الغسق
زرع الوداد تجلى في مناسكهم — فمن جميع صنوف الخير قد رزقوا
طبع الفكاهة يجري في دمائهمُ — بلا ابتذال.. مزاح ما به نزق[34]

الوداد المراكشي صنعه تاريخها، جبلة سرت جيناتها في خلاياه «مذ كانت الأرض أرضا»، هي -والخير والمرح- مستمدة من بساطة المدينة، أو كما أراد لها الأسلاف أن تكون، سهلة في ظاهرها ممتنعة في عمقها. تقدر على لملمة المشهد الباذخ روح عاشت في بسيط الأرض، تنهل من عذريتها أخيلة نقية صافية. هذا ما قرأناه عند الشاعر السوداني الواثق أحمد حامد يونس، ترى موهبته التشكيلية حاضرة في هندسة القصيدة، يقول:

هذي المدينة وعد القادمين على — مسارح الوقت يحذوهم توقعها
بساطة ألهمت عمقا وشاردة — من الغمام يشي بالبحر مطلعها[35]

ويبدو أن الشاعر المصري وفيق جودة السيد رأى «ما لا يرى البلور»، كأنه «ملاك مُرتد» على عقيدة «الثلج» نحو ملة «الحرارة الشعرية»، يرى في تلك البساطة أسرا للقلوب، إذ الأحمر ليس في العين لونا وإنما في الروح سحر وشجون، فأتت قصيدته مزيجا بين الأنين والحنين والفتون، تبيت المدينة على الذكريات الثرية ثم:

تصحو الشوارع والبيوت ببهجة — وتنام حين تنام دون شجون
والأحمر الممتد في الجدران كم — أسر القلوب بسحره الموزون
ماذا بأرضك كي تتوجك الدنا — سلطانة عشقت بكل جنون[36]

هي هذه مراكش، ليس كما احتفى بها شعراء «يواقيت مراكشية»، لكن كما اختزلتها أخيلتنا مما سرقناه منهم -سامحتنا قصائدهم- أما كيف احتفوا هم بها فليس لقدرتنا على سبر أغوارها سبيل، حقيقة لا تواضعا، وقد ارتأينا -لعجزنا عن خاتمة تفي حقهم- أن نطلق لسان واحد منهم يختم المقال. هو الشاعر المغربي محمد بوكريم، تشربت لغته وأخيلته بهجة السقالة والمتحف والبرج، ورأى أبواب مدينة الصويرة بعين مراكشية أو العكس، أسرار المدينتين وتاريخهما، ومآثرهما ومآذنهما، وزمانهما، والشمس والأوراد، والمنارات والزهور، الكل هنا وهناك: حسن طالع لمن يصبح عليهما ويمسي، يقول من الكامل:

مراكش التاريخ والأسرار والأو — راد والآثار منك تؤصل
فيك «ابن يوسف» للمآثر قبلة — ومآذن تهفو إليها النزل
فيك الزمان ومنك تطلع شمسه — تاجا على رأس المدائن يحمل
أرض تقدس في السماء منارها — وتضوعت منها المآثر ترفل[37]

32 مبارك العباني. لأن ليلك كف الأمهات. ص: 102.
33 حمزة الخازوم. ورقة ابن تاشفين. ص: 44.
34 عادل حماد سليم. عاصمة البهجة. ص: 58- 59
35 الواثق أحمد حامد يونس. سفر في سيرة الحمراء. ص: 157.
36 وفيق جودة السيد. مراكش الأحلام. ص: 165.
37 محمد بوكريم. سفر في التاريخ. ص: 110.

اسمها دعابة

إنعام كجه جي
كاتبة
العراق

لفتتْ تلك الفتاة نظره في الحافلة رقم 47 المتجهة نحو مستشفى كرملين الجامعي. ينطلق الباص من قلب باريس ويقطع نهر السين من ضفته اليمنى نحو الضفة الجنوبية ويمرّ عبر ساحة إيطاليا والأبراج السكنية الجديدة ثم يخترق ضاحية كرملين التي أطلقوا عليها هذا الاسم لأن مجلسها البلدي كان بيد الحزب الشيوعي في سالف الزمان. تقهقر الحزب لكن الضاحية اتسعت وبقيت تشرع أحضانها للمهاجرين ورقيقي الحال.

لاحظ أنها كانت تطالع كتاباً بالعربية. انتهز خلو المقعد الملاصق لها وجلس فيه. مدّ رقبته ونظر في كتابها. انتبهت لحركته وهو كان يريدها أن تنتبه.

• أتقرأين العربية؟

• نعم، أحاول...

• أنا كنت مدرّساً للأدب العربي.... قبل التقاعد.

• حقاً؟ هذه فعلاً مصادفة غريبة.

• ما الغرابة؟

• الغرابة يا سيدي أنك فرنسيّ ويبدو أنك تجيد لغتي أكثر مني.

• لنقل إنها من المصادفات السعيدة التي تحدث في وسائط النقل العام.

• نعم هي مصادفة سعيدة بالنسبة لي لأنني أحتاج شخصاً مثلك.

نزلت البنت الشابة وراء الرجل المتقاعد في محطة «ميزون بلانش». سارت بجانبه وكأنها تعرفه. من يراهما يتصورهما أب وابنته. فهو كان نحيفاً مثلها وقد تركت شمس الصيف ألوانها على جلد ساعديه.

• لو لديك ربيع ساعة يا سيدي فأنا أدعوك لفنجان قهوة.

• عشر دقائق فقط، لا غير، شرط أن تكوني ضيفتي

جلسا في أقرب مقهى وأسرعت الشابة بالكلام قبل أن يلبي النادل طلبهما. لديها نص بالعربية وهي تبحث عمن يساعدها في تصحيحه. قصة قصيرة تنوي قراءتها في الفصل الدراسي بمعهد «إينالكو». إنها الأحرف الأولى التي تختصر تسمية مدرسة اللغات الشرقية في باريس.

كانت تتحدث العربية بلهجة مغربية. تتعثر قليلاً في اللغة الفصحى. وفهم منها أنها طالبة في الصف المنتهي. وللحظة من الزمن أحسّ وكأنه عاد إلى الخدمة. إلى مهنة التدريس التي مارسها لأربعين عاماً. لذلك ترك نفسه لفنجان القهوة وتساهل في الدقائق العشر. وافق على الطلب بأريحية وأعطاها رقم هاتفه لكي يتفقا على موعد في المقهى ذاته. ستحضر ومعها القصة لكي يقرأها معها ويصحح ما قد يكون فيها من هنات.

• سجلّي اسمي... برنار فورنييه.

• شكراً يا مسيو فورنييه. أنا اسمي دعابة.

• دعابة؟

• لست أول من يستغرب ولن تكون الأخير. أبي كان صاحب نكتة.

تلك كانت بداية القصة فحسب. فقد امتدّت علاقة المسيو فورنييه بدعابة، أو مدموازيل دوّابا، لأكثر من ستة أشهر. اكتملت قصتها القصيرة وقرأتها أمام زملاء الصف ونالت استحسان المدرس. تلك كانت القصة الخيالية. أما قصتهما الواقعية فقد بدأت في حافلة النقل العام مع أواخر ذلك الصيف وانتهت في الربيع التالي. دعته، على سبيل العرفان، لتناول العشاء على مائدة أسرتها. وكان مأخوذاً وهو يتذوق طبق البسطيلة المحشوة بالجوز ولحم الدراج والمرشوشة بالقرفة وغبار السكّر. كاد يدور حول نفسه مثل الدراويش. بعد ذلك دعاها لتكون ضيفة على عائلته في عيد الميلاد. تصادقت مع ابنته وتبادلا الهدايا. لم تكن بينهما باقات ورد أو عطور وعلب شوكولاتة. تتهاديان الكتب كما يليق بالشابات التواقات للاكتشاف والمعرفة.

ثم توقفت الاتصالات لدواع الانشغال أو مجرد الخفر. لم يكن في يوميات المسيو فورنييه متسع لصخب دعابة. وهي بدورها لم تجد في شبابها فسحة لأستاذ متقاعد. يحدث أن تنشأ الدعابات في آخر الأماكن توقّعاً لكنها سرعان ما تنتهي مع قرع جرس الترجل من الحافلة.